



الأمم كِتَابَة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

العدد : ١١٢ ربيع الأول ١٤٢٧ هـ السنة السادسة والعشرون

التقنيات الحديثة

فوائد وأضرار

دراسة للتأثيرات السلبية على صحة الفرد

أ. د. شعاع اليوسف

شعاع هاشم اليوسف

- * من مواليد الدوحة (قطر).
- * أستاذ في كلية العلوم والآداب، جامعة قطر.
- * حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة نيوكاسل، المملكة المتحدة (١٩٨٤م).
- * حصلت على جائزة عبد الحميد شومان، في العلوم البيولوجية (١٩٩٢م)؛ وجائزة المرأة المثالية من مركز شباب الدوحة، بترشيح من جامعة قطر (١٩٩٦م).
- * حصلت على منحة الفلورايت Full Bright الأمريكية للبحث العلمي عام ١٩٩٤م.
- * رئيس التحرير لمجلة كلية العلوم في جامعة قطر (٢٠٠٣-٢٠٠٠م).
- * شاركت في تأسيس الملتقى النسائي (مراسينا) في قطر (١٩٩٦م).
- * مثلت دولة قطر في مؤتمري العمل العربي (عمان، ٢٠٠١م)، (القاهرة، ٢٠٠٢م)؛ كما شاركت في عدد من المؤتمرات والندوات العلمية والثقافية المحلية والعالمية.
- * عضو مشارك في كثير من الجمعيات العلمية العالمية والمحلية.
- * لها عدد من الكتب العلمية والثقافية المنشورة.. كما نشر لها حوالي ٢٧ بحثاً في مجلات محلية وعالمية.



الأممكتابه

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

مر . ب : ٨٩٣ . الدرجة . قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثق علمياً، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. تقدم فيه الباحثة، وهي المتخصصة في معطيات العلم والتكنولوجيا، قراءات تعرض فيها لنماذج من المخاطر والإصابات، التي رافقت معطيات العلم والتكنولوجيا، وما ألحقت بإنسانية الإنسان وخصائصه وصحته من أمراض وشرور، وما أورثته من تلوث للبيئة، التي تشكل رحم الإنسان ومحضنه، إضافة إلى ما حققت من إنجازات مبهرة في مجالات شتى ساهمت بتقدم البشرية ومعالجة أمراضها المزمنة والمستعصية.

ولعل هذه القراءات التي تشكل نوافذ أمينة للإطلاقة على رحلة العلوم التقنية ونتائجها، تؤكد الحاجة الماسة إلى ترشيد الرحلة العلمية، وضبط مسيرتها، وتحديد أهدافها ووظيفتها ورسالتها، ذلك أن الكثير من الإنتاج التقني اليوم إنما تمحور حول إنتاج الأدوات التي تمكن للهيمنة والتسلط والتدمير، والقليل القليل منها لتحقيق سعادة الإنسان.

ومالم نضبط المسيرة العلمية بقيم الوحي لترشيد خطواتها وتحديد أهدافها فسوف يستمر الانفلات العلمي من القيم السماوية، وتستمر الإشكالية اليوم والمعادلة الصعبة، حيث دين بلا علم يقابله علم بلا دين، وافتعال الصراع المستمر بين الدين والعلم.

إن رحلة العلم المعاصرة وبعد اكتشاف هذه الآثار الرعبية التي تهدر كرامة الإنسان وتسقط إنسانيته بأشد الحاجة إلى أبجدية جديدة للقراءة، باسم الله الأكرم، واستصحاب هداية الوحي التي تحرض على كسب العلم، وتضبط مسيرته، وتحدد رسالته، وتبين أهدافه، حتى لا ينقلب العلم إلى وسيلة للبغي والهيمنة والتسلط، والتضحية بأمان الإنسان في سبيل توفير أمن الجبارة والطغاة.

www.Islamweb.net

موقعنا على الإنترنت :

البريد الإلكتروني : [E. Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa](mailto:E.Mail:M_Dirasat@Islam.gov.qa)

التقنيات الحديثة

فوائد وأضرار

دراسة للتأثيرات السلبية على صحة الفرد

أ.د. شعاع هاشم اليوسف

الطبعة الأولى

ربيع الأول ١٤٢٧هـ

آذار (مارس) - نيسان (أبريل) ٢٠٠٦م

شعاع هاشم اليوسف

التقنيات الحديثة.. فوائد وأضرار

الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٦م.

٢٠٨ ص، ٢٠ سم - (كتاب الأمة، ١١٢)

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٧٤ لسنة ٢٠٠٦

الرقم الدولي (ردمك): ٦-٨٣-٦٣-٩٩٩٢١

أ. العنوان ب. السلسلة

حقوق الطبع محفوظة

لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

بدولة قطر

www.Islamweb.net

موقعنا على الإنترنت :

E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

البريد الإلكتروني:

ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن رأي مؤلفيها

يقول تعالى:

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ

مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾

(العلق: ١-٢)

تقديم

عمر عبيد حسنه

الحمد لله، الذي بدأ النبوة بالكلمة (في البدء كانت الكلمة)، وجعل الخطوة الأولى على طريق النبوة الخاتمة قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَلَمْ نَكُنْ مِنْ سَلْوَاٰتٍ أَلْمِ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَهُ الْقَلَمَ ﴿٤﴾ أَلَمْ نَكُنْ مِنْ سَلْوَاٰتٍ أَلْمِ الْإِنْسَانَ ﴿٥﴾﴾ (العلق: ١-٥)، فأوضح أن بناء الإنسان وسبيل النهوض وإخراج الأمة والقيام بأعباء الاستخلاف الإنساني وإقامة الحضارة وال عمران وتحقيق التعايش والتعارف إنما يتحقق بالعلم والتعلم والقراءة والكتابة، بكل متطلباتها واستحقاقاتها وأدواتها؛ تلك القراءة الواعية لميادها، المبصرة لهدفها، المسبوقة بالنية والقصد لفعلها وعملها، فـ «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» (أخرجه البخاري).

فباسم الله الخالق تكون رحلة القراءة للخلق، ابتداءً من علم الأجنة وآلية تكوين الإنسان وطبيعة فطرته ومعرفة مؤهلاته واستعداداته وما زوده الله به لرحلة البحث والكشف العلمي، وانتهاءً بالفضاءات العلمية ورحلة الكسب العلمي جميعها، في المجالات كلها، والاستمرار في رؤية الآيات التي ما تزال تتبدى على مستوى الأنفس والآفاق، فالإنسان المستخلف في

الأرض لإقامة العمران وبناء الحضارة واكتشاف قوانين التسخير مؤهلاً لهذه المهمة، إنه مستودع أسرار، ومنجم طاقات، انطوى عليها، قادرة على تسخير الكون والمخلوقات الأخرى، طاقاته لا حدود لها، وحسبنا في ذلك النظر إلى بعض القدرات الخارقة التي يتمتع بها بعض الناس ومخزون القدرات الهائلة التي نبصرها عند الذين فقدوا بعض حواسهم فأصيبوا بالإعاقة.

يقول الشاعر:

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

أما حقائق الكون، حقائقه الغائبة المذخورة للاكتشاف ضمن قدرات الإنسان وتطور معارفه وكسبه، فلا يتوقف اكتشافها إلا بتوقف الإنسان وانتهاء رحلة الحياة وبدء النشأة الآخرة.

والصلاة والسلام على الرسول المعلم، الذي جعل السعي لطلب العلم وكسبه، مستصحباً للإيمان بالله في ضبط مسيرة تعليمه، وربطها بأهدافها، بادئاً رحلته باسم الله، مدركاً ما يمنحه ذلك من عزيمته، ويتيح له من حضارة وترقي، وما يمنحه من ثواب وعافية سعيدة، فقال: « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ بِهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ » (أخرجه البخاري).

فطريق العلم النافع هو طريق التوصل إلى الجنة؛ وكان شعاره الدائم، قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه: ١١٤)، كما كان خوفه واستعاذته الملقته من انحراف رحلة البحث العلمي عن مقاصدها وأهدافها

فيحيء دعأؤه ومناجاته للإله الخالق الذي يقرأ باسمه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ» (أخرجه مسلم).

وبعد:

فهذا «كتاب الأمة» الثاني عشر بعد المائة: «التقنيات الحديثة.. فوائد وأضرار: دراسة للتأثيرات السلبية على صحة الفرد» للأستاذة الدكتور شعا حاشم اليوسف، في سلسلة «كتاب الأمة» التي يصدرها مركز البحوث والدراسات في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، في سعيه الدائب لاكتشاف مواطن الخلل، ودراسة أسبابه، وتصميم الذهنية الثقافية القادرة على التحول من معالجة الآثار المترتبة على الخلل إلى دراسة الأسباب المنتجة له، والمساهمة باسترداد الفاعلية وإيقاظ الوعي بالمنهج السنني وفقه العواقب وإبصار قوانين الحركة الاجتماعية في السقوط والنهوض الحضاري، في محاولة لمعاودة إخراج الأمة من جديد، ووضعها على طريق المعرفة، التي كانت ولا تزال تشكل القوة الحقيقية للأمة والخطوة الأساس في طريق النهوض والتنمية، وتجاوز ذهنية التخلف، وتوسيع دائرة الرأي والمناقفة والمفاكرة والحوار، وبناء العقل الناقد القادر على التمييز بين قيم الدين المعصومة في الكتاب والسنة وبين صور التدين القابلة للخطأ والصواب والنقد والتصويب، وعدم الاقتصار في النقد والهجوم والمدافعة والمواجهة على (الآخر) والاكتفاء بالمرابطة على الحدود، دون التوجه صوب الداخل الإسلامي ودراسة مواطن الخلل في بنيته وتقديم سبيل الوقاية والعلاج.

ذلك أن التوجه صوب (الأخر) واستنفاد الطاقة في حراسة الحدود، والاقصر بالفخر والإعجاب على عطاء السلف، وإنجازهم العلمية والمعرفية، الذي قد لا يخرج عن معالجة عقدة مركب النقص والعجز الذي نعاني منه، دون التنبه إلى الإصابات المستوطنة بذهنية المسلمين اليوم، سوف يؤدي إلى تكريس التخلف، والمزيد من العجز، وتفاقم الإشكاليات، وزيادة مساحة الوهم والضلال الثقافي، وتحكم الأمنيات وتعطيل الإمكانيات، وقد تنتهي هذه الذهنية الثقافية بنا إلى أقدار مخيفة من النظرات الحزبية الضيقة والأسوار الحزبية المحكمة، التي تحمي التخلف وتطارده النقد والمناصحة ولا تنتج إلا ذهنية التطفيف والانحياز، وتساهم بإقامة دوائر اجتماعية مغلقة هي أشبه بالطائفيات، تقتصر على الإعجاب بنفسها وإنتاجها وإنجاز شيوخها إلى درجة يتحول ماضيها ليصبح مستقبلها، ويغيب فيها النقد والتناصح والمراجعة وشجاعة الاعتراف بالخطأ.

إن انفلات ضبط النسب، وما يورثه من فقدان التوازن وعدم إحصار مواقع العمل المجدي، وغياب الأولويات، وعدم التبصر بالعواقب والمآلات، والتمحور حول الفكر الدفاعي، وتحويل الحواس جميعها صوب الحدود ومخاطر العدو ومؤامراته وكيوده، وتجاوز الأقدار المطلوبة في قرع طبول الحرب، وتضخيم الأزمات، والعجز عن الالتفات للداخل واكتشاف أمراض التخلف المستوطنة والمزمنة، هو - من بعض الوجوه - نوع من المناخ

المطلوب للذهنية الذرائعية، ومحاولة إعفاء النفس من مسؤولية التخلف والعجز بسبب من الأزمات المتتالية والتأمر العالمي. ذلك أن بعض الذهنيات الغوغائية، وعلى الأخص ذهنيات عصور التخلف وما تنتجه من زعامات، تستعذب مناخ الأزمات، بحيث باتت لا تحسن إلا إنتاج فكر الأزمات، ولا تستطيع سوى قرع طبول الحرب وتجييش الناس صوب العدو، الذي قد يكون موهوماً أو وهماً في كثير من الأحيان.. وعلى افتراض وجود العدو وضخامة مؤامراته وكيوده، فإن العلم لا يُقَابَل بالجهل، والعقل لا يُقَابَل بالساعد، والفاعلية لا تُقَابَل بالبالادة، والذكاء لا يُقَابَل بتكريس الغباء، والمؤامرات لا تُعَالَج بالأصوات وسماكة الخناجر، وبناء زعامات الظواهر الصوتية على المستوى الفكري والظواهر السوطية على المستوى السياسي.

إن التهويل والتضخيم والصراخ والعويل يفقد الأمة الحس الصحيح والإدراك التضييغ لمشكلاتها والرؤية السليمة لتوظيف طاقاتها، كما يفقدها الأمن والاطمئنان، ويحيطها بالقلق، عدو كل علم ومعرفة وتقدم، وينتج بطبيعته مزيداً من ضاربي الطبول والتحشيد والحماس، ويهدر طاقات الأمة، ويبدد إمكاناتها، ويعطل توجهها صوب العلم المنتج واستشعار إحياء فروض الكفاية، ويشكل زعامات جوفاء لا تحسن إلا قرع طبول الحرب دون أن تكون عندها معرفة بفنون القتال، ولا وسيلة القتال، ولا روح التضحية.

في هذا المناخ الموهوم تختلط الأوراق وتضطرب الأولويات؛ هذا المناخ الفوغائي - إن صح التعبير - يجعل الأمة تراوح مكانها وهي تحسب أنها تحسن صنعا، كما يجعلها تعيش حالة القلق والتوجس والخوف، الذي يقضي على روحها وفعاليتها وينشئ زعامات متخصصة في ركوب الموجة، والإفادة من الأزمة، وامتلاك القدرة على التهويل والتضخيم والتحشيد، والبحث دائماً عن أزمات جديدة ليبقى التوتر والإرهاب الفكري في أعلى درجاته، شأنها في ذلك شأن زعامات الاستبداد السياسي ومصادرة الحريات باسم الصمود بوجه المؤامرة.

وكم كان يمتنى الإنسان أن تنشئ هذه المناخات زعامات أو نخبة قادرة على إدارة الأزمات حال عدم القدرة على دفعها، لكن الأمر يتمحض حول توظيف الأزمة لصنع الزعامة، الأمر الذي تحول من زعامة أزمة إلى أزمة زعامة ونخبة.

كما أدى هذا المناخ، في الوقت نفسه، إلى انتقاص إنسانية الإنسان، وافتقاده للكثير من حواسه ووعيه في هوجة طبول الحرب المستمرة فوق رأسه، فزعماء صناعة الأزمات وتضخيم المؤامرات والتهويل حولها وإقامة المعارك الفكرية والثقافية بغير عدو ليسوا أقل خطراً من تجار الحروب والأزمات، الذين يُقامرون بأقوات الناس وحياتهم، فالجميع يعطلون ارتقاء الأمة ويشلون قدرتها على إقامة العمران وتحقيق المعارف النافعة والترقي في مدارج الحضارة الإنسانية.

إن حالة زعامات الأزمة انعكست على كل شيء فأزمته؛ لأن ذلك أصبح مناحاً لا يمكنها العيش بدونها، الأمر الذي أدى إلى الوقوع في حفر التخلف والفراغ والغياب الخطير للدور الرسالي والحضاري، الذي استدعى (الآخر)، وبذلك بدأت فصول جديدة أو روايات جديدة من الأزومات؛ وانعكست حالة زعامات الأزمة على حالة الأمة التربوية والتعليمية والثقافية، ولم تقتصر أصوات طبول الحرب على الحدود، التي لم يلبث الأعداء أن أدركوا أنها طبول جوفاء وهشة لم تعد تخيف إلا أصحابها، بل امتدت لكل المواقع، وافتعلت المعارك والصراعات والعداوات في المذاهب والمدارس والأندية والجامعات والمنظمات والأحزاب، وحتى المساجد، حتى المؤسسات المنوط بها عملية التغيير والإنقاذ سقطت في وهدة التخلف لدرجة أصبح معها زعماء الأزمة الذين كانوا وراء الفساد هم رجاء الإصلاح وأمل النهوض، وهكذا تستمر الحلقة المفرغة.

وفي تقديري - والله أعلم - أن الإشكالية ابتداءً هي أننا نصنع معارك بغير عدو، ونستورد مشكلات مجتمعات أخرى - وقد تكون أصبحت تاريخية عندهم - لنستورد حلولها، ويستغرقنا الفكر الدفاعي، الذي يجعل الخصم والعدو يتحكم بأنشطتنا وبمحالات تفكيرنا حتى مناهجنا التعليمية وكسبنا العلمي والمعرفي، وهذه كلها تُمظهر لزعامات وقيادات الأزومات.

ولعلنا نقول هنا: إن الجدلية الأساس لحركة الحياة وتفاعلها وتقدمها أو تخلفها هي في انتظام العلاقة بين العلم والدين، وإن المعادلة الصعبة تاريخياً

كانت ولا تزال في افتعال الصراع بين القيم الدينية والحقائق العلمية، أو بين معرفة الوحي ومعرفة العقل، أو بين النقل والعقل، ونعتقد أن افتعال مثل هذا الصراع أو تضخيمه، على أحسن الأحوال، يدخل في ما أسميناه: «صناعة الأزمات» وإيجاد المسوغات لها.

والأمر الذي نراه ابتداءً أن إشكالية العالم بشكل عام وإشكالية العالم الإسلامي، التي تعتبر رجوع الصدى لمشكلات العالم، هو وجود علم بلا دين يقابله وجود دين بلا علم.

هذا الشرخ الحضاري والإنساني جعل رحلة العلم المنفلتة من قيم الوحي، على الرغم من كل عطائها وإنجازها وما قدمته للبشرية، ترافقت مع سهام طائشة قد تصيب صاحبها، لانفلات المعرفة عن أدها وقيمتها وأهدافها وفقدانها المرجعية والمعايير التي تتحكم إليها وترجع إليها لاكتشاف الخلل وتصويب المسيرة دون أن يشكل ذلك عوائق أمام المسيرة العلمية، إضافة إلى فقدانها الأهداف الإنسانية، الأمر الذي انتهى بما على ما فيها من خير إلى انتقاص إنسانية الإنسان، والإكثار من علله وأمراضه وخوفه وإصاباته، وفقدان طمأنينة وسكينة نفسه، وتحويله إلى كائن قلق خائف متوتر، ذلك أن معرفة العقل أو العلم لم تستطع أن تغطي المساحة الإنسانية لمعرفة الوحي.

هذا الشرخ الحضاري والإنساني بين الدين والعلم، أو الخصومة المفتعلة بين معرفة الوحي ومعرفة العقل، انتهى إلى لون من التدين السلبي العاجز

المنسحب من صناعة الحضارة وبناء العمران والقيام بأعباء الاستخلاف (مهمة الإنسان) عن الإنتاج العلمي والحضاري، بل أكثر من ذلك جعل عطاء معرفة الوحي، القائم في الأصل على التلقي والاتباع والتلقين، بديلاً عن رحلة الكشف العلمي القائم على الإبداع والتفكير والتراكم المعرفي والنقد والتصويب، أو مقابلاً لها، وبذلك حرم الوحي من إنتاج وإبداع العقل وحرم العقل من هداية الوحي، دون امتلاك القدرة لكل منهما أن يغطي وظيفة (الآخر).

ولعل من المسلمات التأكيد أن موضوع الدين غير موضوع العلم، أو محل الدين غير محل العلم، وإن تجاوزا وتشاركاً في بعض المساحات الضرورية للتواصل والتأثير والتأطير، لأن موضوع الدين والعلم هو الإنسان.. ولئن كان موضوع الدين أو معرفة الوحي هو الإنسان وتزكيته والعمل على تأهيله وبنائه وهدايته والارتقاء به وتحضيره وبيان أهدافه وغاياته وصناعة سلوكه السوي، فإن موضوع العلم أو معرفة العقل هي في تلقي الوحي والاجتهاد في تنزيله على واقع الناس وتقويم سلوكهم به، إضافة إلى إبداع أشياءه، التي تشكل مجموعة الوسائل والعلوم التي تعينه على القيام بمهمة الاستخلاف، فالوحي يصنع الإنسان والإنسان يصنع العلم.

وقد يسوغ لنا القول: إن محل العلم بشكل عام آيات الآفاق، وإن محل التدين آيات الأنفس، وتوجيه الإنسان للنظر في آيات الآفاق

واستمرار الكشف العلمي والكسب العلمي؛ وإن عطاء الوحي معارف يتحقق العقل من سلامة نقلها، وعطاء العقل علوم وقوانين وحقائق، يكتشفها العقل ويختبر مدى صوابها؛ وإن الوحي الذي محله الإنسان - والعقل جزء منه - يعتبر العقل من لوازمه، لفهمه والتعاطي معه وانطلاقه لرحلة البحث والكشف العلمي ضمن مرجعية وهدفية وأخلاق لا تتأني إلا من الوحي.

لذلك قد لا نستغرب أن تأتي الكثير من وظائف العقل في الوحي الإلهي ضمن إشارات عامة وتوجيهات عامة، في الكتاب والسنة، لتوجه العقل صوبها، قياماً بوظيفته، بينما نرى أن معارف الوحي جاءت على الكثير من التفصيل والتفريع للحيلولة دون الخطأ في الاجتهاد والابتداع في الدين، ومن ثم توفير طاقات العقل لذلك.. فإمكانات العقل وساحة نشاطه مختلفة نوعياً عن إمكانات الوحي ومجالاته.

إن الخلط بين معارف الوحي ووظائف وعطاء العقل، أو الصراع بين الوحي والعقل، الدين والعلم، انتهى إلى النتائج الخطيرة والفاشلة في حياة الإنسانية، سواء كان هذا الصراع معلناً، كما هو الحال في الحضارة الأوربية، أو كان خفياً ورجعاً للصدى، كما هو واقع بعض من الحالات الإسلامية.

وقد تكون الإشكالية هي ادعاء رجال الدين أنهم العلماء والمتخصصون في كل شيء، وأنهم يعرفون كل شيء، وأن معرفة الوحي معصومة وبيقينية

وبذلك فهي تلغي معرفة العقل القابلة للخطأ (!) وهذا ضد أصل الخلق وتنوعه، وضد طبيعة الأشياء، الأمر الذي أدى في الغرب إلى معالجة الانحراف بانحراف مقابل، بتأليه العقل بديلاً عن الوحي واعتماده والطلب إليه القيام بوظيفة الوحي، ذلك أن الدين قائم في تصور الغرب على التسليم دون تفكير أو مناقشة ومراجعة، والعقل قائم على البرهان والشك والمناقشة والمراجعة والنقد والنقض، وبذلك الخلط المتحصل بسبب رجال الدين وصور التدين المغشوش، لا بسبب قيم الدين، عُزل الدين عن الحياة، أو عُزلت الحياة عن الدين، وانطلقت الرحلة العلمية بدون ضوابط وأهداف، فكانت المحصلة شقاء الإنسان بغياب الأمن النفسي، وشقاء الإنسان بتغييب إنسانيته عن الرحلة العلمية المنفتحة من أهدافها ومرجعيتها.

إن تسمية معارف الوحي علماً، بالمدلول الفني لكلمة العلم، وإقحامه في غير ما نزل له، ودفعه للتنازع مع الحقائق العلمية، يشكل خطورة دينية وعلمية في الوقت نفسه، كما أن تسمية عطاء العقل الوضعي هو الدين الجديد للبشرية وأن العلم هو الإله، يشكل خطورة أشد وأخطر، ويفقد العلم قيمته وفوائده، وقد يصرفه ليكون أداة بغي وهيمنة وصراع وإصابات ومخاطر جعلت الكثير يفرون منه إلى نوع من الفلسفات الوجودية والارتكاس إلى الحياة البدائية؛ لأنها قد تكون الأسعد للإنسان المعذب بمعطيات الحضارة المعاصرة.

وعندما ينفلت العلم من الدين، أو يخرج على الدين، يقع في البغي والهيمنة، يقول تعالى: ﴿وَمَا نَفَرُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: ١٤)، عندها تتحول الرحلة العلمية بمعظم عطاياها لإنتاج أدوات الهيمنة والتسلط؛ وأكثر من ذلك فقد يُزيف العلم ليكون في خدمة الساسة أو المغامرين السياسيين، ولانزال نذكر الدراسات البيولوجية التي نشأت في ظل النازية والفاشية في محاولة يائسة وطائشة باسم الحقائق العلمية لإثبات التمييز العنصري علمياً.

نعود إلى القول: إن الصراع المقتعل بين الدين والعلم، على اختلاف موضوعيهما ووظيفتيهما ورسالتيهما ودوريهما ومصدريهما، جعل العالم يدفع الأثمان الباهظة ولا يزال، بسبب غياب العلم الذي يعتبر من لوازم الدين، أو بسبب غياب القيم الدينية الضابطة لمسيرة العلم، والتي تعتبر من لوازم العلم.

والإشكالية قد تكون أكثر خطورة وأشد تمظهراً في واقعنا الإسلامي، حيث إن الرسالة الإسلامية الخاتمة استوعبت حركة البشرية، وجاءت لتصويب المعادلة ومعالجة أسباب الصراع بين العلم والدين، وقدمت لذلك تجربة حضارية تاريخية تجلت في واقع الإنسان، حيث جاء ازدهار العلم وتقدمه وتألقه موافقاً للالتزام بالقيم الدينية وتقدم أرقى نماذج التدين والكسب العلمي، الذي يثر الاقتداء، حيث كثيراً ما اجتمع التخصص في

العلم التطبيقي والاجتهاد في معارف الوحي في شخص واحد، وأن التخلف والإصابات والفهم المتخلف والجمود الذي لحق بقيم الوحي لم يقتصر عليها وإنما امتد هذا التخلف والجمود لتعطيل وظيفة العقل والحد من انطلاقه أيضاً، وأن فترة التألق والإنجاز الحضاري كانت عندما أخذ الوحي بمجاله وأخذ العقل بمجاله، بعيداً عن الثنائية والانشطار، بعيداً عما تصنعه الحضارة المعاصرة من تكوين الإنسان برأسين ووجهتين، وتركه في شقتين، شقوة الدنيا وشقوة الآخرة.

ذلك أن التقدم بأشياء الإنسان لا يعني عن الارتقاء بخصائص الإنسان، ومنحه معرفة الأسماء ودليل التعامل مع أشيائه ومع الحياة، وأن من مقتضى الارتقاء بخصائص الإنسان ومثمرته إبداع أشيائه ومعرفة حقائق الحياة، وأن طريق الخلاص هو الخروج من الثنائيات، الوحي والعقل، العلم والدين، الدنيا والآخرة، مطالب الجسد ومطالب الروح، فك الاشتباك الموهوم بين العلم والدين، من حالات إيجاد المخلوق المسخ علم بلا دين أو دين بلا علم.

إن دور الدين أنه يوهل الإنسان بالرؤية الشاملة للكون والإنسان والحياة، ويزوده بالدليل المطلوب للرحلة العلمية، ويضعه في المناخ العلمي، ويلفت نظره ويحرضه ويدفعه للملاحظة والكشف والاختبار، ويقدم له بعض الحقائق العلمية لتكون دليلاً لرحلته وتعريفه بوظيفته.. أما الادعاء بأن القيم الدينية قادرة على الإجابة عن الأسئلة العلمية، وإقامة كهانات دينية

لذلك تدعي المعرفة بكل شيء وتحاول إقحام القيم الدينية في المجالات الفنية والعلمية، فهذا إساءة للدين قبل أن يكون إساءة ومحاصرة للعلم، وذلك لا يقل أهمية عن إقحام العلم للإجابة عن كل الأسئلة التي لا يمتلك وسيلة الإجابة عنها ولا البحث فيها.

وإقامة الزعامات الوهمية قد يدفع ببعضها للجرأة والادعاء أن النص الديني يغالب النص العلمي، وأن النص الديني سبق رحلة الكشف العلمي بإثبات بعض الحقائق العلمية، وقد يستغرقنا هذا التوجه، على الرغم من التخلف العلمي الذي يعاني منه أهل النص الديني، دون أن ندري أننا قد نمارس توبيخ أنفسنا.

وفي تقديري أن عملية النمو والتقدم عملية شاملة ومتكاملة بأبعادها المتعددة، ومجالاتها المتنوعة، ومعاييرها المنضبطة، فالتدين الصحيح يدفع لاكتساب العلم والتبحر به، لذلك أعتقد أن معادلة «دين بلا علم» محل نظر؛ لأن التدين الصحيح أو الالتزام الصحيح بقيم الوحي ينعش العقل، ويحرضه، ويدفعه، ويوفر طاقاته، ويشعره بالمسؤولية عن وظيفته ويحميه من السقوط وتجاوز حدوده.

فمؤشر التدين الصحيح الإنتاج العلمي المحكوم بالأهداف الإنسانية، وأن صور التدين التي تحاصر العلم وتحول دون انطلاقه هي تدين مغشوش، يحتاج إلى مراجعة وإعادة تصويب.

نعود إلى القول: إن معارف الوحي قائمة على الاتباع والتلقي والافتداء والتأسي والمقاربة بالأمثودج: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أَصَلِّي» (أخرجه البخاري)، «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أُذْرِي لَعَلِّي لَا أَحْجُ بِغَدَ حَاجَّتِي هَذِهِ» (أخرجه مسلم)، «مَنْ أَحَدَّثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ» (أخرجه البخاري)، «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» (أخرجه البخاري)، «... عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَظُّوا عَلَيْهَا بِالتَّوَّاجِدِ» (أخرجه أبو داود).

فالتلقي والتلقين والتبليغ والأمانة في النقل هي وسيلة إيصال الوحي، بينما المقارنة والبرهان والاستدلال والملاحظة والاختبار والاكتشاف والتراكم والتصويب هي وسيلة الوصول إلى اكتشاف القوانين العلمية والسنن الكونية للوصول إلى الحقائق.

وفي ضوء ذلك يمكن القول: إننا بالنسبة لمعارف الوحي: كلما اقتربنا من بدء الوحي زماناً ومكاناً وصحابة وتابعين كلما تجلّت لنا الصورة الصحيحة والمعرفة الدقيقة والمطمئنة، أما بالنسبة للكسب العلمي فعلى العكس تماماً حيث تتوثق المعلومة وتتأكد وتكتشف وتحرر وتتراكم كلما امتدنا صوب المستقبل؛ ولا نعني بذلك أن وجهة العلم مغايرة لوجهة الدين، ذلك أن القيم الإسلامية خالدة للزمن، ولتؤكد من وجه آخر حقيقة اكتمال الدين وكماله، والحيلولة دون الابتداع فيه وتجاوز موضوعه، وإنما لنقرر أن موضوع الدين ومغله هو الإنسان وموضوع العلم هو أشياء

الإنسان - كما أسلفنا - وأن العلم مُنتج إنساني بشري والقيم الدينية مُنزَل سماوي.

وفي تقديرنا أن الأسباب الكبرى للتخلف، ولكل إشكالاته وانعكاساته في عالمنا الإسلامي، جاءت ثمرة للمعارك المفتعلة بين الدين والعلم، أو بين معرفة الوحي ومعارف العقل، التي قد يكون لها أسبابها ونتائجها في الحضارة الغربية، حيث لم تكن نحن نمثل فيها إلا رجوع الصدى، ضمن من عقولهم في آذانهم، الذين يتلقون الإنتاج الثقافي بألستهم، الأمر الذي أدى بالكثير من الأشخاص والمؤسسات التي ترعى معارف الوحي إلى الانكفاء على الذات وبناء الأسوار السميكة بين المعرفة العلمية وبين القيم الإيمانية، باسم سد الذرائع، الأمر الذي أدى إلى تحريم وتجريم الذين يتوجهون صوب الدراسات العلمية على أنها مقابل الدراسات الشرعية، حتى أصيبت المؤسسات الشرعية بغربة الزمان والمكان والعجز عن معرفة حقيقة المجتمعات التي هي محل دعوتها، ودافعت المؤسسات الشرعية دفاع المستميت لتحول دون دخول بعض المواد العلمية إلى المدارس والجامعات الشرعية خوفاً عليها، دون أن تدري أن هذا الخوف لم يكن سويّاً وأن هذا الجمود تولد عنه قيام جامعات ومدارس مقابلة وُسِّمت بالعلمانية لكنها أيضاً لم تنج من الإصابة بقصر النظر وغياب البصيرة، حيث دافعت دفاع المستميت

دون دخول المواد الشرعية أو الدينية كثقافة ومعلومات ضرورية لرؤية الحياة وكيفية التعامل معها.

هذا الانشطار الثقافي، وقيام المعارك، وتبديد الجهود بغير عدو حقيقي، حرم المؤسسات العلمية من قيم الوحي، التي تحدد أهدافها وتضبط مسيرتها وتكون مرجعيتها، كما حرم العلم من الانضباط بقيمه وأهدافه وأخلاقه، وانكفأت المؤسسات الشرعية على قراءة ومحاسبة نفسها، حيث لم تفلح في أداء رسالتها للإنسان بشكل كامل وتقود مسيرة العلم إلى الأهداف الخيرة.. وحتى تعفي نفسها من المسؤولية عن حركة العلم والمجتمع انتهى بعض القائمين على شؤونها إلى إشاعة أفكار محزنة وبئيسة: «إن الله اصطقانا لعبادته وسخر لنا الكفار لخدمتنا والعمل في المصانع والمعامل ومؤسسات علوم الدنيا»(١)، وكان الفروض الكفائية إنما هي تكاليف لغير المسلمين.

وبذلك لم تقتصر على تكريس الجمود والتخلف والتراجع، وإنما وضعنا له المسوغات والمبررات والفلسفات الغريبة العجيبة، وبذلك فرضنا حالة ثقافية موهومة ومغشوشة تتهم كل من حاول اختيار الجامعات والعلوم المدنية بالإلحاد والعداوة للإسلام والمروق من الدين، فأوقعنا الناس في إشكاليات ومآزق، وكان التسرع دون تبيين في الاتهام واقتراف المعصية يفرحنا، وتوجهنا إلى التأييم والتكفير والحكم على النوايا، وأرهبنا الكثير من الطلبة من إثم التوجه صوب الاختصاصات العلمية، ودفعنا الكثير

من المتخصصين إلى مغادرة تخصصاتهم إلى منابر الوعظ والإرشاد، بزاد وبدون زاد، وكان القيام بأعباء الاستخلاف وإقامة العمران إنما يتحقق بالأمان والآمال، والنصر يتحقق بالرغبات دون إعداد واستعداد وتخصيص، فانتهينا إلى أن نعيش عالمة في مأكلا ومركبنا وملبسنا ودوائنا وتراثنا على الإنتاج العلمي (للآخر) لدرجة توقف حياتنا على عطائه، ولو يشاء لقطع عنا سبل الحياة.

ولا يقل عن ذلك خطورة القول: إن العلم حيادي وغير منحاز، وبذلك يتم الترويج لإبعاد الرحلة العلمية عن القيم الدينية وتجريد العلم عن وظيفته وأهدافه الإنسانية وانفلاته من ضوابطه بحجة أن القيم الدينية أو الأيديولوجيا تعيق مسيرة العلم وطلاقة البحث، وهذا إنما جاء ثمرة لتسلط رجال الدين في الحضارة الأوروبية - كما أشرنا - على غير مجاهم واختصاصهم ومحاصرة العلم والعلماء والتنكر للحقيقة العلمية إذا عارضت أهواءهم ومصالحهم، فكانت ردة الفعل خروج العلم على أصول التدين، وهذا قد يكون رد فعل سوي إلى حين، أما عندما تحرر الحقيقة العلمية وتأخذ القيم الدينية دورها ووظيفتها ورسالتها، وتأخذ الحقيقة العلمية مسيرتها وحريتها وإدعائها في المجالات الحضارية المختلفة، فسوف يلتقيان في بناء الإنسان والارتقاء بخصائصه وصفاته الخيرة بقيم الوحي المنزلة من الله.

ولا شك أن الحقيقة العلمية إنما يجيء التوجه إليها وإنتاجها وطريقة استخدامها من قبل إنسان له قيمه وأهدافه ورؤيته وحاجاته ومشاعره وشخصيته، فهي بطبيعتها مشبعة بثقافة واهتمامات منتجها، وهي الوسيلة الخصب لإيصال هذه الثقافة، ثقافة المنتج إلى المستهلك، وطبعه بطابع ثقافة وحضارة المنتج؛ فالمنتجات العلمية هي في حقيقتها شواخص ثقافية، أشد فنية وتأثيراً من القول المباشر، لذلك تأتي القيمة الدينية الهادبة كضرورة لبناء ثقافة المنتج ورؤيته، ليجيء الإنتاج لخدمة الإنسان المنتج والمستهلك وليس لتدميره.

وهذا الكتاب، تقدم فيه الباحثة، وهي المتخصصة في معطيات العلم والتكنولوجيا، قراءات تعرض فيها لنماذج من المخاطر والإصابات، التي رافقت معطيات العلم والتكنولوجيا، وما ألحقت بإنسانية الإنسان وخصائصه وصحته من أمراض وشورور، وما أورثته من تلوث للبيئة، التي تشكل رحم الإنسان ومحضنه، إضافة إلى ما حققت من إنجازات مبهرة في مجالات شتى ساهمت بتقدم البشرية ومعالجة أمراضها المزمنة والمستعصية.

ولعل هذه القراءات، التي تشكل نوافذ آمنة للإطلالة على رحلة العلوم التقنية ونتائجها، تؤكد الحاجة الماسة إلى ترشيد الرحلة العلمية، وضبط مسيرتها، وتحديد أهدافها ووظيفتها ورسالتها، ذلك أن الكثير من الإنتاج التقني اليوم إنما تمحور حول إنتاج الأدوات التي تمكن للهيمنة والتسلط والتدمير، والقليل القليل منها لتحقيق سعادة الإنسان.

وقد رأينا أنه من المناسب ألا نعرض لبعض الإصابات التي لحقت
بالإنسان، نتيجة انفلات الرحلة العلمية من القيم السماوية الحضارية، لأن
الكتاب تكفل بذلك إلى حد بعيد.

ومالم نضبط المسيرة العلمية بقيم الوحي لترشيد خطواتها وتحديد
أهدافها فسوف يستمر الانفلات العلمي من القيم السماوية، وتستمر
الإشكالية اليوم والمعادلة الصعبة، حيث دين بلا علم يقابله علم بلا دين،
واقفال الصراع المستمر بين الدين والعلم.

إن رحلة العلم المعاصرة وبعد اكتشاف هذه الآثار الرعوية التي تدر
كرامة الإنسان وتسقط إنسانيته بأشد الحاجة إلى أجددية جديدة للقراءة،
باسم الله الأكرم، واستصحاب هداية الوحي التي تحرض على كسب العلم،
وتضبط مسيرته، وتحدد رسالته، وتبين أهدافه، حتى لا ينقلب العلم إلى
وسيلة للبغي والهيمنة والتسلط، والتضحية بأمان الإنسان في سبيل توفير أمن
الجبارة والطفة.

ولا يفوتنا هنا أن نشكر للباحثة تعاونها غير المحدود الذي ساعد على
إخراج هذا الكتاب، الذي يشكل إضافة نوعية للسلسلة، حيث كانت
مساحة المشروع تتجاوز المساحة المقررة للسلسلة، على أمل أن ينشر
الكتاب بكامله في المستقبل، إن شاء الله.

والحمد لله من قبل ومن بعد.

تمهيد

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْعَذَابِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة: ١٠٥)

يصطبغ هذا الكتاب بصبغة نقدية لبعض ما قدمه لنا العلم المادي من تقنيات تدخلت في أدق تفاصيل حياة الفرد المعاصر حتى بات لا يملك الفرار منها . وعليه فإن الهدف من تأليف هذا الكتاب يتمثل في رصد وشرح الآثار السلبية للتقنيات على صحة الفرد ومن ثم اقتراح بعض البدائل السليمة لاستمرارية المسيرة الإنسانية.

وقد صرفت المؤلفة جل وقتها ما بين مراقبة وملاحظة وتأمل وتفكير واستنتاج وذلك لرصد بعضاً من الأضرار الصحية للتقنيات العلمية المطروحة على الساحة العالمية ؛ مع التركيز على الآثار السلبية لثورة المعلومات والاتصالات والمواصلات على سلوك الفرد في الحاضر والمستقبل. وفي خاتمة الكتاب تطرح المؤلفة محاولات جريئة للعلاج أو لتخفيف آثار هذه التقنيات التي قد تطفئ على إمكانيات الفرد الحسية والعقلية. قد يفتح هذا الطرح منافذ للتفكير والمناقشة ويوجه ذهن الباحث إلى قضايا جديدة بأن توضع موضع التأمل والبحث، فإذا ما وفق الكتاب في الدعوة لمواصلة البحث في القضايا المطروحة في سياقاته فقد حقق الغاية من تأليفه.

وإنه لمن حسن حظ الإنسان أن يكون الكائن الوحيد القادر على تسجيل خبراته بالكتابة والرسم والصوت والصورة؛ إذن هو المتميز بالاستفادة من تجارب وتطور الكائنات جميعاً على مر العصور، هكذا تم تخزين خبرات الشعوب بل نمط عيش الكائنات جميعاً ومن ثم الاستفادة منها لتطوير التقنيات المختلفة؛ كما أدى تجمع الخبرة إلى فهم متطور للبيئة مما مكن الفرد من السيطرة على بعض تقلبات البيئة وأشكال الحياة. ومن أعجب الأمور كون المنهج التجريبي في العلوم قد طبق منذ أربعمئة سنة فقط! لكنها كانت كافية لتغيير وجه البسيطة، بل كافية لريادة الفضاء الخارجي أيضاً. الثورة الآلية تتطور بسرعة البرق إلى آلات أصغر وأفضل وأذكى بينما يترد الأداء الفردي إلى الخلف؛ وعليه لا بد للفرد من الاستفادة من الدروس التي تلقاها من ماضيه التطوري، ومن أهمها أن النجاح هو الأكثر ذكاءً وأخلاقاً وليس الأكثر حجماً أو قوة. مثل هذا النجاح سوف يحققه الذين يطوعون المنهج العلمي للسيطرة على أنفسهم ولتحسين ذكائهم وتسخيروه في خدمة غيرهم دون الإضرار بالبيئة من حولهم. وقد تحتاج البشرية إلى عصور أخرى طويلة كي تصل إلى غاية وجودها الإنساني، لكن عليها قبل ذلك أن تمحو أسلحة الدمار الشامل من على وجه البسيطة وأن تتعامل مع نفسها وغيرها كأكرم ما خلق البارئ على الأرض ﴿سَرُّبِهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣).

ويأتي هذا الكتاب في خمسة فصول وخاتمة، على النحو الآتي:

الفصل الأول: التقنيات الحديثة والمسيرة الإنسانية

ترى ما التأثيرات السلبية لاستخدام التقنيات المختلفة على صحة الفرد؟ لا يوجد حتى اليوم دليل قاطع على أن أي تقنية في غاية الأمان كما لا يستطيع العلم إلا أن يوفر الدليل الذي يثبت بأن احتمال الخطر لأي تقنية قد يتراوح بين الضئيل أو المرتفع جداً. وأنه لمن حسن طالع البشرية أن يكون الإنسان الكائن الوحيد القادر على تحسين ظروف معيشته؛ والمعروف أنه كلما تراجع في ذلك تأخر في تحضره؛ واليوم يعتمد الفرد على التقنيات المادية في كل أموره الحياتية وعليها يقاس تقدمه. لكن الحقيقة أن ماهية التقدم لا ترتبط بالتقنية بشكل خاص بل إن الحفاظ على الصحة الجسدية والسعادة الإنسانية هي حياة التقدم الحق؛ تلك التي توفر لساكنيها صحة جيدة ثم علاقات وتفاعلات اجتماعية راقية، لها من الاستنارة والتطلع بما يشجع على إقامة البنيان الحضاري على أساس متين من الصحة الأخلاقية ونوعي بما القيم والمبادئ الفعالة أولاً ثم تكامل الصحة الجسدية والمادية ثانياً.

الفصل الثاني: خطورة ثورة المعلومات والاتصالات والمواصلات

ترى هل تتحمل أو تستوعب قدرات العقل البشري الثورات الضخمة الحاصلة اليوم ألا وهي: المعلومات والاتصالات والمواصلات؛ تلك الثورات التي تدخلت في خصوصيات الفرد المعاصر بشكل مكثف جداً. ترى هل من

الضروري استيعاب الفرد لكل مصادرها و أنواعها؟ ثم كيف يمكن للفرد مواجهة كل هذه الثورات وبدائلها المتعددة؟ أو كيف يتمكن الفرد من تنظيمها حتى يسهل عليه الاختيار الحر المتميز من بين كل تلك البدائل؟ ما أهمية الحاسوب والإنترنت وما خطورة هذه الوسائل على صحة الفرد والمجتمع؟ ها قد ظهر الحاسوب الشخصي وتم توصيله بالأجندة الشخصية وبشبكة الإنترنت وبالهاتف النقال فماذا بعد هذا الحصار؟ وقد يضطر الفرد أخيراً إلى الهروب من سيطرة المعلومات والاتصالات والمواصلات بعد أن أحكمت عليه شبكاتها ولكن كيف يتمكن من ذلك؟

الفصل الثالث: التقنيات وقدرات الجسم البشري:

يحاول هذا الفصل الإجابة عن التساؤل حول إمكانية: تحقيق التآزر بين تقنيات الأجهزة وقدرات أعضاء الجسم البشري؟

فما لاشك فيه أن المبالغة في استخدام التقنيات الحديثة قد قلصت من قدرة أعضاء الجسم البشري وأضعف الحواس الخمس كما أنه قد سبب البطالة في مجالات عديدة. هكذا تمكنت التقنيات الحديثة من تفكيك أعضاء الإنسان فأصبحت تعمل دون تنسيق أو انسجام حتى أصبح فكر الفرد مشتتاً ومشوهاً. لماذا حدث ذلك؟ ربما لأن العلم لم يتمكن حتى اليوم من الربط والتنسيق بين ثقافة الأجهزة وقدرة أعضاء الجسم البشري، وكمثال بسيط فقد تعطلت اليد بسبب الآلة، كما اضمحل المخ وتبدل الفكر البشري بعد

التقدم المذهل للحاسوب والإنترنت؛ بل سبب لنا الجلوس الطويل أمام الآلات والأجهزة الترهل والسمنة وأمراض العصر الأخرى.

الفصل الرابع: دور التقنيات الحديثة في تفشي الفساد الأسري:

لقد تعددت وتنوعت الكتب والدراسات المحللة لأسباب الفساد الأسري في ظل التقنيات الحديثة، وقد أشارت تلك الكتب والدراسات إلى التسهيلات التي قدمتها التقنيات الحديثة في نشر الفساد. ولعل من أهم الأسباب تفشي تقنيات العولمة الأخلاقية عن طريق الفضائيات والإنترنت والتي ساهمت في انتشار الجنس المثلي واستخدام المخدرات وخلافه؛ كذلك ساعدت التقنيات على تنوع أساليب التدخين وتناول المسكرات كما ساعدت على رخص سعرها وسرعة تداولها. واعتماداً على بدائل من التقنيات الحديثة كثر انشغال الأب والأم في العمل خارج المنزل ربما لفترات طويلة مما أثر على التماسك الأسري وعلى أخلاقيات النشء.

الفصل الخامس: أهمية وعي المستهلك بخطورة التقنيات الحديثة:

هناك منتج للحضارة المادية وهناك مستهلك لها، وعادة ما يكون المنتج أكثر وعياً من المستهلك بأضرار السلع التي ينتجها. لقد آن الأوان ليأخذ الفرد حذره الشديد من سوء استخدام بعض التقنيات، كذلك من استهلاك الكثير من المنتجات المصنعة كالأغذية والأدوية وغيرها. ومن هنا لا بد من تثقيف المستهلك في مسائل التغذية واللباس والعلاج وطرق استخدام

التقنيات، كذلك لابد من تثقيفه في كيفية استخدام المرافق الحضارية بجميع أشكالها ومستوياتها دون أن يضر بنفسه أو بالبيئة من حوله.

واليوم، ثبت أن معظم الأمراض ما هي إلا نتاج التأثيرات السلبية للتقنيات المحيطة بالفرد كصریعات الديكور والإضاءة؛ توزيع المرايا والمعادن، نوعية الطلاء والسجاد، والحياة المرفهة المعتمدة على الأجهزة الإلكترونية والكهربائية وغيرها! كما ثبت خطورة العقاقير التي توقف تأثير الزمن مثل حقن الكولاجين والفيريل والمهرمونات، التقشير الكيميائي وجراحات الليزر وغيرها! فماذا بعد ذلك؟ إن ذلك بالضرورة يتطلب وعي الحكومات، سواء كان ذلك في الدول المتتجة أو المستوردة، مع بذل المحاولات الجادة لحماية وتوعية المستهلك من كل ما ذكر آنفاً.

الفصل الأول

التقنيات الحديثة والمسيرة الإنسانية

لاشك أن ماهية التقدم لا ترتبط بالتقنية بشكل خاص، فقد حقق التطبيق الشامل للتشريع الإسلامي في القرن السادس الميلادي حضارة متقدمة جداً، وقد ظهر هذا التطبيق على شكل متميز من العدل وإكمال مكارم الأخلاق والعناية بالروح، بالإضافة إلى الحفاظ على الصحة الجسدية. كما أن التكافل الإسلامي قد حقق العدالة الشاملة للعالم الإسلامي ولو في عصر من العصور على الأقل؛ وقد حدث ذلك رغم عدم تطور التقنيات في تلك الفترة، بل إن انهيار الحضارات مرتبط بانحلال القيم والأخلاق، رغم تقدم التقنيات، يقول تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (الأنعام: ١١).

ولا بد من تأكيد ذلك المفهوم للحضارة حتى يحدد المجتمع موقفه من التقنيات العالمية، التي وإن كانت قد بدأت في الغرب فإنها قد انتشرت في كل أنحاء العالم حتى صارت عالمية. هذا فضلاً عن أنها قامت أساساً واستمرت بعد ذلك على عناصر أساسية من حضارات مختلفة، أهمها الحضارة الإسلامية التي ازدهرت في العالم الإسلامي خلال القرون من الثالث إلى الخامس الهجري (أي من التاسع حتى الحادي عشر الميلادي).. من

الحضارة الإسلامية بدأ العقل الغربي عامة بأسلوب ابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد، ١١٢٦-١١٩٨م) في تقدير العقل الإنساني، كما ارتكز على المنهج التجريبي الذي نقله فرنسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦م) عن علم أصول الفقه الإسلامي؛ ومن هاتين الوسيلتين، ذواتي الأصل الإسلامي ابتدأت الحضارة الغربية، التي صارت عالمية بالمنهج العقلي والأسلوب التجريبي، فحققت نجاحات مؤكدة، كما فتحت أمام البشرية دروباً جديدة شائكة ومعقدة.

يقول العالم «سينسر»: إن الكون يسير نحو تحقيق هدف سام متمثل في وجود عالم يجد فيه الفرد أقصى فرصة للتعبير عن ذاته وتحقيقها دون التعدي على حقوق الآخرين.. لكن كيف ومتى يتحقق هذا الهدف؟ في دوامة التقنيات الجديدة يمر الإنسان المعاصر بفترة نشاط تطويرية ولكن ليس في اتجاه تحقيق هذا الهدف، بل ربما في الاتجاه المعاكس! إذ تتكاثر السلبيات على حساب الإيجابيات، وعليه لا بد أن تصلح الحضارة نفسها من خلال روافد القيم الصالحة^(١).

إن الحضارة كلمة شاملة، كشمولية الحياة، بما فيها من سلوكيات ومعنويات وماديات، إيجابية كانت أم سلبية. ولكن كيف ارتبطت الحضارة بالفكر التقني الذي تطور حتى وصل لوضعه الحالي؟ لا شك أن هناك الكثير

(١) ألبرت شفييتسر، فلسفة الحضارة، ترجمة عبد الرحمن بدوي (لقاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٩٦٣م).

من المؤثرات المتداخلة والعوامل المتشابكة التي وجهت مسيرة الحضارة تزامناً مع ظهور التقنيات. ويبدو أن من أهمها التغيرات الحادثة في بيئة الأرض، وكمثال جيد فالتوازن الجيولوجي على سطح الأرض يحتاج إلى هزات رهيبة، أليس من خلال الزلازل والبراكين والفيضانات تشكل الأرض وجهها حسب البيئة المتغيرة من حولها؟

كذلك أدت حتمية التطور البيولوجي إلى ظهور الأنواع المختلفة للكائنات الحية تبعاً للتغيرات البيئية: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ٣٨). كذلك تخضع جميع العلوم الفيزيائية والكيميائية لهذه الحتميات والتطورات تماماً كما تسهم مجاهات الاقتصاد والثقافة في إقامة نظام جديد أو في مزاججة التقنيات لبزوغ تقنية أخرى . ولا شك في أن الإنسان لم يصنع التقنيات بعقله فقط بل بتركيبه العضوي وخصائصه البدنية التي ميزته عن باقي الكائنات. أما التفكير المتسلسل والمنظم فهو عملية حضارية استغرقت زمناً طويلاً، بحيث أصبح هذا التفكير عنصراً أساسياً وفعالاً في توجيه حياة الفرد ؛ وبذلك ارتكزت الحضارة الإنسانية على محورين أساسيين هما: الزمن أو التاريخ ثم العقل أو التفكير^(١).

(١) ألفين توفلر، صدمة المستقبل، ترجمة عبد اللطيف الخياط (دمشق: دار الفكر، ١٩٧٤م).

Alvin Toffler , Future Shock , Abantam Books , New York , London , 1971.

ومن غير أدنى شك ، فإنه لا يمكن لأحد أن يقف في وجه التطور التقني، أياً كان شكله أو توجهه، فهو حدث تلقائي بل وضروري جداً لاستمرارية الزمان والمكان.. ولا شك في أن تغيرات المكان والزمان لا يبد وأن تؤدي إلى تحولات في الكائنات جميعاً.. وبالتالي تتغير المجتمعات وما تخترع من التقنيات طبقاً لهذه التغيرات.. هكذا لا يبقى الثبات على أحد.. إن ما يحدث من تغيرات في التقنيات يتناغم.. وهذا ما أكده المؤرخ «آرنولد توينبي» في كتابه «البشر وأهمهم الأرض».

ومن الواضح أن التقنيات الحديثة قد أصبحت متداخلة ومتكاملة لجميع أنشطة الفرد، متعددة الأبعاد، سواء في السلوكيات أو في تنظيم الطاقات، ولن نستطيع حصر مفردات التقنيات أو وضع قائمة بالأشياء التي تعني للبعض الحضارة أو المدنية، وفي نهاية المطاف تصبح مدنية العالم الحديث موحدة في كل مكان من العالم. كما ظهرت مجموعة هائلة من المفردات العلمية والفنية والتقنية والبروتوكولات الاجتماعية المتفق عليها عالمياً؛ وقد شكل ذلك كما هائلاً من الشفرات والرموز المتطورة حتى تم التفاهم بسهولة بين الشعوب^(١).

(١) ألفين توفلر، صدمة المستقبل، المرجع السابق .

Alvin Toffler, Future Shock, Abantam Books, New York ,London, 1971.

في كتاب بعنوان: «بنادق وجراثيم وصلب، مصائر المجتمعات الحديثة»^(١) حاول المؤلف «جيرارد داييموند» تقديم خلاصة وافية عن تاريخ العالم طوال ثلاثة عشر ألف عام مضت، كما استعرض بداية حياة الكائنات جميعاً على ظهر كوكب الأرض؛ كذلك قام بسررد التقنيات التي نشأت واندثرت مع تحديد أسباب الفجوة الحضارية بين الشعوب. وقد استعرض المؤلف مراحل الطفرة التي نقلت المجتمعات البدائية من حالة التخلف لتتبوأ قيادة العالم؛ والجديد في فكر المؤلف هو اعتقاده بأن الشعوب المقهورة والمستعمرة قد ساهمت في بناء التقنية أكثر من غيرها ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلْهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠). لكن المؤلف أسقط حقبة البعد الصفري، وهي حوالي المليونين عام، التي عاشها الإنسان في العصر الجليدي، كذلك لم يشر إلى أهمية العلوم النظرية والفلسفية في توجيه مسارات التقنية، ولم يتحدث بالتفصيل عن تطور العلوم التطبيقية وبنائها التدريجي للحضارة الحديثة.

والحقيقة أن المرحلة التالية للبعد الصفري كانت مرحلة كسر حاجز العزلة، حيث تكون الخط المتصل للبشرية، وتلاقت الخطوط العامة للخيرات، فمن الهند جاءت الأعداد العشرية، ومن شبه الجزيرة العربية جاءت الجياد

(١) جيرارد داييموند، بنادق، وجراثيم، وصلب، مصائر المجتمعات الحديثة، ترجمة أحمد معمر، ١٩٩٩م.

Jared Diamond, Gans, Germs and Steel, Norton and Company. New York, London, 1999.

الأصيلة، ومن تركيا الحديد والبرونز، ومن إيران النسيج والسجاد، ومن مصر العجلات وورق البردي والزجاج، ومن الصين البارود والبوصلة والأواني الصينية؛ كذلك تم تبادل الثقافات والأديان والعلوم المختلفة، واستغرق ذلك خمسة آلاف سنة.

أما البعد الحضاري الثاني فكان عصر الرحلات والاكتشافات الكبرى، وعليه شقت الطرق، وتكونت المدن، وظهرت الإمبراطوريات والحضارات الكبرى في الصين والهند ومصر وفارس واليونان والرومان. وقد اكتمل البعد الثاني للحضارة عندما بنيت السفن والأساطيل الضخمة مع معدات الملاحة المتطورة، لقد حدث ذلك في بدايات القرن الخامس عشر، واعتبرها بعضهم بداية لسطوة العولمة حيث قفزت المصالح الاقتصادية عبر الحدود، وظهرت المستعمرات التي ساندتها سيل المعلومات والتطبيقات العلمية.

ثم كان البعد الثالث باقتحام الفضاء وتقدم فنون الطيران، مما سهل نقل البشر والسلع وزاد من ترابط الشعوب، وزاد أيضاً من حدة الحروب ومن استخدامات أسلحة الدمار الشامل. وهكذا بدأ صراع القوى الكبرى على الفضاء، مما زاد من سيطرة المؤسسات متعددة الجنسية.

ثم ظهر البعد الرابع بتفجر الثورة الإلكترونية وتدفق سيل المعلومات، وما واكب ذلك من تعدد أنواع وسرعة الاتصالات، وظهر المجتمع الاعتيادي أو اللامكاني. هكذا تمت السيطرة على العقول دون قيود، وتم

اختراق النفوس دون حدود، وأحكمت السيطرة الكلية على الفرد دون وجود حقيقي للمسيطر الذي يمكن محاربه والقضاء عليه.

اليوم وتمت (ظاهرة التفكيك) يحاول العلم فهم الكون في أبسط تركيباته، بدءاً من الذرة ومروراً بالخلية وتركيب الدماغ وانتهاءً بهندسة المجرات. ومنذ نهاية القرن الفائت تلاحقت الانتصارات العلمية في اختراقات فضاءات معرفية شتى، حيث اكتشف العالم «رونجن» الأشعة السينية عام ١٨٩٥م، وكان أول من نال جائزة نوبل عليها. وفي عام ١٨٩٦م اكتشف «بكريل» النشاط الإشعاعي؛ وفي عام ١٨٩٧م اكتشف «تومسون» الإلكترون، وهكذا قلب الاعتقاد الإغريقي القائل: بأن الذرة لا تنقسم؛ وفي ١٨٩٨م عزلت عائلة «كوري» الراديوم؛ ووضع «ماكس بلانك» عام ١٩٠٠م قانون «الجسم الأسود» وطور «ميكانيكا الكم»؛ وتقدم «آينشتاين» عام ١٩٠٥م بنظريته في النسبية الخاصة، وحددت سرعة الضوء كسقف علوي لأقصى سرعة. وفي عام ١٩١١م توصل العالم «رذرفورد» إلى معرفة البروتون وأنه إيجابي الشحنة ويعادل الإلكترون السالب ولكنه أثقل منه بـ ١٨٣٦ مرة، واقترح نظاماً خاصاً لترتيب الذرة يشبه النظام الشمسي، تستقر في المركز البروتونات وتطوف حولها الإلكترونات مثل الكواكب حول الشمس. وهذا بدوره طوره «سومرفيلد» عام ١٩٣٨م بدوران الإلكترونات على شكل «اهليلجي» كما في دوران الكواكب في نظامنا الشمسي، وهكذا حول الذرة إلى نظام شمسي.

وفي عام ١٩٣٢م كشف «شادويك» عن «النيوترون الحيادي» الذي يعمل على تماسك البروتونات بسبب التدافع بين الشحنات المتشابهة فيمسك نواة الذرة أن تزول. وجعل «نيلزبور» ذلك النموذج يعمل، ويعتبر «شادويك» مكتشف النيوترون، أما «انريكو فرمي» فاستعمل ذلك النيوترون لفلق النواة وتحويلها إلى عناصر أخرى. ويأتي في مقدمة هؤلاء «ماكس بلانك» الذي أعطى الطاقة المفهوم الذري كالمادة و«لودفيغ بولتزمان» الذي يعود إليه الفضل أن جعل الذرة شيئاً حقيقياً كالعالم الذي نعيش فيه.

وقد تابع العلم سيره نحو أدق الدقائق، فبنى المسرعات النووية تحت الأرض بمقول مغناطيسية، كما في مفاعل «سيرن، CERN» الأوروبي لتحطيم البنى «دون الذرية» لمعرفة أين تنتهي رحلة العالم الأصغر. وما زال العالم اليوم عند حافة «الكواركز» المكونات الأولية للبروتونات واللبتونات في الإلكترونات في قوة (عشرة قوة ناقص ١٦) أما الكون فوصل فيه إلى حافة عشرة قوة ٢٤، وهكذا فنحن نسبح بين «الماكرو والميكرو، Macro & Micro» في حدود عشرة قوة أربعين، فهذه هي حدود العلم اليوم. كما أمكن تركيب (مضاد المادة) ANTIMATERIAL التي هي الذرة نفسها مقلوبة الشحنة بروتون سلمي وإلكترون موجب يسمى البوزترون. وحاولت أميركا أن تأخذ قصب السبق في تفكيك البناء الذري أكثر من غيرها فعمدت إلى الانطلاق بمشروع (ماموت) في بناء مسرع

نووي ثم وقفت عن متابعته بسبب الكلفة الباهظة التي تجاوزت ١١ مليار دولار أميركي لمشروع أكاديمي^(١).

وقد برهن «مورجان» في عام ١٩١٠م على صحة قوانين «مندل» وأثبت بصورة قاطعة أن الصفات الوراثية تنتقل من جيل لآخر بواسطة «الكروموسومات»، وهكذا فرضت الحتمية الوراثية قيودها على البشر. ومنذ ذلك العهد أصبح هم الفرد هو توحيد الكون الطبيعي والكون الاجتماعي، وقد ساعد العلم في ذلك بإثبات أن جميع الكائنات (نبات - حيوان - إنسان) تتكون من خلايا متشابهة وتتشرك جميعاً في نموذج الخلية الأساسي، كما أن الخلية بدورها تشترك مع الجملادات في التكون من نفس العناصر الأساسية مثل الكربون، هيدروجين، أكسجين، نيتروجين وغير ذلك من العناصر.

ثم أخذت الأبحاث العلمية مجرى جديداً في شق الطريق إلى أدق الدقائق في (البيولوجيا) و(العلوم العصبية) لكشف أسرار الدماغ، وهكذا تم تفكيك الجينوم البشري، وهو ما عرف بالقبيلة البيولوجية للقرن الواحد والعشرين. ومن غرائب الصدف أن العمل عليه يقع في «لوس آلأموس» نفس مكان إنتاج السلاح النووي! وقد تم فك كامل الخريطة الوراثية عند الإنسان في فبراير من عام ٢٠٠٣م كما أعلن ذلك «كريج فنت، Craig Venter».

(١) جيمس بيرك، عندما تغير العالم، ترجمة ليلي الجبالي، سلسلة عالم المعرفة، العدد: ١٨٥، المجلس القومي للثقافة والفنون والأدب، الكويت، ١٩٩٤م.

والعلماء اليوم بصدد رسم خرائط كاملة لكل المخلوقات، ونحن نعلم اليوم أن الكود الوراثي عند الشمبانزي لا يختلف عن الإنسان بأكثر من ١%؛ لكن القفزة النوعية للإنسان هي في هذا الفارق المكون من ثلاثين مليون حامض نووي فقط، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الشريط الوراثي الكامل مكون من ثلاثة مليارات حامض في النواة! ونحن نعلم أيضاً أن تركيب الخلية والعلاقة بين عضياتها أعقد بكثير مما نتصور، وفي نواة الخلية يكرر الكود وراثي إنتاج نفسه على نحو مذهل يقدره العلماء بنسخ تبلغ ٥٠٠ بليون نسخة في اللحظة بدون خطأ واحداً^(١)

وقد بدأت رحلة الحياة بوحيدات الخلية لمدة ملياري سنة قبل ظهور عديدات الخلايا. يثبت ذلك مدى التطابق بين الكائنات الحية والبيئة التي تعيش فيها، وأن أي تلاعب في هذا التوازن باستخدام التقنيات الحديثة يؤدي إلى مخاطر كبيرة تظهر اليوم على شكل أمراض السرطان والإيدز وانفجار فيروس الإيبولا من غابات أفريقيا.

وعند تعقب المخترعات وآثارها، سوف نجد أنها بدأت بجهود حثيثة ثم ظهرت بصور متواضعة، وكان تأثيرها في المجتمعات يحدث بتسلسل هادئ. وعلى سبيل المثال فقد اخترع الكهرباء «توماس أديسون» (١٨٤٧-١٩٣١م) وبدأ استخدامها في إنارة الشوارع، التي كانت تنار بالغاز، أو لا تنار

(١) جان ماري بيلت، عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، ترجمة السيد محمد عثمان، سلسلة عالم المعرفة، العدد: ١٨٩، ١٩٩٤م.

إطلاقاً، ثم انتقل استخدام الكهرباء إلى إنارة البيوت. وقد ترتب على استخدام الكهرباء اختراع المصاعد الكهربائية التي كانت السبب الرئيسي في ارتفاع الأبنية حتى ظهرت ناطحات السحاب. كذلك نتج عن شيوع استخدام الكهرباء اختراع المذياع والحاكي (الفونوغراف المعروفة الآن بالمسجل) ثم التلفاز، الذي بدأ انتشاره الواسع في الولايات المتحدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م. وفي العصر الحالي شاع استعمال الطائرات والسيارات والحافلات والمذياع والقنوات التلفازية الأرضية والفضائية، والهاتف الثابت والمحمول (الجوال) والاتصالات الإلكترونية، هذا فضلاً عن الأدوات المنزلية من ثلاجات ومبردات وأفران كهربائية وغسالات وغيرها.

وحيث انتشرت هذه الاختراعات من نواتج الحضارة وفواعل التقنية فهيات لها المجتمعات الغربية وحدث فيها تغيير وتعديل متتال وتكيف بشري لإعادة التنظيم الإداري والاجتماعي. لكن الحال بالنسبة لأغلب البلاد العربية لم يكن كذلك للأسف الشديد، وإنما حدث في بعض البلاد أن انفجرت الحضارة كبركان يقذف الاختراعات بقوة ثم يسير ببطء شديد في تعديل أساليب التعامل ونظم الإدارة وروابط المعاملات. هكذا فوجئ الناس فوق لهم ما يسمى بالصدمة الحضارية من اكتناز المعادن النفيسة كالذهب والفضة في مخابئ داخل البيوت إلى التعامل بالنقد أو بالكروت البلاستيكية، أو بال شيكات المصرفية، أو التحويلات المالية وغيرها. بل أصبح المال وحياسة

التقنية (وليس إعادة التنظيم الإداري والاجتماعي) هما مقياس كل شيء في التعامل والتصرف الشخصي والاجتماعي والدولي! فضلاً عن الصدمة المالية بحد ذاتها، فإن بعضهم قد أسرف في اقتناء السيارات وأجهزة الفيديو والجوالات وغيرها، فزاد بذلك من ضخامة الصدمة وعمق من آثارها السلبية.

ولاشك في أن الولايات المتحدة الأمريكية، وهي من أكبر الدول الإنتاجية والاستهلاكية في العالم، قد جعلت للدعاية والإعلام دوراً مهماً في تنشيط الاقتصاد القومي ليشمل العالم كله، وذلك بعد أن جعلت المجتمعات الغربية تتهياً وتكيف مع كل اختراع وتقنية جديدة. على سبيل المثال، فإن المواطن في الولايات المتحدة قد يستهلك بكثرة لأنه يستهلك ما ينتجه، أو ما قد يساهم بأمواله في إنتاجه حتى ولو كان الإنتاج في بلاد أخرى؛ أما إذا لم يستهلك بوفرة فإن عجلة الاقتصاد سوف تتوقف في بلده، وقد تغلق بعض المصانع ومحلات التوزيع أبوابها فيتعطل عدد كبير من الشعب أو يفقد عمله. إذن الاستهلاك ضروري لانتعاش الاقتصاد وتقليل نسبة البطالة، لكنه من جانب آخر يسبب الكثير من المشاكل الصحية والمالية واستنزاف للبيئة. وقد تبهت الكثير من المجتمعات الغربية لتلك المشاكل، وعملت في جد ووعي وعلم على إعادة تأهيل النفوس وهيئة المجتمعات للتعامل السليم مع منتجات وتقنيات الحضارة سواء النافع منها أو الضار، بل وأنشأت من أجل ذلك مؤسسات ومعاهد تهدف إلى تحقيق توافق الفرد مع

التقنية ومع البيئة المحيطة من حوله. لكن أين شعوب العالم الثالث من ذلك كله؟ وأين بحثوهم ودراساتهم وما مدى تطبيقاتهم؟ الإجابة عن هذه الأسئلة تحتاج لوقفة طويلة قد لا يسمح بها حيز هذا الكتاب لكن صدى هذه التساؤلات قد تفتح الطريق أمام مستقبل أفضل.

ولن ننسى الدور الكبير الذي قامت به العلوم النظرية في توجيه المسارات التطورية للتقنيات المختلفة؛ وعلى سبيل المثال، فقد نشر العالم «هربرت سبنسر» في عام ١٨٥٢م بحثاً بعنوان: «نظرية حول السكان»، يعتقد فيه بأن النضال من أجل الوجود إذا تراخى فسوف يتبعه تفسخ اجتماعي؛ أما لو استمر النضال الاقتصادي والتقني فيمكن القضاء على العنصر الضعيف لصالح خير المجتمع بوجه عام، وربما تكون الفرضية الأخيرة مشاهمة تماماً لما يحدث لآلاف الخلايا في الجسد الواحد، والتي قد يتم التضحية ببعضها من أجل البقاء على فصيلة معينة من الخلايا، ويشير المفكر «ميخائيل جورباتشوف» إلى تلك النظرية بالتفصيل في كتابه (النظام العالمي الجديد)^(١).

وفي عام ١٨٦٠م نشر الفيلسوف «هيجل» مذهب الواحدية الذي ينص على وجوب توافق الإنسان مع الطبيعة، وعليه فليس للفرد حق الوجود ككائن متميز له روح متفردة! إنما هو فقط على درجة أعلى من التطور. كما طالب «هيجل» بأن يكون العلم في المقدمة ولكن دون

(١) ميخائيل جورباتشوف، النظام العالمي الجديد، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، (٢٤)، ١٩٩٨م.

تشجيع للإرادة الحرة التي قد تلعب دوراً مدمراً في حياة المجتمعات، بل لا بد من الخضوع لسلطة الجماعة التي تدعم فرص الحياة، هكذا لا تكون حياة الفرد ذات قيمة أو أهمية، وليس هناك أي جاذبية لمجموعة مطلقة من الأخلاقيات أعظم من تلك الأخلاقيات المتصلة بمصلحة الجماعة ككل^(١). وهكذا أصبح الإنسان ضحية لعلوم البيولوجيا والسوسولوجيا والإيكولوجيا وتقنياتها المختلفة.

وهناك من يؤمن بأن ظاهرة الإنسان قد جاءت كنتاج لتطورات الوراثة والبيئة والتقنية لا غير! وهو حبيس جزئيات باطنية عقلية ومظاهر خارجية اجتماعية سبقته إلى الوجود، ولذلك فهي تشكله وتغرر به في جميع شؤونه وأحواله، وبذلك ماتت الإنسانية في نظر الغرب. وبطبيعة الحال فإن موت الإنسانية يعني موت الفن؛ لأن هذا يولد من ذاك؛ ولم يعد الهدف سوى البقاء على الطبيعة ما لم تفن في كارثة نووية أو بسبب تطور تقني آخر^(٢).

وفي العصر الحالي يطغى الصراع الاقتصادي الصناعي ويتحول في النهاية إلى صراع ثقافي حيث تنتصر ثقافة الغالب في المناحي الاقتصادية ويصطبغ العالم بها، بل عادة ما يسعى المغلوب لتقليد الغالب تقنية ولغة وفكراً وسلوكاً.

(١) يمدى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، سلسلة عالم المعرفة، العدد:

٢٦٤، ٢٠٠٠م.

(٢) المرجع السابق.

- إلى أين يمضي بنا التطور التقني؟

في كل دورة من دورات الزمان تتناسى الدول القوية الخسائر والمآسي التي خلفتها تقنيات الحروب للحضارات الغابرة وتعود للحرب من جديد! فلماذا يحدث ذلك على مر العصور؟ ربما لأن الدول القوية في أي زمان ومكان لا تعطي الاهتمام الكافي لمعنى الحضارة الحقة وتطبيقها الإنسانية كما تعطي الأهمية للتقنيات المادية^(١) يقول تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ تُرَأَوْا أَنْفُسَكُمْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ (الأنعام: ١١)... لقد كان مفهوم الحضارة عند «ابن خلدون» صحيحاً، ألا وهو فساد العمران من حيث صورته (هو ما يصيب الدولة) وكذلك فساد العمران من حيث مادته (هو ما يصيب الأفراد الذين هم مادة العمران) ويصف «ابن خلدون» الحضارة بقوله: التفتن في الترف، واستحادة أحواله، والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه، من الصنائع المهيأة للمطابخ والملابس والمباني والفرش والآنية وسائر أحوال المنزل. ويعتبر «ابن خلدون» هذه الحضارة مزيفة ومصيرها إلى الزوال؛ لأنها تجعل من القيم السائدة قيماً حسية، أي موجهة لإشباع الحواس فقط، إن ذلك على وجه الدقة هو واقع حضارتنا الحديثة.

ويقترح «ابن خلدون» فكرة الضبط الاجتماعي، أو الوازع، التي يتم بها التحكم في السلوك الاجتماعي على المستوى المجتمعي، وهي قضية

(١) هانس بيتر مارتنين وهارالد شومان فغ العولمة، ترجمة عدنان عباس علي، مراجعة رمزي زكي، عالم المعرفة، العدد: ٢٣٨، ١٩٩٨م.

مركزية لأنها تتوسط بين حالتين اجتماعيتين هما البداوة (العصبية) وال عمران (الحضارة)^(١). وقد نختلف هنا مع «ابن خلدون» في معنى الترف، فهو في الحقيقة ليس حالة من حالات الحضارة، بل هو موقف منها، وعلى مر العصور وجد الفقراء المترفون وكذلك الأغنياء المتقشفون. وكم من أغنياء اليوم هاربون من سطوة التقنيات إلى الغابات والخلاء للاحتماء بالطبيعة الأم؛ واستبدال المنتجات الملوثة المصنعة بغيرها من الطبيعية الصافية النقية^(٢).

وتهم مجلة «دار الشبيجل» الألمانية بأضرار التقنيات بصفة خاصة، حيث تسلط الضوء على أحدث التقنيات وسلياتها المتعددة. وقد ختمت مجلة «دار الشبيجل» الألمانية القرن العشرين بسلسلة ذات عشرة مواضيع حيوية تمثل شرايين الحياة للجنس البشري ألا وهي: طب الغد؛ الانفجار السكاني والمصادر المحدودة؛ عصر المعلومات؛ كوكب الأرض والثروة المهددة؛ مستقبل الاقتصاد؛ التقنية ومصانع المستقبل؛ السياسة العالمية؛ مستقبل الثقافة؛ عوالم الحياة المستقبلية؛ وختمت الأبحاث السابقة بموضوع شيق عن حدود المعرفة؛ الذي تضمن بدوره أربعة أبحاث عن: سر الحياة؛ سر الإبداع؛ مستقبل الأديان العالمية؛ الدماغ والوعي وكيفية فهم السلوكيات المختلفة.

إن وضع اليد على (فهم كيف نفهم؟) هو مفتاح التحكم في الإنسان وبالتالي التحكم في صنع وتوزيع واستخدام التقنيات المختلفة. وهناك من يطمح إلى تطبيق ذلك المفهوم كما في جماعة مدرسة علم النفس السلوكي

(١) حصين مؤسس، الحضارة، سلسلة عالم المعرفة (١) ١٩٧٨م.

(٢) المرجع السابق.

التي مثلها «ب. ف. سكينر» في كتابه: «ما خلف الحرية والكرامة Beyond Freedom and Dignity» خير تمثيل، وقد ترجم الكتاب إلى العربية تحت عنوان: «تقنية السلوك الإنساني». يقول العالم «سكينر، B.F.Skinner»: «إن ما نحتاجه هو تقنية للسلوك، فحينئذ يمكننا أن نحل مشكلاتنا بسرعة معقولة إذا ما استطعنا ضبط نمو سكان العالم بالدقة نفسها التي نضبط بها مسار سفينة فضاء، أو تحسين الزراعة والصناعة بشيء من الثقة والأمان التي نسرع بها ذرات الطاقة العالية».. لكن «سكينر» يستدرك مدى الصعوبة التي تقف أمامه فيعقب: غير أن تقنية «السلوك التي يجب أن تضاهي في القوة والدقة التقنية الفيزيائية البيولوجية» غير موجودة في عالمنا اليوم، وللأسف الشديد.

وإذا كان «سكينر» قد اعتبر أن الكرامة وهم والعقل أعمى فإن «سنجر، Singer» رئيس معهد (ماكس بلانك) لأبحاث الدماغ في فرانكفورت لا يرى في (الإرادة الإنسانية) أكثر من تركيبة ثقافية يمكن السيطرة عليها(!) هكذا تصب الجهود العلمية اليوم في حقل (العلوم العصبية) لاكتشاف أسرار الدماغ سيد العالم، وهو ما جعل رئيساً أمريكياً يصرح: «إن عالماً تجلس فيه الأبحاث العصبية على العرش وجب أن يعلو هامتها تاج أمريكي».

لقد ودعنا القرن العشرين، وهو قرن حافل بالاختراعات والابتكارات، ويكفيه فخراً أنه قرن البث المباشر والهاتف النقال والإنترنت والحواسيب فائقة الذكاء. وقد أبدع فيه العقل البشري فهياً لذاته كل أسباب الرفاهية والهناء، ولم ينس أن يهيئ لغيره كل أسباب الشقاء والتعذيب أيضاً. كذلك زاد طغيان

التقنية المهيأة للقتل والدمار مقابل قلة من التقنيات المرصودة لمقاومة الجماعات والفقير والمريض. وبينما حقق القرن التاسع عشر تطوراً في الحياة العادلة بكل صورها الحضارية فإن القرن العشرين وما تلاه قد أبرز الدور الأكبر للدول (ذات التقنية المتطورة) في عمليات القتل المنظم غير المسبوقة في الحجم والتكرار ولم تجد مواعظ التاريخ نفعاً في ميادين الحروب! ويبدو أن حركة التاريخ والحضارة هي تجربة واحدة متكررة، ولتذكر دوماً بأن الحضارة لا تفنى وإنما هي تموت وتحلل كأوراق الشجر المتساقطة التي تسمد الأرض استعداداً لبزوغ حضارة جديدة غير معترية بما سبقها من الضحايا.

إن البيئة العالمية الجديدة قد قدمت أكثر من دليل يؤكد رحلة السقوط البطيء للفرد في دوامة التقنيات المعاصرة. يقول المفكر «روجيه جارودي»: الإنسان ينهار الآن، ونحن نعيش في عالم ملئ بالعنف والفوضى، إنه عالم الغابة وبداية انهيار الحضارة الغربية التي فرضت علينا قيمها ونمط حياتها. وبأسف «روجيه جارودي» بشأن هذه الهيمنة التقنية والعسكرية الساحقة، التي هي لإمبراطورية ليس لها أي مشروع إنساني يمكن أن يعطي أهدافاً سامية للحياة^(١). وبالرغم من سيطرة التقنيات فإن غالبية البشر تشكو من غلاء المعيشة، ومن التلوث البيئي، ومن مشاكل في الصحة، ومن ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وغير ذلك كثير. كذلك فالجميع يشعر بما يمر به العالم اليوم من قلق واضطراب وحروب ودمار وتلوث للبيئة وفساد في الذوق والأخلاق ثم رفاهية القلة على حساب الكثرة. هكذا يواجه الفرد اليوم عدداً من

(١) ألبرت اشفيتسر، فلسفة الحضارة، مرجع سابق.

التحديات أهمها التحدي التقني إلى جانب التحدي الفكري والسياسي والاقتصادي والتربوي والإعلامي.. ترى كيف سوف ينعكس ذلك كله على النفس الإنسانية؟ وهل سيشهد العالم فترة أشد قلقاً من الفترة التي نعيشها الآن؟ فقد أصبح من النادر جداً أن تلتقي فرداً واحداً قرير العين مطمئن النفس هادئ البال، ينطبق علينا قول الشاعر:

كل من صادفت يشكو دهره ليت شعري هذه الدنيا لمن؟
ولا شك في أن معاناة شعوب العالم الثالث سوف تزداد بؤساً، فهي شعوب تعطي المواد الأولية النقية وتأخذ الرديء الملوث من نتاج المصانع! تشتري ولا تبيع، ولا تنتج بقدر ما تستهلك من نفايات الغرب ومن تقنيات قد لا تعرف ضراوة خطرها حتى اليوم! إن الرؤى المستقبلية وما سوف يتكشف عنه هذا القرن الذي ينطلق في إنجازاته بسرعة الصاروخ قد تكون أغرب من الخيال، ولن تلحق به شعوب العالم الثالث إلا بالتسلح بأحدث التقنيات الأخلاقية والعلمية على حد متواز ومتكافئ؛ إن كل ما تحتاجه هذه الأمم هو توخي الحذر الشديد مما تستورده من الغرب؛ وكذلك استقراء المستقبل السلي لبعث التقنيات أو الحد من استخدامها. كذلك يمكنها تطوير الحاضر الإيجابي في كل ما تملك من إمكانيات طبيعية وتشجيع المواطن على استخدامها، مع الإصرار على إدخال الإبداع والحث على الاختراع والابتكار السليم الذي تحمد عواقبه، يقول تعالى: ﴿فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤).

- ما الهدف الأمل من استخدام التقنيات؟

إذا كان هدف الأديان الأسمى هو بذل الجهود للوصول إلى الكمال الأخلاقي، على مستوى الفرد والمجتمع، وذلك بتحقيق التقدم في مجالات الفكر والخير والعدل والمحبة والجمال، فإن التقنية لا بد أن تهدف أيضاً إلى الوصول بالتنوع الإنساني للكمال في كل ما يؤدي به للسعادة البشرية. ومن المهم التأكيد هنا على قدرة العلوم الفذة في استشراف الآفاق المستقبلية واستبصار ما ينبغي أن يكون؛ كما وأن لها القدرة على كشف عقم وقصور الظروف المعرفية وضرورة تجاوزها بعد أن استنفدت مقتضياتها، ولكن بشرط الأخذ في الحسبان السلامة النفسية والجسدية للفرد^(١). وهنا نصل إلى نتيجة حتمية ألا وهي أن المعنى الجوهرى للتقنية لا بد أن يكون إنسانياً وأخلاقياً، وذا طبيعة ثقافية عالية وعميقة تمتد لتصل إلى كل ما حولنا من معنويات إضافة إلى الماديات. ومن ثم يتوجب على خبير التقنية أن يضع نفسه في خدمة القيم العليا، والعمل على خلق القيم الجديدة الملائمة للعصر، بحيث يصل إلى نظرة راقية في الحياة يمكن أن تنشأ منها حضارة عادلة وشاملة.

لقد بدأت العلوم كإنجازات شخصية أو معارف فردية، ومع تواتر التقدم العلمى ازداد العلم إمعاناً في طابعه الجماعى التعاونى، خاصة مع ارتفاع تكاليف البحث العلمى وتعقد آلياته وضخامة برامجه؛ واليوم لا بد من

(١) يمنى طريف الخولى، فلسفة العلم فى القرن العشرين، مرجع سابق.

إضافة التخطيط التحذيري المبرمج للبحث والتطبيق العلمي حتى تؤتي التقنية ثمارها غير السامة. وقد وجب علينا التساؤل عن الهدف الحقيقي للبحث العلمي؟ حيث إنه من الواضح تحول معظم العلوم إلى تجارة مادية منظمة تمولها الجامعات والمؤسسات والشركات الكبرى؛ كما تحول هدف العالم من الأمانة العلمية ومن الاكتشاف المخلص للظاهرة إلى السيطرة التامة، ثم إلى التغيير والتبديل في طبيعتها حتى تكون طائفة منضوية تحت كنف العالم وإمرته، حيث يزوج بها في دوامة العنف والمادة. هكذا سادت ظاهرة السيطرة والاحتكار العلمي، وبات لكل دولة مستودع من الأسرار العلمية والتقنية التي تُخدم التسليح أكثر من خدمة البشرية، بل ربما أصبح التنافس شديداً اليوم لاكتشاف أحدث سلاح للقضاء على البشرية وبأقصى سرعة ممكنة حتى يمكن استخدامه في الحروب^(١).

ومن الواضح أن العلم قد أصبح اليوم صنعة وفعالية يتحكم الفرد بأدق ذراتها، والخوف كل الخوف أن يتحول ذلك إلى مغامرة غير إنسانية لا تعرف لهايتها. ولا بد من التأكيد في هذا السياق بأن أنظمة العلم الأساسية جديرة بالإعجاب خاصة ما يتعلق منها بأنظمة الوظائف الدقيقة للخلايا وكشف مدى ترابطها وتعاونها؛ كذلك كشف لنا العلم عن أنظمة غاية في الإهمار من ناحية الترتيب والجمال، وعلى العالم الحق أن

(١) المرجع السابق.

يحرص على كشف ما يجعلها أكثر في الروعة والإعجاز لكن دون تبديل لخصائصها الطبيعية^(١).

كل العوامل السابقة خلقت ما يسمى اليوم بعلم العلم (Scientology) الذي يضم كل فروع الدراسات التي تؤدي إلى الإحاطة بظاهرة العلم، ومن أهمها تاريخ العلوم، وسيكولوجيا البحث والإبداع العلمي، وقيم البحث، وقيم المجتمع العلمي الكائنة وما ينبغي أن تكون؛ ثم كيفية توثيق علاقة العلم بالأطر الأيديولوجية وبالأنظمة الاقتصادية والسياسية العادلة. كذلك الاهتمام بالمؤسسات العلمية والأسس التخطيطية لنشأتها وتحديد أهدافها والأساليب المثلى لإدارتها من ناحية التوظيف الأمثل لنظم المعلومات وشبكة الاتصالات العالمية؛ كما يضم هذا العلم علاقة العلوم المختلفة بالتنظيمات والمتطلبات الاجتماعية، وقضية الثقافة العلمية، والاهتمام الخاص بمناهج وأساليب تدريس العلوم وإعداد العالم، وسائر أبعاد تنمية المناخ المهيأ للعطاء العلمي النقي.

من خلال هذا النظام، يمكن أن تحقق الحضارة أهدافها الخيرة وقد تصبح العلوم في خدمة أولئك الذين من أجلهم وبهم خطت العلوم خطواتها الأولى. لقد تجاوز العالم اليوم مرحلة الافتتان بالعلم، وما تريده البشرية اليوم هو ترويض العلم لحل المشكلة البيئية الضخمة، التي تشمل استنفاد الموارد وتراكم النفايات والتعاضم المتوالي لأسلحة الدمار الشامل، التي تستنفد معظم

(١) المرجع السابق.

موارد الدخل القومي دون مردود إيجابي؛ وقد تخترع الدول العظمى نظاماً من العقوبات الصارمة لقمع الشعوب يعتمد على التطبيقات العلمية؛ وربما تم بالفعل تسويق ملابس وأحزمة بما أقرص من اليورانيوم تسبب العقم والسرطان لشعوب معينة ! كذلك قد يتم استغلال السلاح البيولوجي كالجينات الوراثية والفيروسات وغيرها في القضاء على بعض الشعوب!

لأول مرة في تاريخ الحضارة البشرية يتوصل الإنسان إلى قمة التحضر والتخلف في آن واحد، والعجيب أنه قد تمكن من معرفة الأسباب الحقيقية التي تؤدي إلى التخلف، وبالرغم من ذلك فهو لا يزال متمسكاً بها وكلمة أمعنت البشرية في تقدمها كلما تفشت بها الأمراض الجسدية والعايات النفسية والانحرافات الخلقية! ومما يزيد الطين بلة أن التطور الإنساني الأخلاقي قد حدث ببطء شديد، أما التقنية فإنها تتطور كما يشابه انتشار النار في الهشيم، وهامي اليوم تسابق طاقة الفرد وقدرته على التعامل معها^(١)! ترى هل ستقوى هيمنة الآلة؟ أم سوف يتم التحرر منها ومن استعباد حضارة الاستهلاك المنفشية بيننا ومن أغراضها الجاذبة لحواسنا والمتسلطة على الفكر والوقت والمال والجهد؟ أو هل سيكون العجز عن مواجهة هذا التهديد بداية لحلول نهاية حضارتنا؟ إذ عادة ما يبدأ الانحدار بعد الوصول لل قمة مباشرة، يقول الشاعر:

ترقب زوالاً إذا قيل تم

إذا تم شيء بدا نقصه

(١) هانس بيتر مارتين وهارالد شومان، فخر العولمة، مرجع سابق.

ولنا الحق في أن نتساءل: ما حجم الفوائد التي حققتها التقنيات في المجالات الإنسانية؟ وهل يمكن مقارنتها بتلك التي تسبب الدمار والخراب والعلل والأمراض؟ لا يزال العنف هو المسيطر على الموقف؛ وتقدر المنظمات الدولية عدد الأشخاص الذين يقتلون في العالم في كل ساعة نتيجة نزاع مسلح بخمس وستون فرداً وخلال القرن العشرين قتل نحو ١٩٥ مليون شخص بصورة مباشرة أو غير مباشرة (نصفهم من المدنيين) نتيجة حروب غير عادلة! كما أن أكثر من ٥٠% من المسنين و٣٠% من الأطفال في العالم قد وقعوا ضحايا أعمال العنف والقسوة غير المبررة.

إن التطور التقني يمضي بنا في هذا الاتجاه المخيف، وللأسف الشديد؛ أيها الإنسان المتحضر قد تكون ذا مظهر راق ونفس أنانية جشعة! وقد يكون الحيوان الأعجم أكثر منك إثارةً وحناناً ورحمة! فأين التحضر والمدنية؟ يقول تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّمَنَّا لِيَبْلُوَهُمُ أَهْمُهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۗ ﴾ (الكهف: ٧-٨)، ويقول تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا رَبَّ عَالِيهَا أَلَّا يُغَارَبُوا فَرَجًا يَكُونُ لَكُم مِّنْهَا حَرَمٌ ۗ ﴾ (يونس: ٢٤).

الفصل الثاني

خطورة ثورة المعلومات والاتصالات والمواصلات

التغيير هو من سنن الحياة، وعالم البشرية لا يمكن أن يتطور أو يتقدم إلا بإدخال مفاهيم وأساليب حديثة لتطوير كافة مجالات الحياة. ولكن قبل أن نشرع الأبواب والنوافذ للتقنيات الجديدة لابد من معرفة ملاءمتها لواقع وإمكانات الدولة المادية والبشرية، كما لابد من توحى الحذر من سلباتها المتعددة وذلك بإشعار الأفراد بذلك. وتجدر الملاحظة بأن إمكانية الفرد العقلية المحدودة قد تنهار أمام هذه الثورات الثلاث الضخمة (المعلومات والاتصالات والمواصلات) التي تدخلت وتحكمت في الحياة الخاصة بشكل مكثف جداً. وقد يكمن الحل المثالي في تنظيم هذه الوسائل وتوضيحها للفرد حتى يسهل عليه الاختيار الحر المتميز من بين تلك البدائل التي قد لا يتمكن الفرد بنفسه من تنظيمها في حياته حتى تسن بشأنها تشريعات حكومية محددة وواضحة.

ومنذ ظهور مصطلح «الوسائط المعلوماتية» عام ١٩٨٠م على أيدي الأستاذين «سيمون نورا» و«ألن مينك»، الذين وضعوا لمنظمة اليونسكو تقريريهما عام ١٩٧٨م حول المجتمعات المعلوماتية، فقد أثار هذا المصلح ثورة عظيمة في مجال التعليم والإعلام على حد سواء، ومن ذلك المصطلح ظهرت وسائط الإعلام المتعددة لتؤدي دورها الكامل في توجيه الرأي العام

وقيادة المجتمعات ونقل القيم وتبادل المعلومات والخبرات والتجارب وتكوين ردود الأفعال العامة إزاء الأحداث^(١).

وقد تحظى وسائل الإعلام التقليدية كالإذاعة والتلفاز والصحافة بقوانين وربما بوزارة خاصة بها، وكذلك بتشريعات من أجل حماية حقوق الناس من الاعتداء بالكلمة أو بالصورة على الأعراس والأديان والسياسات، بينما تفتقد الوسائط المعلوماتية للقوانين المنظمة لها بالرغم من كونها أدوات إعلامية قوية ومتنامية ولها تأثير بالغ على عقول الناس. والمدهش في ثورة الوسائط المعلوماتية أنها مستمرة ومتسارعة بحيث عاجزت المجتمعات المتقدمة من ملاحظتها بتشريعات ملائمة، وقد أكد البروفيسور «أ. لو كاس» أستاذ القانون بجامعة «نانتير» الفرنسية أن عالم الوسائط المعلوماتية قد استعصى على القانون وتحول إلى دغل متوحش لم يعد من الممكن إخضاعه لتشريعات صارمة^(٢). في حين أكدت بعض القوانين الغربية بأن مستعمل هذه الوسائط هو مواطن له كامل حرية التعبير والاتصال ونشر أفكاره في إطار القانون، أي أن القانون قد اعتبر مستعمل الوسائط ككاتب في صحيفة أو متحدث في إذاعة أو متكلم في تلفاز، وقد أخضعه إلى نفس المعايير في الامتناع عن نشر أفكار نازية أو مخلة بالأمن العام أو نشر صور خليعة يمكن أن تصل إلى

(١) بيل جيتس، المعلوماتية بعد الإنترنت، ترجمة عبد السلام رضوان، عالم المعرفة (٢٣١) ١٩٩٨م.

(٢) فرانك كليش، ثورة الأنفوميديا، ترجمة حسام الدين زكريا، عالم المعرفة (٢٥٣) ٢٠٠٠م.

أيدي القصر أو غير الراشدين. ولكن لا يوجد في القانون أي إشارة أو تلميح إلى نسخ الأقراص بصورة غير مشروعة أو تشويه برمجيات موجودة أو الدخول إلى أنظمة إلكترونية ممنوعة أو بث موقع من مواقع إنترنت ذي محتوى مغل بالأخلاق أو بالأديان أو بالأعراض أو بالأمن العام^(١).

وفي الشرق يشتد اللغظ في كيفية الحفاظ على القيم والدين والأخلاق، وفي نفس الوقت يتفاوت التعامل بين أنواع من اللامسؤولية واللامبالاة والتحفيز الشديد حول هذه المواضيع.

ولمعرفة خطورة التغلغل السريع لتقنية الاتصالات فقد عقد المؤتمر السنوي الخامس لمركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية في سبتمبر ١٩٩٩م، تحت عنوان: «هكذا يصنع المستقبل عام ٢٠٠٠م»، وقد ألقى الكاتب الأمريكي «ألفين توفلر» محاضرة بعنوان: «تحول الثقافات والانعكاسات على الفرد والأسرة والمجتمع»، شرح فيها كيفية السيطرة الشاملة التي يقوم بها التطور الآلي وخاصة الإنترنت مما أتاح هيمنة الإعلام الأمريكي على العالم. وقد أشار الكاتب إلى أن الحاسوب قد ساهم من مخاطر البطالة، كما جعل حوالي ثلاثين مليون أمريكي يعملون خارج مكاتبهم. كما تحدث الكاتب عن المرحاض الذكي الذي يحلل بول وبرزاز الفرد ثم يكشف أمراضه عن طريق ربطه بالإنترنت وبعيادة الطبيب الذي

(١) فرانك كليش، ثورة الأنفوميديا، المرجع السابق.

يصف بدوره العلاج ويرسله عبر الإنترنت! وقد أكد الكاتب «توفلر» أن الموجة الرابعة في العالم تظهر اليوم في شكل انصهار للمعلومات وصيها في القمع البيولوجي للإنسان! والمحصلة هي شكل جديد للفرد، شكل ربما يصل إلى حد الغرابة في الشكل وطريقة التفكير وتقلبات المزاج^(١).

وقد توصل المؤتمر السنوي الخامس لمركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية إلى خلاصة مفادها: أن الثورات الثلاث الضخمة: المعلومات والاتصالات والمواصلات، قد تدخلت في حياة الفرد المعاصر بشكل مكثف، وعليه وجب توخي الحذر منها. كما تظهر أخطار هذه الثورات في كثير من المظاهر الاجتماعية السلبية كإضاعة الوقت والتهرب من الواجبات وغيرها؛ أما المنحى الاجتماعي الخطير الذي يتزايد اليوم فهو الزيجات التي تتم عبر الإنترنت بل والطلاق أيضاً! أما اللقاءات العاطفية التي تكون قد نشأت وترعرعت في فضاء الهذر السخيف وسببت الكثير من المشاكل النفسية والاجتماعية فهي أكثر من أن تحصى. وقد يتمكن الفرد من الاستغناء عن العالم أجمع لو توفر له الإنترنت.. ولمعرفة قدرة الفرد على العيش فقط مع الإنترنت تمت تجربة لشاب في مقتبل العمر حيث دخل إلى بيته وحيداً لآخر مرة قبل أن يخرج منه بعد ثمانية أشهر

(١) ألفين توفلر، تحول الثقافات والانعكاسات على الفرد والأسرة، المؤتمر السنوي الخامس لمركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية تحت عنوان: (هكذا يصنع المستقبل عام ٢٠٠٠م).

كاملة! والحكمة في هذه الحادثة أن شركة حاسوب عالمية قررت رعاية التجربة لإثبات أن الإنسان لم يعد اجتماعياً بطبعه، بل له القدرة على العيش منفرداً لمدة ثمانية أشهر، يأكل ويشرب وينام، كذلك يعمل ويتسلى وربما يتزوج عن طريق الحاسوب فقط^(١).

- أهم الكتب المنشورة والمتعلقة بثورة الاتصالات:

إن أول من تحدث عن ثورة الاتصالات هو المارشال «ماك لوهان» حيث صدر له في عام ١٩٧٠م كتاب بعنوان: «حرب وسلام في القرية الكونية»؛ تبعه في نفس العام كتاب بعنوان: «أمريكا والعصر التكتروني» لمستشار الأمن القومي الأمريكي الأسبق «زبجينيو بريجنسكي». ثم صدر للكاتب «ألفين توفلر» كتاب «الموجة الثالثة» في عام ١٩٨٠م، شرح فيه كيف أن الموجة الأولى في العالم قد تمثلت في الثورة الزراعية واستغرقت آلاف السنين لكي تنمو وتزدهر. أما الموجة الثانية فتمثلت في الصناعة واستغرقت ثلاثمائة سنة. أيضاً تظهر الموجة الثالثة متمثلة في التقنية الإلكترونية فلم تستغرق سوى بضعة عقود لكي تقلب حياة الأفراد رأساً على عقب، بل أدخلت بموازين الطاقة والمال والنفوذ، وها هي تظهر بوضوح في الاستقلالية المبالغ فيها للفرد وفي انهيار مفهوم الأسرة في الغرب، كذلك اتضحت ملامحها في تقليص الفجوة بين المنتج والمستهلك، بل في خضوع

(١) ألفين توفلر، تحول الثقافات والانعكاسات على الفرد والأسرة، المرجع السابق.

المنتج لرغبة المستهلك ! وعند تلاشي الحدود بهذه السرعة فإن هذه الموجة - لأول مرة في تاريخ البشرية - تعطي الفرد الحرية المطلقة^(١).

وفي عام ١٩٩٣م تحدث الكاتب «آلان بونيه» عن (الذكاء الاصطناعي، واقعه ومستقبله) متمثلاً في الحواسيب^(٢).

أما الكاتب محمد عارف فتحديث في عام ١٩٩٧م عن (تأثير تقنية الفضاء والحاسوب على أجهزة الإعلام العربية)^(٣). كذلك كتب العالم «جون ماكليش» في عام ١٩٩٩م عن (تسلسل التقنية من الحضارات القديمة حتى عصر الحاسوب)^(٤).

كذلك وفي هذا الصدد لا بد من الإشارة إلى كتاب (المعلوماتية بعد الإنترنت)^(٥)، وكتاب (ثورة الأنفوميديا)^(٦) اللذين أحدثا ضجة كبيرة في ما يتعلق بالثورات الثلاث الضخمة ألا وهي المعلومات والاتصالات والمواصلات.

(١) ألفين توفلر، الموجة الثالثة (نيويورك: ١٩٨٠م)

Alvin Toffler, The Third Wave, William Morrow And Company, INC . New York, 1980.

(٢) آلان بونيه، الذكاء الاصطناعي، واقعه ومستقبله، ترجمة علي صبري فرغلي، عالم المعرفة (١٧٢) ١٩٩٣م.

(٣) محمد عارف، تأثير تقنية الفضاء والحاسوب على أجهزة الإعلام العربية، سلسلة محاضرات الإمارات، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية (١٤)، ١٩٩٧م.

(٤) جون ماكليش، من الحضارات القديمة حتى عصر الحاسوب، عالم المعرفة (٢٥١)، ١٩٩٩م.

(٥) بيل جيتس، المعلوماتية بعد الإنترنت، مرجع سابق.

(٦) فرانك كليش، ثورة الأنفوميديا، مرجع سابق.

وفي أحدث كتاب يتناول أخطار التقنيات الحديثة نشر المفكر الروسي «ميخائيل أبشتين» كتاباً بعنوان: «انفجار المعلومات وزلزال ما بعد الحضارة الحديثة» في إبريل من عام ١٩٩٩م، كما أصدر كتاباً في عام ١٩٩٧م بعنوان: «بعد المستقبل وعشبة ثقافة ما بعد الحضارة الحديثة»، ويتعرض كلا الكتائين إلى الانفجار الهائل لبراكين المعلومات وآثارها على إمكانيات الفرد العقلية، ومحاولة تتبع آفاق انفجار المعلومات في المستقبل بشكل مستقل عن الإنسان^(١).

ويؤكد الدكتور حسين كامل في الفصل الأول من كتابه «الوطنية في عالم بلا هوية وتحديات العولمة»^(٢) بأنه «قد حدثت في نطاق المعلومات وطرق تنظيمها وتبويبها وتوظيفها ثورة لم يسبق لها مثيل من قبل، اللهم إلا في القرن الخامس عشر، سنة ١٤٥٥م، حين اخترع جوتنبرغ آلة الطباعة، واليوم فإن القدرة الهائلة للاسوب وحاسوب والقوة الأساسية المحركة له تشبه ثورة الطباعة، ولكنها مضرورية في آلاف بل في ملايين من المرات. ولأول مرة في تاريخ البشرية يتضاعف حجم المعرفة الإنسانية مرة كل ١٨ شهراً، وهكذا تتضاعف قدرة الحاسوب هي الأخرى مرة كل ١٨ شهراً، ويصغر حجمه إلى النصف مرة كل ١٨ شهراً. وتعد اليوم شريحة في حجم

(١) ميخائيل أبشتين، انفجار المعلومات وزلزال ما بعد الحضارة الحديثة، ترجمة منسى الخميسى (موسكو: ١٩٩٩م).

(٢) حسين كامل بهاء الدين، الوطنية في عالم بلا هوية وتحديات العولمة (القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٠م).

الظفر لكنها تحمل ١٠٠ مليون ترانزيستور وتسمى بالسوبر حاسوب.. وبالتغيير والتطوير الهائل الذي يجري الآن على السوبر حاسوب فيان احتمالات هذه الثورة تبدو لا حدود لها. وفي الطريق إلينا سوبر حاسوب يوازي ١٦ سوبر حاسوب تكلفتها ٣٢٠ مليون دولار.. والسوبر حاسوب الجديد، سوف يقل سعر الشريحة التي تحتوي على مليار ترانزيستور فيه عن مائة دولار. أما الذاكرة الهولوجرافية فهي ذات أبعاد ثلاثة وتخزن المعلومات في طبقات من الكريستال عن طريق تقاطع شعاعين من الليزر في زوايا مختلفة بحيث تختصر ما يوازي عشرة جيغا بايت في حجم ظفر الإصبع».. وتتوالى العجائب التي يعرضها المؤلف في كتابه الجديد، ومن أهمها إنتاج حاسوب تفوق قدرته المعرفية والحسابية قدرة العقل البشري بحوالي ٢٠١٠ مرات.

- البريد الإلكتروني أو الحمام الزاجل:

لم يكن البريد الإلكتروني اختراعاً محددًا ولكنه أخذ مساراً غير متوقع عندما قام العالم «راي توملنسون» في ولاية ماساشوسيتس بكتابة برنامج بسيط يتيح لمستخدميه نقل الرسائل الإلكترونية من حاسوب لآخر، ومنذ ذلك الوقت أصبح البريد الإلكتروني جزءاً لا يتجزأ من حياة الناس، ولم يكن برنامج «توملنسون» الذي مكن من إرسال البريد الإلكتروني من حاسوب لآخر، هو الذي أوجد البريد الإلكتروني، إذ أنه كان موجوداً في الستينيات عندما أرسل علماء الحواسيب رسائل بين أنظمة تحتوي على

حاسوب واحد وعدد من الوحدات التي يمكن الدخول عبرها نحو الحاسوب. لكن «توملنسون» هو الذي تمكن من إرسال البريد الإلكتروني من جهاز لآخر عبر الشبكة. وبينما اشتهر هذا المهندس المبدع ببرنامجه فإنه ازداد شهرة نتيجة لقرار اتخذه وهو يكتب برامجه، إذ احتاج لطريقة للتمييز والفصل بين اسم المستخدم واسم الجهاز الذي يستعمله المستخدم. وتركزت نظرتة على رمز وكان أن اختار الرمز @. ولم يكن يعلم أنه بذلك خلق أيقونة لعالم الإنترنت! كما لم يدرك بأنه يوماً ما ستكون أول رسالة إلكترونية أرسلها موضوع دراسة تاريخية! ووفقاً لشركة «انترناشونال ديتا»، ترسل كل يوم حوالي ٩,٨ مليار رسالة بريد إلكتروني. ويعتبر البريد الإلكتروني محور الاتصالات التجارية والخط الساخن الذي يربط العائلات المغتربة بعضها ببعض.

واليوم أصبح البريد الإلكتروني هو الوسيط الرئيسي الذي يستخدم فيه الإنسان الحواسيب لتنظيم مجموعات النقاش وإرسال الأخبار، وتأكيد المشتريات، وتحديث صفحات المواقع على الإنترنت، أو للعب الشطرنج. وهكذا غير البريد الإلكتروني بشكل حاسم طرق اتصال الناس ببعضهم بأشكال أخرى غير واضحة للعيان. ونتيجة لمزاياه الفريدة فقد استقر البريد الإلكتروني في مرتبة خاصة ضمن أشكال التفاعل الإنساني؛ ولم يكن مخترعو البريد الإلكتروني يفكرون بمزايا هذا الوسيط الجديد غير الواضحة، مثل إزالة عائق فرق الزمن أو كونه وسيطاً يسمح بنقل فرضي للوثائق والصور

وشرائط الفيديو، وهذه المزايا هي التي تدفع استخداماته إلى الأمام. ومقابل هذه المزايا توجد مخاطر جمّة، فما قد تبعثه إلى مجموعة أو نادٍ للحوار قد يظهر في أرشيف الإنترنت بعد سنوات؛ أو قد ترسل نقرة على الزر الخاطيء للرسالة قبل أو بعد أن يتم إرسالها أو ترسلها إلى العنوان الخاطيء؛ وقد يفتح المستخدم رسالة مفخخة، ويصبح ضحية أو ناقلاً من دون دراية لفيروس حاسوب صممه مبرمج سيء.

ومنذ بدايته كان البريد الإلكتروني ستاراً يخبئ الإنسان خلفه، لأن المرسل إليه لا يستطيع أن يعرف من لغة جسد المرسل مشاعره التي يعبر عنها بالحركات، أو إدراك الشخص المتسلم للرسالة أن الكلام مزاحاً أو جاداً! ومن الواضح أن تقنياته مثل كل التقنيات التي سبقته لم تحل محل أسلوب مماثل آخر، بل إنها خلقت وولدت بنفسها متطلبات أعلى لتطويره. ومنذ البداية عرف الناس الذين استخدموا البريد الإلكتروني كيف يوظفونه بهدف الإزعاج، وشملت أولى قوائم عناوين البريد الإلكتروني أسماء عشاق الخيال العلمي؛ كما أخذ مستخدمو الشبكة بالاعتماد على البريد لممارسة الألعاب والنكت ولتبادل الأخبار وللإتصال البديء دون أن يكون لأحد السطوة لإيقاف ذلك.

وعلى الرغم من الجهود المنسقة للتغلب على مشكلة الرسائل غير المرغوب بها، فإنها ستزداد سوءاً قبل ظهور حل لها. ويقول معهد «جوبيتر» للأبحاث بأن مستخدم الإنترنت العادي في الولايات المتحدة سيتلقى هذا

العام أكثر من ٢٢٠٠ رسالة غير مرغوب بها في بريده الإلكتروني. وسيزداد الرقم إلى ٣٦٠٠ رسالة بحلول عام ٢٠٠٧م.. إن القوائم السوداء في صناديق البريد الإلكتروني لا تمنع سوى عشرة في المائة من البريد غير المرغوب فيه، وهي في الأغلب تتخلص من بريد عادي أيضاً.

- صورٌ من عالم الاتصالات في عام ٢٠٣٢ :

مع التغير المتلاحق في تقنية الاتصالات والمعلومات يصعب الحديث عن «يقين ما»، غير أن ذلك لا ينفي الاجتهاد في التنبؤ. وقد عمّت دراسة ضخمة أعدها المعهد القومي للاتصالات في مصر وذلك لرسم صور لعالم الاتصالات بعد ٣٠ عاماً من الآن باستخدام مؤشرات لاتجاهات التطور المستقبلي مثل زيادة حرية الحركة في الاتصالات والاستخدام المتزايد للإنترنت وغيرها. وتؤكد دراسة المعهد بأنه سيكون من السهل مستقبلاً أن يقوم الهاتف بتحويل أي لغة للمتحدث إلى اللغة التي تناسب المستخدم! كذلك سيظهر الحاسوب والهاتف الجوال الذي يقبل التعامل بلغة «الحديث الصوتي» بدلاً من لغة الأرقام! ولن يتحتم على المستخدم ذكر الأرقام الهاتفية، لأنه وقتها لن يكون هناك وسيط مطلقاً بين الإنسان والآلة سوى الصوت البشري. وفي عام ٢٠٠٨م سوف يصل عدد الهواتف الجوالية في العالم إلى أكثر من ملياري هاتف في يد ملياري شخص؛ الأمر الذي سيغير من اقتصاديات استخدام الشبكات في حركة المكالمات الهاتفية لتصبح

مكالمات الجوال أرخص من المكالمات خلال الشبكة الثابتة. ورغم ذلك فإن الشبكات الثابتة سوف تستمر في الزيادة حيث إنها البنية التحتية الأساسية لاتصالات الإنترنت. وإذا كانت تتم ٩٠% من حجم الحركة الهاتفية في الوقت الحاضر من خلال الشبكات الثابتة، فإن ربط الإنترنت بالجوال وظهور «الإنترنت المتحرك» سوف يعتمد بالأساس على ظهور تقنية عالية السرعة، مما يؤدي إلى ظهور أجهزة للمستخدم سهلة الاستخدام وظهور تطبيقات رخيصة الثمن.

أما النفاذ اللاسلكي إلى الاتصالات العالمية فسي تجاوز النفاذ الثابت في أوائل القرن الواحد والعشرين حيث ستسمح أنظمة الجيل الثالث للمستخدمين فعلاً بإقامة وتسلم نداءات صوتية في أي مكان في العالم، والإطلاع على المعلومات عبر شبكة الإنترنت وإنزالها، وتسلم معلومات محددة سلفاً، وحضور نشرات الأخبار التي تتضمن الصور المتحركة، بل والبرامج التي تذاق في الوقت الفعلي، والإطلاع على البريد الإلكتروني والفيديو والسمعي والرد عليه. بل أكثر من ذلك فسوف يمكن النفاذ إلى أي معلومات مخزنة في أجهزة الحاسوب الشخصية سواء في المكتب أو المنزل، كما سيجمع الجوال الجديد في عام ٢٠٣٢ التلفاز والهاتف والجريدة والمكتبة وبطاقة الائتمان والبطاقة الشخصية وقسيمة الزواج بل وحتى جواز السفر.

- الحواسيب وشبكات الإنترنت.. نعمة أم نقمة؟

لقد قفز الذكاء الاصطناعي قفزة عظيمة عندما قام الخبراء بتجهيز نوع من الحواسيب له القدرة على التفكير، ترى ماذا سوف يكون تأثير ظهور كيان غير بشري يتمتع بذكاء يساوي أو ربما يفوق الذكاء البشري بالآلاف المرات؟ لا يمكن تصور النتائج التي سوف تظهر جراء ذلك، إلا أن التأثيرات الواردة على العلوم والاقتصاد وصناعة الحروب ستكون دون أدنى شك هائلة جداً وتوجد حالياً حواسيب تستطيع برجمة ذاتها، بمعنى تحويل كل ما يقدم إليها بلغة اعتيادية إلى تعليمات ثنائية تعالج الحقائق والأفكار وتقوم بالاستدلال والاستنتاج ثم الإجابة عن الأسئلة الموجهة إليها! فهل تصبح الموهبة الخلاقة ملكاً للآلات دون البشر؟ إن قشرة المخ التي تعتبر مركز الذكاء لدى الإنسان عبارة عن شبكة متداخلة من الخلايا العصبية التي تحتوي على دوائر تغذية مرتدة لضبط الأداء مثل الدوائر الإلكترونية^(١).

وفي يونيو من عام ٢٠٠٠م صمم علماء من معهد ماساتشوستس للتقنية ومعامل «بل» في نيو جيرسي ومعهد أبحاث الأعصاب في زوريخ دائرة إلكترونية تعمل بصورة مشابهة للنظام العصبي للمخ البشري. وتتألف الدائرة من خلايا عصبية صناعية تتواصل وتتلاقى من خلال تداخلات في إطار نظام يمكن أن يؤدي إلى تطوير أجهزة الحاسب التي تستطيع أداء مهام

(١) انظر: بيل جيتس، المعلوماتية بعد الإنترنت، مرجع سابق؛ فرانك كليش، ثورة الأنفوميديا، مرجع سابق.

ذهنية مثل الإدراك البصري، بل يمكنها محاكاة عمليات العقل البشري، وربما تستخدم يوماً ما في صناعة أجهزة حاسوب تتعامل مع المعلومات مثل البشر. إذن ماذا يبقى من دور للإنسان؟ من هنا لا بد من تعديل النظرة الخاصة بدور الثورة العلمية، فهي ليست ثورة الحواسيب والأقمار الصناعية، بل هي ثورة الإنسان الباحث المخترع والمبدع الذي يجب أن يتمسك بدوره الريادي في إسعاد البشرية.

لقد بلغ الاعتماد على الحاسوب وفي وقت قصير جداً مبلغاً يحول دون الاستغناء عنه في مجالات حساسة تدخل في صميم مصالح البشر. انظر مثلاً كم من المرافق الحيوية التي تعتمد على الحاسوب اعتماداً كاملاً، البنوك والمصارف وشركات التأمين والطيران وكل سبل الاتصال والمواصلات بشكل عام.. إلا أن هذا الاعتماد المتعاظم يؤدي، من وجه آخر، إلى كثير من البطء في حركة وسرعة الشبكة، وفي ذات الوقت لا توجد الخبرة الكافية لدرء ما ينجم عنها من كوارث بالسرعة المطلوبة، وها قد أصبحت هذه مشكلة عالمية. وفي وقت قريب قد يلغي البريد الإلكتروني البريد العادي، كذلك قد يختفي الفاكس والهاتف والقلم والورق، بل قد يختفي الكتاب أيضاً نظراً لأن عدد المشتركين في شبكة الإنترنت يزداد يوماً بعد يوم، هذا بالإضافة إلى مقاهي الإنترنت التي تزدهم بالرواد من كل حدب وصوب. إن التقدم الذي حققه الإنترنت والوسائط الاتصالية جعل لنا القدرة على التفتيش عن أصغر الجزئيات وأضخمها في نفس الوقت، وقد أصابنا ذلك بتحديات غير مسبوقة باتت تهدد كل المجتمعات دون استثناء.

إن هذا كله مفرح ولكنه خطير جداً، والخطر المائل في هذا الصدد يتجلى فيما يظهر من خلل في الحواسيب نتيجة قصر النظر في تصميم الجهاز من البداية، مما قد يسبب تعطل المصالح في أعداد مهمة من المرافق الحيوية في العالم (!) هكذا أنتجت الحضارة أجهزة التجدد الدائم التي تكفل تقدمنا وتسبب دمارنا في نفس الوقت^(١).

وفي مايو ١٩٩٩م تجمع أكثر من عشرة آلاف من أصحاب الشركات المصنعة للحواسيب والخبراء والزائرين في أكبر مؤتمر من نوعه في العالم في مدينة شيكاغو الأمريكية بهدف مناقشة سبل تأمين الشبكات الإلكترونية، وذلك باستغلال استخدامات البطاقات الذكية القادرة على التعرف على الناس وتمييز الأفراد بقراءة البصمات وتمييز ملامح الوجه والتعرف على نبرات الصوت، فقد يؤهلها كل ذلك لتأمين الشبكات الإلكترونية، بالذات شبكات الإنترنت، على أمل أن يساعد ذلك في مواجهة تلك الأخطار المحدقة بمستقبلها^(٢).

وفي قسم البحوث في شركة «بيل جتس» يوجد حوالي خمسمائة عالم نفس وعالم رياضيات، يجرون بحثاً ستغير علاقة الناس بالحواسيب، إذ بدلاً من توفير خدمات أساسية عند الطلب ستستطيع الأجهزة أن تتخذ قرارات ذكية حول حاجات المستخدمين ليكونوا أكثر إنتاجية. وإحدى خطط

(١) انظر: بيل جيتس، المعلوماتية بعد الإنترنت، مرجع سابق؛ فرانك كليش، ثورة الأنفوميديا، مرجع سابق.

(٢) لورا تايسون، من يستحق من؟ الصراع التجاري في صناعات التقنية العالمية، ترجمة عبد الحميد محبوب (القاهرة: الدار الدولية للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م).

السنوات العشر المقبلة في بحوث تطوير البرامج هي أن إنتاج أجهزة مثل الهواتف النقالة والمساعدات الشخصية الرقمية والحواسيب الموصولة بعضها ببعض تعتمد على شتى أشكال الذكاء الاصطناعي والإدراك الحسي. وفي هذا الوضع قد يتم تحليل رسالة يستلمها مستخدم ما لتقدير أهميتها وفقاً لعوامل مثل المرسل وموضوعها ومعرفة الجهاز ببرنامجه المستخدم، وبناء على هذا يقرر الجهاز إن كانت الرسالة ذات أهمية ليحولها لهاتف المستخدم النقال.

هل ينساق الفرد وراء التقنيات الحديثة مهما كانت أضرارها؟

الجواب - للأسف - نعم! والمثال الحي المطروح أمامنا اليوم هو الهاتف النقال.

- التأثيرات السلبية للهاتف النقال:

تنوع التأثيرات الضارة الناتجة عن كثرة استخدام الهاتف النقال. وعلى سبيل المثال نشرت الصحف البريطانية بتاريخ ٢٤ / ٥ / ٢٠١١ تحذيراً وقائياً من الهواتف النقالة والأجهزة التي تحمل على حزام البطن، نظراً لثبوت تورطها في سرطان البروستاتا وأمراض الكليتين والأعضاء التناسلية، وذلك بسبب الإشعاعات المنبعثة منها. وهناك اعتقاد بأنها تدخل بصورة ما في عمل المخ على وجه الدقة وتؤثر بشكل أو بآخر في الجهاز العصبي للإنسان، وربما تكون سبباً من أسباب الاكتئاب الذي يعاني منه كثيرون من سكان المدن. كما تشير الأبحاث المتطورة إلى أن الهاتف المحمول يسبب التوتر المستمر للجهاز العصبي وذلك بتسريع زمن استجابة المخ. وتزايد مخاوف

المستهلكين من إمكانية أن يؤدي استخدام الهاتف المحمول لفترات طويلة إلى مشكلات صحية تتراوح بين الإصابة بالصداع إلى الأورام السرطانية. وقد حذر الطبيب «ألان بريس» رئيس قسم الفيزياء الحيوية في مركز بريستول للأورام في بريطانيا من خلال مؤتمر عقد في لندن في أكتوبر ٢٠٠١م بشأن الأخطار الصحية على المخ نتيجة استخدام الهاتف المحمول. وهذا الطبيب هو من بين مجموعة كبيرة من العلماء الذين يتزايد اقتناعهم بأن الإشعاع الناجم عن الهواتف المحمولة يحدث عمليات كيميائية ضارة بالجسم البشري ككل . وقد نشرت ست دراسات منفصلة حتى الآن تؤكد أن سرعة الاستجابة العصبية تزداد عندما يتعرض الناس إلى ترددات أشعة الهواتف المحمولة. وفي نهاية القرن المنصرم واجهت شركات الهواتف المحمولة في أمريكا دعاوى كثيرة رفعها ضدهم مرضى سرطان الدماغ؛ ويعتقد المرضى أن الهاتف المحمول هو السبب المباشر في ظهور الورم الدماغي وبأن شركات الهواتف كانت على علم بهذه المخاطر. وقد يظن بعضهم أن الأدلة الطيبة غير واضحة تماماً، وبالرغم من ذلك فقد وجهت الحكومة البريطانية نصائح لمستخدمي الهواتف المحمولة تحثهم فيها على عدم إطالة الحديث أكثر من خمس دقائق بل عدم استخدام الهاتف إلا في حالات الضرورة القصوى^(١).

(١) زيدان هندي، هموم الإنسان والبيئة، المبيدات والديوكسونات، الدخان الأسود والتلفون المحمول (القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م)؛ وسام أحمد العثمان، العوامل المسببة لمرض السرطان، مجلة الإنسانيات، (٣) جامعة الإسكندرية، ١٩٩٩م.

- دراسة روسية - ألمانية حول مخاطر الهاتف الجوال:

بينت دراسة مشتركة بين علماء معهد أبحاث الجملة العصبية في موسكو مع خبراء الشركة الألمانية للاتصالات «AG Deutsche Telecom»، نشرت في مايو ٢٠٠٢م، تأثير الإشعاع الكهرومغناطيسي الوارد من الهاتف الجوال على الجهاز العصبي؛ إذ أشارت الدراسة إلى أن ترك الجهاز مفتوحاً في فترة الليل يؤثر بشكل مباشر على النوم ويشوشه في كافة مراحلها، سواء أكانت في طور رؤية الطيف أو في طور النوم العميق؛ ولذلك أوصت الدراسة بوضع الهاتف بعيداً أثناء النوم. كما ثبت أن استخدام الهاتف لمدة ١٥ دقيقة في اليوم يؤدي إلى حفز بعض العمليات في الدماغ، التي لم تعرف خطورتها لغاية الوقت الحاضر.

وقد لوحظ في الأساس التأثير السلبي لموجات الهاتف الجوال الكهرومغناطيسية وخطورتها على صحة الأطفال والأحداث، لكونهم في مرحلة النمو البدني التي تستمر لغاية عمر ٢١ سنة، وهي المرحلة التي تتميز بحدوث تغيرات مستمرة في عمليات الجسم العضوية وتأثير الإشعاع على الجهاز العصبي والمناعة والغدد الصماء والجهاز القلبي الوعائي.

وقد كشفت دراسة علمية مصرية، في نوفمبر ٢٠٠٣م، عن أن الموجات الكهرومغناطيسية لأجهزة الهاتف الجوال ومحطات وأبراج التقوية الخاصة بها، تحدث خللاً وظيفياً في المخ يقود إلى حدوث اضطراب في النوم وإلى القلق والتوتر.. ويحمل الباحثون الهواتف الجوال المسؤولة عن إصابة المستهلكين بحالات مرضية تتراوح بين الصداع وفقدان الشهية والأرق إلى الجلطات

القلبية والسكتات الدماغية. والعجيب أن هذه الأبحاث لا تؤثر سلباً على سوق الهواتف الجواله وإنما تدفعها باتجاه المزيد من التقنيات التي تخلصها من الإشعاعات.

وذكرت دراسة، أجراها حديثاً (٢٠٠٥م) مجلس بحوث العلوم الأساسية بأكاديمية البحث العلمي والتقنية بمصر، أن التعرض للموجات المغناطيسية التي تستخدم في البث الإذاعي وفي عمليات الاتصال عن طريق الهاتف الجوال يؤدي إلى أضرار واضحة في جدران الخلايا، خاصة كريات الدم. وأضافت الدراسة أن التعرض لهذه الموجات يؤدي أيضاً إلى حدوث خلل في أنزيمات الدم، كما أنها تتسبب في الإصابة بسرطان الثدي عند النساء، كما تؤدي إلى إصابة الجنين في بطن أمه بسرطان الدم والغدد الليمفاوية، كما تؤدي أيضاً إلى وقف نشاط الغدد ومنها الغدد المسؤولة عن إفراز اللبن عند الأم. وأرجعت الدراسة سبب الإصابة بالأمراض إلى أن تعرض الفيروسات المسببة للمرض للموجات الكهرومغناطيسية المحمولة أو المتداخلة يؤثر على نشاطها، أي له أثر فعال على نشاط الفيروس، حيث إن لكل فيروس تردداً رنينياً ينشط عنده.

— تأكيدات أوروبية بأن الهاتف الجوال يغير خلايا الجسم:

أظهرت دراسات أجريت في اثني عشر معهداً أوروبياً، نشرت في نهاية ديسمبر ٢٠٠٤م، بأن استخدام الهواتف الجواله يغير فعلاً من تركيب ووظائف خلايا الجسم، لكن الدراسات، التي مولها الاتحاد الأوروبي، لم تثبت أن هذه التغيرات في الخلايا تؤدي صحة الإنسان بالرغم من سرعة

انقسام الخلايا الذي قد يؤدي إلى أورام! وقد أكد العلماء الذين أجروا هذه الدراسات بأن الأمر يحتاج إلى مزيد من الأبحاث لتقدير التأثير الفعلي للهواتف الجواله على صحة الإنسان وعلى حمضه النووي المتأثر؛ لأنه قد يصلح الضرر الذي يلحق به. وفي يونيو ٢٠٠١م نشرت الهيئة الدولية لبحوث السرطان بأن الهواتف النقالة قد تسبب السرطان. كما ذكر المجلس البريطاني للوقاية من الإشعاعات «الراديوية»، من موقع هيئة الإذاعة البريطانية، بأنه ينبغي على الناس أن يخشوا نتائج هذه الدراسة لأنها سوف تظهر التغيرات البيولوجية التي تؤدي إلى الضرر في الجسم مثل رفع درجة حرارة المخ والشعور بالغثيان والصداع. من هنا أوصى التقرير بإجراءات وقائية، إذ حذر من استخدام الأطفال لهذه الأجهزة، إلا في الحالات الضرورية. أما صناعات الهواتف الجواله فظللت على تأكيدها بأنه لا يوجد ضرر من الجوال ومن إشعاعاته الإلكترونية مغناطيسية!!

- مخاطر أخرى للهاتف الجوال، وما خفي أعظم:

تأتي السيارات والشاحنات هذه الأيام بمجهزة بشئ الأجهزة التي يمكنها بسهولة أن تلهي السائق، ويعدنا المستقبل بالمزيد من هذه الأجهزة! ويمكن لشئ أشكال التشويش أن تتدخل بعملية القيادة السليمة. وقد بينت دراسة قام بها مركز سلامة الطرق في جامعة «نورث كارولينا»، برعاية هيئة السيارات الأميركية، أن أشكال التشويش خارج السيارة مثل التحديق على الحوادث، أو السائقين الآخرين أو المشاة أو الحيوانات أو الأشغال العامة،

تظل المسببات الرئيسية لحوادث السيارات؛ وتأتي بعدها عملية تشغيل الراديو أو المسجل أو التحادث مع الركاب. ويعتقد الباحثون بأنه قد تم تقليل دور الهاتف الجوال في الحوادث، لأن الدعاية حول خطورة استخدام الهاتف الجوال أثناء القيادة قد أدت إلى عدم اعتراف السائقين باستخدامهم للهاتف عند وقوع الحادث.. ولانعدام معطيات عن عدد الحوادث الناتجة عن استخدام الهاتف الجوال، بعكس عدد الحوادث الناتجة عن تشغيل الراديو مثلاً، يبدو أنه من المستحيل أن نقيس هذا الخطر بشكل دقيق. وقد قامت الشرطة في اليابان بتسجيل عدد كبير من الحوادث الناتجة عن استخدام الهاتف الجوال، وانخفضت الحوادث الناتجة عن استخدام الجوال بنسبة ٧٥% في عام ١٩٩٩م بعد أن حظرت اليابان استخدام الهاتف الجوال أثناء القيادة. وفي ولاية نيويورك سرى مفعول حظر شبيه في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) عام ٢٠٠١م، وبعد ذلك صدر الحظر في العديد من دول العالم لكن السائقين ما زالوا يتجاهلون هذا القانون.

والجدير بالذكر أن الهاتف النقال قد أمكن تحويله إلى سلاح خفي يستخدم في عمليات القتل غير المنظور! وقد تم اكتشاف أول الهواتف النقالة القاتلة على أيدي الشرطة الهولندية في أكتوبر من عام ٢٠٠٠م حيث يمكن تحميل الهاتف النقال بأربع رصاصات، ويكفي لاشتغاله مجرد الضغط على أحد الأرقام الموجودة عليه، هذا بالإضافة إلى إمكانية تلغيمه بسهولة واستخدامه في عمليات الاغتيال.

- نمو سريع للهواتف الجوال بالرغم مما يسببه من مشاكل للصحة!
وبالرغم من معرفة الكثير عن التأثيرات السلبية لجميع أنواع المجالات
المغناطيسية والموجات الكهرومغناطيسية على صحة الإنسان، إلا أن معظم
الدراسات والإحصاءات الحديثة تشير إلى أنه كلما ظهرت تقنية جديدة فإنها
تنتشر بسرعة فائقة بغض النظر عن مضارها | وهكذا كان الأمر مع الهواتف
الجوال الذي يقتنيه اليوم أكثر من ٧٥% من سكان أميركا، وسيدخل قريباً
نحو أكثر من ٩٠% من المنازل الأمريكية. ويمكن للشخص الحامل لهاتفه
الجوال أينما ذهب أن يستلم ويجري المكالمات.. وقد نما استخدام الهواتف
الجوال في العالم نمواً لم يتوقعه أحد خلال السنوات العشر الأخيرة، وقد شهد
العالم تحول معظم الناس من استخدام الهواتف الثابتة والاتجاه إلى الجوال بدلاً
منها؛ وفي الوقت نفسه نما استخدام الهواتف الجوال للتراسل بصورة مذهلة،
ففي عام ٢٠٠٣م بلغ عدد الرسائل نحو مليار رسالة في اليوم الواحد، وهو
نمو ضخيم لو عرفنا أن هذه الرسائل لا يمكن أن تتجاوز في أقصى حالاتها
١٦٠ حرفاً فقط من دون إضافة صور. وقد ظهرت إمكانيات جديدة
لإنشاء الرسائل بما في ذلك إمكانية إضافة الصوت والصورة إلى النصوص،
أو ما يسمى بخدمة الرسائل القصيرة بالوسائط المتعددة التي تعرف بالأحرف
MMS وهي اختصار للكلمات (Multimedia Messaging Service).
وفي استطلاع للرأي أجري لحساب صحيفة «لو باريزيان» اليومية
الفرنسية ومحطة التلفزة الخامسة لمعرفة أهم إنجازات القرن العشرين، اختار

٦٣% ممن شملهم الاستطلاع التلفاز، ثم الحاسوب بنسبة ٤٦% ثم الهاتف النقال بنسبة ٣٣%، ثم الراديو المصغر بنسبة ٣١%، ثم قدر الضغط بنسبة ٢١%، ثم الفرن الكهربائي بنسبة ١٠%. هكذا تسيطر تقنيات الإعلام والاتصال على العالم اليوم. وعلى سبيل المثال فقد حققت مبيعات أجهزة الحواسيب الشخصية ثلاثة مليارات دولار في سنة ١٩٩٨م، كما حققت أجهزة الهاتف النقال مثلها من الأرباح.

- التلوث بالحقول الكهرومغناطيسية:

في حضارتنا الحديثة أصبح جسد الفرد كقطعة المخلل المنقوعة في حقول متنوعة من الموجات الكهرومغناطيسية، هذا لأنه أصبح محاطاً بالمجالات الإشعاعية المتنوعة المنبعثة من وسائل التقنيات الحديثة كالتلفاز وأجهزة تشغيل أشرطة الفيديو والراديو والجوال والحاسوب وأجهزة التحكم عن بعد (الريموت كنترول). وبلا أدنى شك فإن جميع هذه الأجهزة تطلق شكلاً من أشكال الطاقة السامة، حيث يتضمن المجال الكهرومغناطيسي موجات قصيرة ذات طاقة عالية لها تأثيرات بيولوجية سلبية على المدى البعيد. يضاف إلى ذلك أشعة «إكس» الطبية، التي تعمل على طرد الإلكترونات من مدارها حول نواة الذرة في الخلية لتخلق أيونات غير طبيعية. إن الأخطار التي يتعرض لها الفرد نتيجة الجرعات العالية من الإشعاعات الأيونية معروفة بالقدرة على إزالة أو تغيير الحمض النووي لنواة الخلية مما يشجع على تدمير جهاز المناعة وتنمية الخلايا السرطانية. ولا يوجد ما يسمى بالجرعة الآمنة من الإشعاع الأيوني، فكل جزء يضاف هو جزء

من المجموع الكلي الذي يتجمع أثناء حياة الفرد وبالتالي يدمر تدريجياً نواة الخلية! وقد يحدث ذلك عند العيش بالقرب من محطات البث أو مواقع دفن النفايات الطبية أو المختبرية أو النووية، أو مناجم اليورانيوم أو صيانة المفاعلات النووية وغير ذلك الكثير مما لا يستطيع الفرد الفرار منه^(١).

ومما لا شك فيه أن لجميع أنواع الحقول الكهرومغناطيسية تأثيرات ضارة جداً على مسارات الطاقة في الجسد البشري، بل وفي أجساد جميع الكائنات.. ومن التجارب البسيطة التي يمكن للفرد إجراؤها في هذا المجال هي القيام بغلي بعض الماء في الميكروويف ثم مداومة سقي نباتات الزينة منه فتذبل هذه النباتات وتموت بعد فترة قصيرة من الزمن. وها هو الغطاء الأخضر النباتي للكرة الأرضية قد بدأ فعلاً بالتأثر بهذه المجالات وظهرت عليه علامات التقلص والذبول، أما الأمراض البشرية والحيوانية فليس لها حدود وفي كل يوم يظهر منها الجديد مما يحير الطب والأطباء.

إن الطرق السريعة للمعلومات الإلكترونية أصبحت تسير أغوار العالم، ولو أحصينا بلايين الخطوط من الأشعة والذبذبات التي تجوب العالم بحثاً عن الهواتف والجوالات والبلييات والفاكسات وغيرها من بلايين الإشارات، لوجدنا أن العالم أجمع محاط ومغلف ببلايين الشفرات والرسائل والأشعة وخطوط الاتصال التي لا تترك للفرد متنفساً^(٢).

(١) انظر: بيل جيتس، المعلوماتية بعد الإنترنت، مرجع سابق؛ فرانك كليش، ثورة الأنفوميديا، مرجع سابق.

(٢) ميخائيل أبشتين، مرجع سابق.

كذلك فقد دخلت هذه المنجزات في أحشائنا، فمطبخ اليوم يحفل بالأدوات الكهربائية كالسخان وغلاية الماء وفرامة الخضار والخلاط والعجان والميكروويف وغيرها كثير مما ملأ أعديتنا ومشاربنا وملابسنا بشحنات كهربائية ومغناطيسية متنوعة لا يعلم ضررها إلا الله عز وجل. بل يوجد اليوم الكثير من الأجهزة والمعدات الطبية التي تعمل بالحواسيب إضافة إلى تقنية الجراحات نفسها، وفي المستقبل القريب سوف يتم التعامل مع الإصابات عن بعد، من خلال تقنيات الجراحة عن بعد وعن طريق شاشات تليفزيونية. وعلى سبيل المثال فإن المفردات الجراحية التي يستعملها الطبيب الجراح ستكون: السرير الإلكتروني الذي يسجل جميع علامات الحياة للمصاب، ويسجل الضغط والنبض ودرجة الحرارة والتنفس وإشارات المخ وتخطيط القلب، وذلك بمجرد وضع المريض عليه، هذا السرير الإلكتروني يتم إنتاجه بالفعل حالياً، وهو مزود بجهاز طبي آخر يستطيع أخذ أشعة متقطعة لكل أعضاء الجسم خلال دقائق، ولا يعطي فقط الوضع التشريحي ولكن الوضع الوظيفي أيضاً. كما توجد شريحة حاسوب دقيقة يمكن برمجتها للعمل مكان أي خلايا تالفة بالمخ، وهي تستطيع التفاهم مع باقي خلايا المخ للقيام بوظائف الخلايا التالفة. وأثناء إجراء الجراحات يمكن للأطباء في أماكن أخرى مشاهدة صورة حية على وجه الدقة لحالة المريض تنقل إلكترونياً إلى كل المراكز المشتركة في هذا النظام.

- الكهرباء.. تقود إلى الانتحار:

الكهرباء كأهم أساليب الاتصالات.. ما علاقتها بالانتحار؟

رصد علماء أميركيون ارتفاع معدلات الانتحار بين العاملين في مجال مرافق الكهرباء، وبحثوا إمكانية وجود علاقة بين الانتحار والموجات الكهرومغناطيسية وتأثيرها المحتمل على مادة الميلاطونين في كيمياء المخ. ويعتقد الدكتور «ديفيد سافيتز» من جامعة نورث كارولاينا بأن المجالات الكهرومغناطيسية قد تقلص مستويات الميلاطونين في المخ وأن ذلك قد يسبب حالات اكتئاب وانتحار. والمعروف أن مادة الميلاطونين تلعب دوراً مهماً في عدد من وظائف جسم الإنسان ومنها النوم والجوع والرغبة الجنسية والمزاج. وقارن الباحثون في تقرير نشر في مجلة الطب المهني والبيئي معدلات التعرض للمجالات الكهرومغناطيسية ومعدلات الانتحار بين ٥ آلاف عامل في مجال المرافق الكهربائية وعدد متساو من خارج هذا المجال. وكان عدد حالات الانتحار بين من يتعرضون لمجالات كهرومغناطيسية ضعف عدد الحالات في المجموعة الأخرى. كما أكد الفريق العلمي في التقرير بأن نتائج هذه الدراسة توفر أدلة تربط بين التعرض المستمر لترددات منخفضة للمجال الكهرومغناطيسي والانتحار خاصة بين الشباب.

وفي مايو ٢٠٠٢م أعلنت اليابان، التي اشتهر مواطنوها بحب العمل، أن عدد الموتى بسبب إرهاب أنفسهم في العمل ارتفع بنسبة ٦٨% ليقفز إلى رقم قياسي بلغ ١٤٣ حالة خلال عام. كما أظهرت دراسة لوزارة الصحة اليابانية بتزايد عدد حالات الوفاة ذات الصلة بالإجهاد والاضطراب

والاكتئاب الذي تسببه الإشعاعات الكهرومغناطيسية، وهي مشكلة معروفة باسم «كاروشي»؛ وقد حذر مسؤول من وزارة الصحة من استمرارية تزايد أعداد حالات الكاروشي؛ لأنه من المتوقع أن تزداد الإشعاعات الكهرومغناطيسية.^(١)

السكن قرب خطوط الشبكات الكهربائية يزيد احتمالات الإصابة بالسرطان:

حذرت دراسة علمية مصرية نشرت في أبريل ٢٠٠٥م، في مجلة العلوم الصحية، من خطورة المجالات الكهرومغناطيسية لأبراج البث الإذاعي والتلفزيوني وخطوط القوى الكهربائية وأبراج الضغط العالي داخل بعض المنازل والمدارس والمستشفيات القريبة من هذه المصادر، وفي بعض المصانع التي تستخدم التيار الكهربائي الكبير. وقد كشفت الدراسة وجود مستويات عالية من شدة المجال الكهربائي داخل المنازل المبنية تحت أو قرب الضغط العالي حتى مسافة ٢٠ متراً.

كما كشفت الدراسة عن وجود إصابات مرضية مرتفعة في هذه المناطق، مثل زيادة الإصابة بالحساسية، وارتفاع ضغط الدم، والصداع المزمن، وأمراض الجهاز الهضمي، والتهاب المفاصل، وذلك بالمقارنة بالمجموعات الضابطة غير المعرضة لهذه المجالات الناتجة عن خطوط الضغط العالي.

وفي حين أكدت دراسة بريطانية في عام ٢٠٠٢م أنه لا توجد دلائل على مخاطر الشبكات الكهربائية على الصحة إلا أن دراسة أخرى، نشرت

(١) مكتب العمل الدولي في جنيف، حماية العاملين من الحقول الكهربائية والمغناطيسية لتردد الطاقة، ترجمة ونشر: المعهد العربي للصحة والسلامة المهنية (دمشق: ٢٠٠٠م).

عام ٢٠٠٣م، هيئة الخدمات الصحية في كاليفورنيا (أنفق عليها أربع وخمسون مليون جنيه إسترليني) حذرت من أن آلاف السكان المقيمين في منازل قريبة من خطوط الشبكات الكهربائية معرضون لمستويات خطيرة من شدة المجال الكهرومغناطيسي التي تتولد عنها. وتعتبر هذه الدراسة الأشمل والأوسع من نوعها حول تأثيرات الموجات الكهرومغناطيسية على صحة الإنسان. وزادت نتائجها من مخاوف خبراء الصحة العامة في بريطانيا..

ويزيد هذا البحث الضغوط على الحكومة البريطانية لمنع إنشاء المنازل على مسافة تقل عن ١٥٠ ياردة (حوالي ١٣٥ متراً) عن خطوط الجهد الكهربائي العالي. كما يفترض البحث أن الموجات الكهرومغناطيسية، الصادرة من أجهزة تجفيف الشعر ومكائن الخلاقة الكهربائية وغيرها، قد يكون لها دور في ظهور سرطان الدماغ وأمراض تدهور عضلات الحركة كمرض «باركنسون». وفي مشروع لدراسة «لوكيميا» الأطفال شمل جميع حالات «اللوكيميا» المسجلة في دولة التشيك، وجد أن حالات الإصابة بالمرض القاتل ازدادت لدى الأطفال بين أعمار السنة إلى الأربع سنوات بنسبة ٥٠% في السنوات ١٩٩٠ إلى ١٩٩٨م، وهي الفترة التي انتقلت فيها التشيك من الشيوعية إلى الرأسمالية، وأصبحت تميل إلى نمط الحياة الغربي الذي يعتمد على التقنيات بصورة أساسية. ومن الملاحظ أن أمراض السرطان نادرة الوجود بين من يعيشون دون كهرباء؛ فهل الكهرباء نعمة أم نقمة هذا الزمان؟

- مضار التقنيات المرتبطة بالضجيج الصوتي والضوضاء:

لقد تعددت، في العصر الراهن، المؤثرات الصوتية وتنوع الضجيج ما بين محركات السيارات وأزيز الطائرات، بالإضافة للأصوات الصادرة من التلفاز والإذاعة والكاسيت والأجهزة المنزلية وغير ذلك كثير. والملاحظ أنه تبعاً لذلك ارتفعت نبرات الأصوات البشرية، وصار الجميع يشكو من الصراخ والضوضاء. وهما مصدران للتلوث الفيزيائي الذي لا يضر براحة الفرد فقط بل ينشر الكثير من الذبذبات المشوشة للسمع، وللجهاز العصبي بصورة خاصة، وما يترتب على ذلك من تأثيرات فسيولوجية سلبية على الجسم؛ حيث يؤدي الضجيج إلى نقص النشاط الحيوي وإلى الإثارة والتوتر والارتباك. كما تصل الضوضاء عبر الألياف العصبية إلى الخلايا العصبية المركزية في المخ فتتهيجها، مما يؤدي لأضرار نفسية وصحية قد تؤدي إلى القلق المزمن والتوتر النفسي والاكتئاب وربما الإرهاق المزمن أيضاً. ولا شك في أن التأثير السلبي على حيوية الجهاز العصبي هو السبب المباشر لارتفاع ضغط الدم وبعض الأمراض الأخرى ، كما أن الضجيج والضوضاء يؤديان إلى تدني القدرة على الاستيعاب لدى الطلاب.. ويصيب الضجيج كثيرين من سكان المدن بالإرهاق، إلا أن أغلبهم لا يرجعون ذلك إلى تعرضهم إلى الضوضاء ويبحثون عن أسباب أخرى.

ولاشك في أن التلوث بالضوضاء والتلوث الكهرومغناطيسي هما أكبر مشكلتين حضاريتين يعاني منهما الغرب الصناعي اليوم، حيث يلاحق

الضحيج سكان المدن الحديثة في كل مكان، بل وأصبحت بعض العواصم صاحبة بشكل لا يطاق، بسبب الأصوات الصادرة من عشرات الألوف من السيارات ووسائل النقل الأخرى التي تجري في طرقات المدن ولا تنقطع ليلاً أو نهاراً، وهناك الأصوات الصادرة من آلات الحفر وبعض الآلات الأخرى المستخدمة في أعمال البناء والتشييد ورصف الطرق وإقامة مشاريع الخدمات. ليس ذلك فحسب بل يلحق الضحيج بالإنسان في عقر داره من الأجهزة المنزلية كالمكانس الكهربائية وخلاطات الفواكه والخضراوات والغسالات ونحوها، هذا إلى جانب ضوضاء وسائل الإعلام المتعددة وأجهزة الموسيقى الصاخبة.

— دراسات تؤكد أضرار الضوضاء:

وقد أكد خبير الضحيج في دائرة البيئة الاتحادية الألمانية أن ضحيج المكنات المستمر يؤدي إلى إصابة أذني العامل بأضرار دائمة ما لم يق نفسه بواسطة كائنات الصوت. وأشار الباحث إلى وجود أبحاث علمية سابقة تثبت أن زوار «الديسكو» الدائمون يتعرضون إلى أضرار دائمة في الأذن جراء التعرض إلى ضحيج عال بقوة ١٠٠ ديسبل (ديسبل - وحدة قياس الضحيج) في كل مرة، في حين أن ضحيج المدن الدائم لا يسبب مثل هذه الأضرار. وقد سبق للدائرة الاتحادية للبيئة أن قدرت وفاة حوالي ألفي شخص في ألمانيا سنوياً بسبب الأمراض الناجمة عن الضحيج. وتعتبر أمراض العمود الفقري الناجمة عن اهتزاز الآلات والضحيج من أهم مضاعفات

الضحيج أيضاً. كما تعمل المختبرات الألمانية على تجربة مواد صناعية خاصة تمتص ضجيج المصانع والطرق السريعة. كما أعلن وزير البيئة الألماني، في عام ٢٠٠٢م، عن رفع الضرائب على الطائرات بسبب دورها في زيادة الضجيج في الأجواء الألمانية. وفي حين تعمل شركات صناعة إطارات السيارات على تطوير بصمات خاصة للإطارات تضمن كبت الضجيج الناجم عن احتكاكها بأرضية الشارع، تعمل المختبرات على تطوير نوع من الأسفلت الذي يضمن تقليل الضجيج الصادر عن الاحتكاك.

وللأسف الشديد فإن الدراسات التي قام بها بعض الباحثين تشير إلى أن المدن الخليجية تعيش أعلى نسب من الضوضاء، هذا بجانب استخدام الأجهزة الباعثة للموجات الكهرومغناطيسية بكثافة عالية. وقد توصل أحد الباحثين إلى أن مدن المملكة العربية السعودية تعاني من نسبة ضوضاء عالية قد بلغت في بعض مدنها حوالي ٨٠ - ٩٠ ديسيبل. والديسيبل كما هو معروف هو وحدة قياس شدة الضوضاء، ويبدأ من الصفر حيث تكون الأصوات شديدة الخفوت إلى ١٣٠ حيث تكون الأصوات مسيبة للألم. وهذه مستويات فادحة الخطورة خاصة إذا ما عرفنا أن معدل الضوضاء في بعض المدن الأمريكية والأوروبية حوالي ٩٠ - ٩٥ ديسيبل، وأن معدل الضوضاء يزداد سنوياً في مدن المملكة العربية السعودية بمعدل واحد ديسيبل بسبب الزيادة المطردة في وسائل النقل والمواصلات.

وقد قامت سلطنة عمان ضمن خططها الشاملة لحماية البيئة من كل صور التلوث، بتنفيذ مشروعات لمكافحة التلوث بالضوضاء؛ منها تنفيذ

مشروع السيطرة على الضوضاء في أماكن العمل ووضع مجموعة من اللوائح الخاصة بالتلوث، وينطبق ذلك أيضاً على الأضرار التي تصيب الأذن جراء الضجيج بهدف مراقبة مستويات الضوضاء والتأكد من بقائها دون الحدود المحظورة دولياً. وواقع الحال يؤكد أن السمع الثقيل والطرش الناجم عن الضجيج لا يزال يتبوأ المرتبة الأولى في قائمة أمراض العمل. وقد رصد في ألمانيا في العام ٢٠٠١م تعرض حوالي ٦٢٠٠ عامل إلى ثقل السمع أو الصمم بدرجات مختلفة بسبب الضجيج . ويعمل معظم المتضررين في المصانع الصاخبة وفي استوديوهات الموسيقى وفي أعمال البناء في الطرقات ومختبرات تقنية الأسنان، ولا يقتصر ضرر الضجيج على الصمم فقط بل يؤدي إلى الاكتئاب والعزلة الاجتماعية أيضاً.

- الأسبستوس يقود إلى الموت:

الأسبستوس يقود إلى الموت.. وأنابيب مياه الشرب المصنوعة من الأسبستوس تحمل لنا السرطان مع كل قطرة ماء.. هذا ما انتهت إليه كثير من الدراسات العلمية.

منذ الثورة الصناعية أصبحت أمراض العمل تمثل فرعاً مهماً من فروع طب الباثولوجي. وبينما كان الناس قبل نحو مائتي عام يموتون بسبب البطالة التي تؤدي للجوع والمرض، صار الناس يموتون الآن من الإصابات بمختلف أمراض العمل وبالذات تلك المرتبطة بالتقنيات. تقدر جمعية أطباء أمراض العمل الألمانية (سنة ٢٠٠٠م) وفاة نحو ثلاثة آلاف شخص في ألمانيا نتيجة

لعانائهم من أمراض العمل سنوياً، إلا أن الأسبستوس يتفوق عليهم جميعاً من ناحية التسبب بالموت، كما أن الكلفة التي تتطلبها علاجات لأمراض يسببها الأسبستوس تتفوق بكثير على كلفة العلاج لأمراض أحر، وأفضل مثال لذلك ما كلف الدولة الألمانية عام ٢٠٠١م (٣٥٠ مليون يورو) في علاج أمراض الأسبستوس.

يعتبر الأسبستوس مادة شديدة الخطورة على صحة الإنسان؛ لأنها واسعة الانتشار، حيث تدخل في أكثر من خمسة آلاف صناعة منها فرامل السيارات والقطارات والطائرات والسفن؛ كذلك تدخل في عزل سخانات المياه وأنابيب البخار وأنابيب المياه الساخنة والمفاعلات النووية، وكذلك في ألواح الإسمنت والبلاستيك. كذلك تدخل في شبكات المياه والمجاري والكهرباء والمواد العازلة للحرارة والواقية من الحرائق وكثير من المستوعبات الخاصة بالكيماويات وغيرها. وما يزال الأسبستوس السبب الأول لهذه الوفيات رغم مرور نحو عشر سنوات على منعه من الاستخدام في الصناعة والبناء.

وتشكل وفيات الأسبستوس، وخصوصاً الرئوية، نحو نصف حالات الموت الناتج من العمل سنوياً. وبالرغم من أن الأسبستوس مادة سامة قادمة من الماضي إلا أن استخدامها بشكل مركز في البناء والصناعة قد تم في السبعينيات، في حين أن أمراضه بدأت بالظهور في نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات، وحينها بدأ الطب بمراقبة تأثيرات الأسبستوس الصحية على العمال، إلا أن قرارات منعه من الاستخدام لم تصدر إلا في التسعينيات، وفي عام ١٩٩٣م بالذات.

من ناحية أخرى يعتبر الأسبستوس مادة قاتلة في المستقبل؛ لأن أعراضه لا تظهر إلا بعد مرور نحو خمس عشرة سنة من التعرض له، مع آفاق موت أكيد بعد نحو ثلاثين سنة، أي في المستقبل البعيد. وقد أودى الأسبستوس على هذا الأساس حتى الآن بحياة عشرين ألف إنسان في ألمانيا منذ الثمانينيات!

إن مرض الأسبستوس الناتج من استنشاق الأسبستوس هو مرض مزمن يصيب الرئة ويؤدي لضيق التنفس والتليف الدائم لأنسجتها مما قد يسبب السرطان. كذلك يسبب استنشاق الأسبستوس مرض «الميزوثيليوما» وهو نوع من السرطان يصيب الغشاء المبطن للرئتين وتجويف البطن وقد يصيب الخنجر والمعدة والقولون والمستقيم والمريء^(١).

كما تتسرب المواد العضوية من الأسبستوس إلى الجهاز التنفسي للإنسان لتستقر فيه وتسبب الإصابة بنوع من الأورام السرطانية. تظهر الأعراض الأولى بعد خمس سنوات، لكن السرطان لا يظهر إلا بعد ٢٠ سنة حينما يكون الإنسان قد تعدى مرحلة الشباب. ويؤكد الخبراء بأن توفير طرق الوقاية من الأسبستوس كتوفير الأقنعة كان كفيلاً بوقف هذه الموجة من الموت إلا أن الأوان قد فات الآن^(٢).

(١) جهاد أحمد أبو العطا، الإدارة الحديثة للمخاطر المهنية والبيئية للصناعات الدولية (دمشق: منشورات المعهد العربي للصحة والسلامة المهنية، ٢٠٠٠م).
(٢) المرجع السابق.

ثورة المواصلات.. تخطي السلبيات وتحقيق الإيجابيات

لاشك في أن ثورة المواصلات قد قطعت شوطاً مذهلاً في القرن الحالي، وقد يتعذر الإسهاب في شرح ذلك، نظراً لغزارة المعلومات المتوفرة^(١):

ولا بد هنا من التساؤل:

كيف يمكن تخطي السلبيات وتحقيق الإيجابيات في ثورة المعلومات والاتصالات والمواصلات؟

هنا نطرح عدداً من الاقتراحات كالأتي:

- لا بد من مواجهة صريحة بين الفرد والأنظمة الإدارية المختلفة، وذلك بالمطالبة الواضحة بنشر الوعي المعلوماتي وفق متطلبات الحضارة الحديثة، وهذا هو الطريق الوحيد للاستفادة من إيجابيات الاتصالات، أو حتى لمواجهة وغرلة معطياتها السلبية.

- كما يجب ألا ننسى الدور الإيجابي الذي يمكن أن تقوم به الحكومات في تنظيم الأنشطة الشبابية المتعلقة بثورة المعلومات والاتصالات والمواصلات؛ ومن هنا لا بد أن تتضافر جهود كل من السلطات الثلاث التشريعية والتنفيذية والقضائية في هذا المجال. ولكي نقذف الأجيال من السقوط في هاوية الاتصالات

(١) من ذلك: خير طريف، نشر في فبراير ٢٠٠٥م، طور باحثون في جامعة هوكيدو اليابانية «دراجة» بعجلة واحدة أطلق عليها اسم «سويبر» Sweeper أي المكنسة، وهي تشابه المكنسة التي تمتطيها الساحرات في الأفلام للتحليق! وتجهز الدراجة التي تمتد على طول متر و٧٥ سنتمتراً، بمحرك كهربائي قدرته ٣٠٠ واط يتغذى بالطاقة من بطاريات تشحن كل ساعتين، كما تستطيع السير بسرعة عالية تصل إلى ١٠ كلم في الساعة لمدة نصف ساعة، ويتحكم الراكب بها بمقبض يشبه ذراع المكنسة!

السلبية، علينا وضع أنشطة أخرى جنباً إلى جنب مع ثورة الاتصالات، ولاشك في أن ذلك يحتاج إلى مصدر تمويل متزايد للأنشطة الشبابية.

- من الملاحظ أن خطط التنمية هي وحدها القادرة على تحقيق منظومة العلم والتقنية والتي تتحول بدورها إلى مخرجات ثقافية وتعليمية ملموسة لتسهم في المخرجات الاقتصادية الحيوية. إن منظومة العلم وتطبيقاته عبارة عن عناصر متبادلة النشاط، ويعني ذلك أن الناتج من كل عنصر يعتمد على مخرجات العناصر الأخرى، أما تدفق النشاطات بين هذه العناصر فتضبطه أحكام المنظومة وقواعدها بشرط أن لا يبطل مفعول عنصر واحد من عناصرها الأخرى وإلا اتهارت المنظومة بأكملها، ومن هنا تبرز أهمية تناغم وتساند عناصرها بالاتصال المباشر عن طريق الإنترنت.

- لا بد من العناية الفائقة بالثقافة الإعلامية للأطفال وعدم الاعتماد الكلي في التلفاز على برامج الكارتون المستوردة دون غربلتها. إن إحدى الخطوات المهمة في هذا المجال هو التفكير الجدي في مشروع ثقافي حضاري موجه للأطفال يشمل برامج للتثقيف والتربية الأخلاقية في ضوء التعاليم الإسلامية. وينفذ حالياً في سوريا مشروع ثقافي حضاري مهم موجه للأطفال ويحمل اسم «شهرزاد» بإشراف الأديب فاضل السباعي، وهو عبارة عن سلسلة من الكتب والإصدارات الموجهة للأطفال بأسلوب واقعي ومؤثر جداً. كذلك تجب مراقبة الطفل عند استخدامه للحاسوب، وعلى المسؤول أن يدرك بأن الحاسوب لن ينجز أي أعمال حسنة أو سيئة بمفرده، بل لا بد من تمكين الفرد من التحكم به حتى لا يحدث العكس! بل إن معرفة الطريقة المثلى لاستخدامه أهم بكثير من مجرد استخدامه. وكما يمكن الحصول على أكبر فائدة من الحاسوب كذلك يمكن الحصول على أكبر قدر من الخسارة للوقت والمال والجهد.

- لمواجهة التحديات غير الأخلاقية وحماية الثقافة الوطنية والعربية والإسلامية، لا بد من الوقوف موقف المحلل والناقد والدارس لكل ما ييثر إلينا من وسائل الإعلام المختلفة، ولن يتم ذلك إلا بتأهيل إعلاميين مسلحين بقيم أصيلة مستمدة من قيم الدين والمجتمع ومتابعين في نفس الوقت لأحدث التقنيات في علوم الاتصال. ومن الملاحظ تزايد المظاهرات المضادة لتقنيات العولمة؛ وفي كل اجتماع للمنتدى الاقتصادي يقوم مناهضو العولمة بمسيرة سلمية أو فوضوية تعبيراً عن سخطهم على طغيان التقنيات التي تعزز سيطرة الدول القوية على حساب الدول الضعيفة. وفي اجتماع للمنتدى الاقتصادي في ١٦ سبتمبر ٢٠٠٢م قام ٢٥٠٠ متظاهر في «سالزبورغ» في النمسا بمسيرة سلمية ضد ٦٠٠ موفد من ١١ دولة مختلفة، وذلك بحمل شعارات مضادة لتقنيات العولمة؛ والمطلوب من الدول الوقوف إلى جانب تلك المظاهرات لما فيه الصالح العام.

- الملاحظ أن منتجات التقنية المختلفة في الوطن العربي تكون دائماً قصيرة العمر وتُهرم بسرعة سواء أكانت تقانة ذكية راقية «smart.Tech» أم كانت تقانة بسيطة مثل مكبر الصوت ومسقط الضوء «projector» وآلة التصوير. وقد تصاب بعض هذه الآلات بالأعطال منذ اليوم الأول، حيث يجري تركيبها بطريقة خاطئة لا تراعي الإرشادات التقنية المرافقة، وقد تتوالى بعد ذلك عمليات التجميل والترقيع ووضع القطع المغلوطة أو المسترخصة. وتحتاج الآلة إلى خدمة فنية من ساعة تركيبها إلى ساعة إعدامها، ولا ننسى أن الآلات كائنات حية تعطي وتُحَدَّم بقدر ما نقدم لها من عناية وخدمة وصيانة. كما يجدر بدول العالم الثالث عقد مؤتمر أو مؤتمرات حول موضوعات الصيانة وحضارة استخدام الآلات من المنزل إلى الدائرة الحكومية إلى القطاع

الخاص. ولا بد من وضع لجان علمية لمناقشة التقنيات الواردة إلينا خاصة تلك المتعلقة بوسائل الاتصال المختلفة، وذلك بأن نطرح منها ما لا يليق بقيمتنا وأن ندعم فقط ما ينمي جذور مبادئنا وما يثبت لنا هويتنا الإسلامية.

- لا بد من مراعاة وجود التقنيات الحديثة وشرح فوائدها وأخطارها، وذلك عند إعداد الكوادر الإعلامية الوطنية المتخصصة والمدرية جيداً على الكتابة مثل القصة، الشعر، الرواية، الروبرتاج الصحفي، الاستطلاع، والمقال الصحفي، أو غير ذلك من أنواع الفنون الأخرى كالمرسح، السينما، والإذاعة.

- يمكن تطوير الإمكانيات التقنية للبرامج الثقافية في الإذاعة والتلفاز والحاسوب والإنترنت وغير ذلك، كذلك تحديث الممارسة الصحافية لدى العاملين في هذا المجال، وتحسين مضمون البرامج الثقافية في الإذاعة والتلفاز وتوظيفها للمساهمة في التنمية الشاملة للمجتمع. مع أهمية شمولية العمل التقني لكل المواضيع دون استثناء، مع الإطلاع على كافة جوانب الموضوع.

- على الدول الإسلامية السعي نحو إنشاء فضاءية مستقلة في أي مكان

في العالم تسمح قوانينه بمثل هذا المشروع، حيث إن الفرد المسلم متعطش إلى تجربة الرأي والرأي الآخر وإلى القناة الخاصة التي تقدم له ما يريد. هذه القناة تضمن دخلاً إعلانياً هائلاً يحقق الجدوى الاقتصادية. أما الاغتراب فيضمن للقناة حرية مطلقة، بعيداً عن احتجاج الحكومات وضغوطها وانسحاب السفراء وتوتر العلاقات بين الدول، بينما يضمن لها الإنفاق الخاص حصانة تامة ضد التدخلات والوساطات، بحيث إن ما ييث يخضع فقط لقرارات هيئة التحرير وفي إطار المبادئ الإسلامية للقناة. وعلاوة على الربح الأكيد فإن قناة فضاءية كهذه يمكن أن تسهم في تنوير المجتمعات الإسلامية وثقيفها وتعريفها بحقوقها وواجباتها، وتحفيزها على ممارسة الحرية في منأى عن العنف وعبر ضوابط حضارية وتقنيات متطورة.

الفصل الثالث

التقنيات وقدرات الجسم البشري

في الوقت الراهن تزداد وتيرة ضغوطنا النفسية بسبب السرعة التي نؤدي بها أعمالنا، العجلة التي نتناول بها طعامنا ثم الاختيار الصعب من آلاف المنتجات المعروضة أمامنا. ولاشك في أن الاستخدام المكثف للأجهزة الكهربائية وبالذات تلك التي تمس أجسادنا له تأثير سلبي على صحتنا. كذلك فإن الخلطات والعجانات والعصارات الكهربائية تضيف شحنات كهربية وذرات معدنية للأغذية والمشروبات التي نتناولها. ويطلق العلماء تحذيرات مشددة عن الأضرار الكبيرة التي تتعرض لها أجسادنا نتيجة ذلك؛ وعلى وجه الدقة فإن القياسات قد أثبتت تشبع جسد الإنسان المعاصر بالكهرباء لدرجة قد تصل إلى مائة فولت مما يزيد من مخاطر تعرضه للأمراض والأورام^(١).

إن التغيرات الحاصلة في بيولوجية الجهاز العصبي، نتيجة تعرضه للعوامل المذكورة سابقاً، قد رصدت بشكل أو بآخر في بحوث البيولوجيا الجزيئية، وقد ثبت أن هذه الجزيئات المتغيرة تتطور ببطء وهي مرتبطة مباشرة

(١) مكتب العمل الدولي في جنيف، حماية العاملين من الحقول الكهربائية والمغناطيسية لتردد الطاقة، ترجمة ونشر المعهد العربي للصحة والسلامة المهنية (دمشق: المعهد العربي للصحة والسلامة المهنية، ٢٠٠٠م).

بالأمراض العصبية، وقد ظهرت آثارها بوضوح متمثلة في اختلال السلوك العام حتى أصبحت مظاهر العصبية والقلق وتشتت الذهن مظاهر مرادفة لسلوك الأجيال الحالية. وكمثال واضح فإن التعرض لإشعاعات الأجهزة المختلفة، المرئية منها أو المخفية، قد ثبت تورطه بتليف أو تعطيل أو تحويل مسارات عمل العصبونات ربما بشكل مباشر أو غير مباشر في الكثير من الحيوانات والنباتات. كما أن الدليل قد أصبح قائماً على أن إشارات السيل العصبي أضحت خاطئة أو مشوشة نتيجة لتراكم المواد المشعة والعناصر المعدنية الخطرة الناتجة من تحمل الأدوات والأجهزة المنتشرة من حولنا^(١). ولاشك في أن ذلك قد غير من بيولوجية الدماغ البشري حتى ظهرت آثار ذلك في اضطرابات التفكير والسلوك (مرض الزهايمر). ويربط العلماء بين مرض الزهايمر المنتشر كثيراً وبين تدمير مناطق حساسة في الجهاز العصبي، وأغلب الظن أن هذه المناطق قد تعرضت للتدمير نتيجة تراكم الملوثات الكيميائية والمؤثرات الصوتية والإشعاعات المرئية وغير المرئية^(٢) وغير ذلك مما لا يعلمه إلا الله عز وجل.

-
- (١) شعاع اليوسف: أ- تأثير ميبد الأكلدريين على الخلايا العصبية في ديدان الأرض، مجلة كلية العلوم، جامعة قطر (١٤) ٣١٥-٣٢٣، ١٩٩٤م؛ ب- تأثير ميبد البريميبيد على الخلايا العصبية في ديدان الأرض، مجلة كلية العلوم، جامعة قطر (١٥) ٣٧٧-٣٧٣، ١٩٩٥م .
- (٢) منظمة العمل العربية، المواد الكيميائية الخطرة والضارة بالصحة (دمشق: منشورات المعهد العربي للصحة والسلامة المهنية، ١٩٩٨م) .

ومن الثابت أن الظروف البنوية والكيميائية للمخ (سواء كانت داخلية أو خارجية) هي ما يحدد أفكار وأفعال صاحبها ، وعلى هذا الأساس تمكن العلم من التحكم في بعض أنواع السلوك الإنساني عندما استطاع التحكم في بنية وكيميائية المخ. وقد تم ذلك بالعقاقير الطبية أو بزراعة الأقطاب الكهربائية في الدماغ البشري بغية الوصول إلى الحالات المتطرفة من السلوك الإنساني. وهاهي الأقطاب الكهربائية في طريقها الواسع للتحكم في مشاعر وأفكار البشر. بل وقد يتم تغيير السلوك الفردي بشئ الطرق ولو بنزع بعض الغدد أو معالجتها ليتحول الفرد إلى طبع ومسالماً أو مقاتل شرس. بل توجد محاولات لتثبيت بعض الأقطاب في المخ البشري حيث يمكن التحكم في سلوك الفرد إلكترونياً أو بالتحكم عن بعد مما يعتبر انتهاكاً للتكامل العقلي للفرد، بل انتهاكاً لحرية الشخصية ولتدمير كل ما نصت عليه المواثيق والأعراف والأديان.

أما قطع الغيار الآلية فقد تحكمت في أجسام البشر منذ زمن ليس بالقصير؛ ووجدت طريقها السريع في غرف العمليات مما جعل بعض الأفراد مزيجاً من الإنسان والآلة. وها هي الأجهزة الصغيرة المحمولة تتحكم في نبضات القلوب وفي غيرها كثير. أما الإنسان الآلي فقد تم صنعه واستطاع عقله التفوق على العقل البشري في لعبة الشطرنج وها هو يدخل غرف العمليات ليتحكم في صحة وحياة البشر.

هذه الثورة الهائلة في العلوم البيولوجية أشار لها المفكر «ألفين توفلر» بما أسماه: «The pre- designed body» أي الجسم المعد مسبقاً، وهو بذلك يشير إلى هندسة الجينات التي قطعت شوطاً مذهلاً في الفترة الأخيرة^(١). وفي كتاب بعنوان (عقول المستقبل) يصل المؤلف «جون تايلور» إلى تصورات مذهلة؛ ومنها أن العقل البشري سوف يكون قابلاً للتحكم به عن طريق الريموت كونترول^(٢). ومما يؤكد هذه التصورات هو ازدياد الطلب على زراعة الأقطاب الكهربائية في معالجة أمراض العقل والجسد. كذلك هناك محاولات تجرى على قدم وساق لزراعة الرقائق الإلكترونية في مخ الإنسان، وذلك لتوسيع وتقوية ذاكرته. وقد أثبتت التجارب إمكانية ربط دماغ الحيوان مباشرة بالحاسوب ورصد الإشارات الكهربائية في الأنسجة الحية، وزرع خلايا فأر على رقيقة سيليكون وإرسال واستقبال الإشارات منها مباشرة. ويظن العلماء بأن تعزيز وربط دماغ الإنسان بالحاسوب قد أصبح ممكناً، وأن ذلك سوف يؤدي إلى ارتفاع نسبة الذكاء وسعة تخزين المعلومات، كما أنه قد يعين العميان على استرداد القدرة على الإبصار.. ترى هل يمكن الحد من تلك المشاكل الصحية والسلوكية، أو أن الوقت قد بات متأخراً لعلاج أو منع حدوث بعض تلك السليبيات؟

(١) ألفين توفلر وهايدي توفلر، سياسة الموجة الثالثة، أتلانتا، ١٩٩٥م.

Alvin Toffler & Heidi Toffler, The Politics of the Third Wave, Turner Publishing Inc. Atlanta.

(٢) جون تايلور، عقول المستقبل، ترجمة لطفي فطيم، سلسلة عالم المعرفة، العدد: ٩٢،

١٩٨٥م.

- التقنيات الحديثة.. رموز وإشارات:

هل تحولت التقنيات الحديثة إلى مجرد رموز وإشارات؟

أجل لقد تحولت أجزاء كبيرة من التقنيات الحديثة إلى مجرد رموز وإشارات، وعلى سبيل المثال تكاثرت رموز الإلكترونيات ورموز المصطلحات العلمية، وتحولت الثقافة هي الأخرى إلى منظومة للرموز والإشارات كما هي السمة الطاغية للشعر الحر وبعض أنماط القصص القصيرة. لقد شجعت أجهزة الفاكس والحاسوب والإنترنت عبثية الثقافة الحديثة، أما التقنيات الحالية فقد سحقت الفكر في سجن انفرادي وحجبت اكتشاف الذات، وهكذا أصبح التفكير في حد ذاته اصطناعياً. وبهذا المفهوم تشكلت الثقافة والحضارة في فترة ما بعد الحداثة وبدأت تظهر بوضوح مع نهايات القرن العشرين؛ وهي للأسف عملية لظهور الوعي المشوه لثقافة مشوهة، وليست مصادفة أن يتزامن مع ذلك انتشار الأعضاء الاصطناعية التي هي دون جسد! وحتى الأعضاء الطبيعية أصبحت تُنقل إلى جسد آخر غريب عنها! هكذا اختلط الناس ببعضهم ولم يعد للجسد هوية تميزه. وقد يقاوم الفرد الطبيعي هذا الاتجاه بشدة؛ لأن جهاز المناعة عنده يرفض إيواء الغرباء، وغالباً ما تفشل زراعة أو نقل الأعضاء إلا إذا عولج الفرد بالكثير من المضادات الحيوية وأدوية الكورتيزون المهمشة لدور الجهاز المناعي.

ولن ننسى الأخطاء والتقنيات الطبية التي قتلت الكثير، أما المعلومات الخاطئة فقد شوهدت الكثير من المجالات التطبيقية، وعطلت الكثير من الاستخدامات، ثم ثبت أن العكس هو الصحيح؛ ومما زاد الطين بلة صدور

بعض المعطيات العلمية بطريقة غير مقصودة أو بغباء أو نتيجة لأخطاء غير متعمدة، ولكنها أسهمت في تشويش معادلة التوازن النفسي والعقلي للإنسان^(١)؛ وفي آخر تقرير طبي نشر في المملكة البريطانية وجد أن ثلث المرضى يعانون من تشخيصات طبية غير سليمة.. وفي عام ٢٠٠٣م أعلنت السلطات البريطانية وفاة أكثر من أربعة آلاف فرد بسبب الممارسات الطبية الخاطئة. هكذا يعاني الفرد المعاصر من تشويش كثيف نتيجة لما يحدث من تفكك في فكره وأعضائه، ولا بد لصدمة التفكك أن تصل للذروة في يوم ما وعندها تبدأ في خلق الآلام العضوية للتفكير الإنساني، ولن يستطيع القيام بعمليات المتابعة إلا شخصيات منفردة استثنائية من عباقرة الفكر التي قد تكون لها القدرة على متابعة حضارة ما بعد الحداثة. ولكن حتى هذه النماذج الفريدة سوف تعجز في مرحلة لاحقة عن اللهاث وراء سيول المعلومات وربما تفرق في فيضان المعرفة، والنتيجة الحتمية هي إصابة المجتمعات بالشلل! وسوف تفشل الحكومات في قيادة الشعوب المتفككة فكرياً والمتأثرة عضوياً بل قد يتوقف تماماً التوجه الإنساني للحضارة حيث تفقد الصلة تماماً بين الفرد والإنسانية نظراً لبعدهما الشاسع في التوجه والمقصد، وهذا ما نراه واضحاً اليوم وللأسف الشديد^(٢).

(١) جاك شوارتز، حقول الطاقة البشرية، ترجمة رنا العمري (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٩٧م).

(٢) صبحي حسين، الإشعاع في بيئة العمل (دمشق: منشورات المعهد العربي للصحة والسلامة المهنية، ٢٠٠٠م).

- تفكك أعضاء الجسم والتقنيات الحديثة:

ما مدى تفكك أعضاء الإنسان في ظل تقنيات الحضارة الحديثة؟

إن عصر المعلومات اليوم قائم على موجات البث أو الموجات الكهرومغناطيسية السلكية واللاسلكية، تلك التي في قوتها كالزوبعة غير المرئية المخترقة لأعضاء الكائن الحي؛ وبالمقارنة فإن موجات الطاقة الطبيعية سارية كالنسيم، تلك التي تحمل الرسائل بين أعضاء الكائن الحي لتنظيم الوظائف الحيوية؛ وحينما نعرض النسيم الهادئ لزوبعة فمن المتوقع أن تكون النتيجة عدم انتظام رسائل الوظائف الحيوية السارية في الجسد وبالتالي هدم جهاز المناعة وتجريده من أسلحته. لقد أصبح الغلاف الجوي للكرة الأرضية مشبع بهذه الموجات إلى الحد الذي لن يستطيع جهاز المناعة عنده التحمل أو الإبقاء على الحياة! ومن هنا لا بد من تدارك هذه الأخطار بأقصى حدود السرعة الممكنة. وهذا ما يحاول علم الهندسة الحيوية Biogeometry القيام به، من معالجة لتقنيات العصر بأساليب من الوقاية المبسطة حتى يحول حضارتنا الحالية من حضارة مدمرة للجنس البشري إلى حضارة رقي وبناء.

نعم لقد فككت تقنيات الحضارة الحديثة أعضاء الإنسان، فأصبحت تعمل دون انسجام أو توافق.. ويعتقد المفكر أبشتين^(١) بأن الحضارة الرأسمالية الحديثة تحديداً هي التي تقسم الجسد إلى أجزاء وتفصل هذه

(١) ميخائيل أبشتين، انفجار المعلومات وزوال ما بعد الحضارة الحديثة، ترجمة منسى الخميسى (موسكو: ١٩٩٩م).

الأجزاء من بعضها بنجاح تام؛ إن فصل العين عن الأذن يظهر بوضوح حينما يجلس أمام شاشة الحاسوب نعمل في برنامج ما وفي نفس الوقت تصغي الأذن إلى ما يقوله الراديو أو تستمع إلى أغنية عبر السماعات المعلقة! كذلك قد تنفصل القدم عن الأذن وعن العين أيضاً عندما تمشي القدم على شاطئ البحر ولا تصل لآذاننا أصوات أمواجه الهادرة، ولكن لماذا؟ لأننا ننصت إلى حديث يثه المذياع عبر سماعات الراديو بينما أعيننا تراقب شيئاً لا علاقة له بالبحر، وقد يكون الفكر مستغرق في شأن مختلف تماماً! ولن يكون الفرد في حالة سليمة حتى تندمج الحواس كلها مع العقل في تناغم واحد، عندها فقط يصل الفرد للسعادة والاستقرار؛ فهل يمكن عودة هذا الشعور المتوحد بعد غيابه طويلاً في ظل حضارتنا الحديثة؟

إن الفرد المفصوم يطلق الآن صرخة نداء مدوية محاولاً تجميع أشلانه في وحدة واحدة! ولكن هذا الإنسان لن يكون هو الفرد القديم بأي حال من الأحوال بل ربما يظهر له تكوين جديد، فما هو؟ ربما يصبح هذا التكوين الجديد هو إنسان عصر نهضة حديثة تسمى العولمة؟ تلك الحضارة التي تمضي أبعد فأبعد على طريق التخصص وزيادة التخصص وتخصص التخصص والاصطناعية وزيادة الاصطناعية وهكذا إلى ما لا نهاية^(١).

وحتى هذه اللحظة لم يستطع الفرد الحديث جمع شتات فكره، لأنه ببساطة لم يتمكن من الربط والموازنة بين ثقافة الأجهزة وقدرة أعضاء جسمه المحدودة. إن الأدلة على ذلك واضحة وجلية، لقد تعطلت ملايين

(١) المرجع السابق.

الأيادي بسبب طغيان الآلة، وضعفت الأبصار بسبب استخدام العدسات اللاصقة الملونة وعدسات التكبير المجهرية وغيرها من محسنات الرؤية. وقد ثبت علمياً أن الإدمان على استخدام الحاسوب يسبب ضمور أصابع اليد وعظام الرسغ؛ هكذا تضر أيضاً خلايا الدماغ بسبب ضعف التخزين وقلة الاستعمال. وقد أهملت قدرات العقل البشري فعلاً، فهو لا يجد الوقت الكافي لجمع المعلومات وتحليلها، بل أصبح العقل يعتمد على الحاسوب والإنترنت والوسائط المعلوماتية الأخرى. أما الأدهى والأمر من ذلك فهو أن أعضاء الفرد السليمة لم تعد كافية للقيام بالمهام الإنسانية بل أصبحت الاستعانة بالفاكس والحاسوب ضرورة كأعضاء إضافية للفرد.

وقد ساعد ذلك بدوره على فك ارتباط الأعضاء بعضها ببعض في الجسد الواحد، فهذه الأجهزة أصبحت بدائل مكاملة لتعويض الضعف الحاصل لأعضاء الجسد بعد أن تشبعت بالمعرفة وأصيبت بالصدمة. وقد تضافرت الأعضاء البشرية مع الأجهزة وتوسطت في حساباتها الداخلية لتصبح جزءاً منها، وكمثال على ذلك فإنه يمكن اعتبار أصابع اليد والعين البشرية أجزاء من الحاسوب التي لا يمكنه العمل بدونها! هكذا أصبحت الثقافة التي تنتقل إلينا عبر الأجهزة الحديثة هي أجزاء مقطوعة من الجسد مثل أجزاء الماكينة التي يمكننا تفكيكها وإعادة تركيبها بل ويمكن تجميعها وتبديل قطعها مع أعضاء الجسد، وليس من قبيل الصدفة أن يتزامن ذلك مع ظهور قطع الغيار الآلية التي تحكمت في أجسام البشر منذ زمن ليس بالقصير،

مما جعل بعض الأفراد مزيجاً من الإنسان والآلة. ومن الملاحظ أن الجسد الواحد قد يتم ترقيعه بقطع من البلاطين وقطع أخرى من جسد حي آخر في نفس الوقت بل وربما في نفس الموضوع^(١).

ونضرب أمثلة على تداخل التقنيات مع الجسد الإنساني كما يأتي:

١- تطوير أسلحة تؤثر على التصرف البشري:

سعت الولايات المتحدة لتطوير أسلحة تؤثر على التصرف البشري غير أنها تخلت عن البرنامج الذي اعتبر مخالفاً للتشريعات الدولية وفق ما أوضحت لجنة علمية بإدارة الحكومة الأميركية. وقد وردت هذه المعلومات في تقرير صدر في حوالي (٢٥٠) صفحة حول الأسلحة غير القاتلة وتم نشره من خلال المجلس الوطني للأبحاث. وقد شجع هذا المجلس ووزارة الدفاع الأميركية على معاودة دراسة هذه الأسلحة تحسباً لاحتمال تورط القوات الأميركية في معارك داخل المدن في إطار حملة مكافحة الإرهاب. وبموجب هذه الوثيقة فإن الأبحاث حول الأسلحة التي تؤثر على التصرف قد جرت قبل خمس عشرة عاماً في مواقع عسكرية في ميريلاند واستخدمت فيها بصورة خاصة مواد «مهدئة» مشتقة من مادة الفتانيل. وقد اعتبرت اللجنة العلمية هذا البرنامج «ذا مغزى» من دون أن تكشف عن تفاصيله التي صنفت في فئة المعلومات السرية. وينص التقرير على أن السلطات العسكرية العليا بحثت مراراً في احتمال استخدام مثل هذه «المواد المهدئة» وخلصت إلى أن هذه المواد

(١) المرجع السابق.

بشكلها الحالي ستكون مخالفة للمعاهدة حول الأسلحة الكيميائية الموقعة عام ١٩٩٧م. وعندها أصدر المجلس بياناً يؤكد بأن التأثيرات الفيزيولوجية لجميع المواد المهذئة التي تم النظر فيها تؤدي إلى انهيار النظام العصبي المركزي ويرافق ذلك تبدل في التصرف وانهيار في الجهاز التنفسي.

٢- مجسات استشعار لالتقاط نشاط الدماغ البشري من بعد:

في خطوة قد تفتح مشاكل كبرى في التحكم بالعقل البشري طور علماء بريطانيون مجساً للاستشعار بإمكانه التقاط وتسجيل موجات الدماغ البشري دون الحاجة إلى وضع الأقطاب على الرأس أو إدخال الإبر الصغيرة في مواقع منه، كما هو الحال في التقنيات الحالية للتسجيل الكهربائي لنشاط الدماغ. وقد نجح باحثون في مركز إلكترونيات الفيزياء بجامعة «ساسكس» في تصميم المحس الذي يقيس شدة المجال الكهربائي للدماغ بدلاً من تسجيل شدة التيار الكهربائي الذي يتم عادة لدى مرور التيار بالأقطاب. كما نقل موقع «بي بي سي» الإنجليزي في المركز بأن عمل أجهزة المسح المتوفرة ناجح جداً لدى دراسة وظائف أعضاء الجسم الثابتة، إلا أن الأجهزة قد لا تنجح في دراسة التيارات المتغيرة دائماً في الجسم البشري كما هو الحال في الدماغ. المحس الجديد قد يكون أكثر سلامة لأنه لا يعتمد على التدخل في الجسم البشري، بل يمكن في المستقبل القريب استقبال إشارات دماغية عبر المحس لإرسالها إلى الآلات كأوامر للعمل؛ لكن ذلك دون شك يحول الجسم البشري إلى خليط من الذبذبات والإشارات والمتداخلات التي لا بد أن تنقلب وبالأعلى عليه.

٣- تصميم حاسوبين ينافس عقل الإنسان:

قامت شركة «آي. بي. إم» ببناء جهازي حاسوب فائقي القدرة يستطيعان منافسة إمكانات المعالجة التي يتمتع بها عقل الإنسان، أو حتى التفوق عليها، على حد تعبير الشركة. ومن المتوقع أن تزيد سرعة الجهازين إذا اجتمعا معاً بخمسمائة ضعف عن أفضل الأجهزة المتوفرة حالياً. أول هذين الجهازين أطلق عليه اسم «آسكي بيربل، ASCI Purple» ويستخدم لتمثيل ومحاكاة الاختبارات النووية، حيث سيكون بمقدوره إكمال ١٠٠ ألف مليار (١٠٠ تيرافلوب) عملية حسابية في الثانية الواحدة، أي ما يمكن مقارنته بقدرة عقل الإنسان. ويعتمد على ١٢٥٤٤ معالجاً من معالجات «باور٥» الذي تنتجه «آي. بي. إم» نفسها، أما سعة التخزين في هذا الجهاز فتصل إلى ٢ بيتا بايت «Petabytes» أو ما يمكن أن يخزن محتويات ٣٠ مكتبة بحجم مكتبة الكونغرس. أما الجهاز الثاني فظهر عام ٢٠٠٥م، وأطلق عليه اسم «بلو جين/إل، Blue Gene/L»، ويفوق الأول بقدرته، إذ سيكون بإمكانه إكمال ٣٦٠ تيرافلوب عملية حسابية في الثانية الواحدة، وسيعمل بنظام التشغيل «لينكس»، ويتوقع أن يستخدم لتحليل الزلازل والمساعدة في التنقيب عن النفط، ودراسة التغيرات المناخية على مستوى العالم، وأثر التلوث على البيئة. والجدير بالذكر أن أقوى جهاز حاسوب حتى الآن هو الذي بنته شركة «إن. إي. سي» اليابانية، وتطلق عليه اسم «arth Simulator» الذي يحقق ٤٠ تيرافلوب عملية في الثانية.

ثم يليه في القدرة جهازان من أجهزة «كراي» تنتجهما شركة «هيولست باكرد»، وكلتا الشركتين تسعيان إلى الوصول إلى قدرات توازي قدرات أجهزة «آي. بي. إم» الجديدة. والجهازان الجديدان لن يستطيعا القيام بعمل عقل الإنسان الذي يصعب تقدير القدرة الحقيقية له بسبب أنهما لن يكونا مزودين بالوعي والإدراك اللذين يميزان عقل الإنسان، كما أنهما لن يزودا أصلاً بقدرات الذكاء الاصطناعي. ويؤكد العلماء أنهم ما زالوا بعيدين جداً عن اختراع حاسوب يستطيع أن يحاكي قدرات عقل حيوان بسيط كالفأر

٤- ربط العقل مباشرة بالحاسوب:

ليس من المستبعد أن يكون هناك من بين مستخدمي الحاسوب من يحلم أنه لو يستطيع ربط عقله مباشرة بالحاسوب كي يتحرر من قيود لوحة الكتابة وحروفها وفأرته، أما بالنسبة للمصابين بالشلل الكلي فإن قدرة ربط الدماغ بالحاسوب ستمنحهم من جديد بعداً حياتياً شاملاً. وإذا حدث أن استطاع المصابون بعاهات جسدية أن يتحكموا بالحاسوب من خلال أفكارهم فقط، فإنهم سيكونون قادرين على فتح أزرار المصايح والتلفاز بل حتى الذراع الروبوتية. وقد تمكن الباحثون، عن طريق ربط أدمغة المرضى مباشرة بالحاسوب، من تسجيل تحسن في قدرتهم على التحكم بمؤشر الحاسوب. وقد تحقق، ضمن هذا المجال، تقدم كبير خلال السنوات الخمس الأخيرة، ونشر أكثر من نصف البحوث العلمية المقدمة في هذا الموضوع خلال العامين الأخيرين. ويحتل مركز «ساير كينيتيكس،

CyberKenetics» الصدارة في مجال البحوث المكرسة لتقنية «ربط الحاسوب بالدماغ» (بي. سي. آي.). وقد قامت هذه المؤسسة بتسجيل أول مرضاها لاختبار نظام «بَرين غَيت، BrainGate» في دراسة سريرية. ومن كرسية المتحرك أصبح المريض قادراً على فتح رسائله الإلكترونية وتبديل محطات التلفاز وإشعال المصابيح واستخدام ألعاب الحاسوب، كل ذلك تم باستخدام قدرة تفكيره فقط بينما بقي معتمداً دائماً على جهاز للتنفس الصناعي. ولتحقيق التواصل بين عقل المريض والحاسوب تم زرع جهاز تحت الجمجمة في القشرة العصبية، يحتوي على رقاقة إلكترونية تبلغ أبعادها ٢ ملم في ٢ ملم، وتحتوي على ١٠٠ قطب كهربائي. وربط الجراحون هذه المجموعة من الأقطاب بخلايا عصبية تقع داخل القشرة العصبية التي تقع في منطقة الدماغ المحددة فوق الأذن اليمنى. وترتبط مجموعة الأقطاب بقياس كهربائي عبر سلك ناتئ من قمة الرأس. وتنقل الأقطاب المعلومات من ٥٠ إلى ١٥٠ خلية عصبية عبر كابل للألياف البصرية إلى جهاز بحجم كاسيت الفيديو يقوم بتحويلها إلى نظام رقمي. ثم يقوم كابل آخر مربوط بين جهاز الترميز إلى الحاسوب بترجمة الإشارات. لكن بعض الباحثين يعملون على تطوير أجهزة ربط بين الحاسوب والدماغ تكون أكثر بساطة. ونشر «جونانان» و«ولباو» في مركز «وادزورث» بنيويورك بحثاً في ديسمبر (كانون الأول) ٢٠٠٤ في مجلة الأكاديمية القومية للعلوم يوضح أن جهازه غير المقتحم للدماغ، يحقق أغراضه من خلال توظيف قبة قادرة

على التقاط إشارات الدماغ، بدلاً من غرز جهاز داخل الدماغ. ويفضل المرضى والأطباء على حد سواء عدم فتح الجمجمة، بهدف زرع جهاز لربط الدماغ بالحاسوب (بي. سي. آي.). لكن ليس واضحاً حتى الآن ما إذا كان وجود هذا الجهاز خارج الرأس سيمتلك نفس الجودة التي توفرها الأجهزة المزروعة في الدماغ من ناحية التقاط موجاته. أما الذين فقدوا القدرة على استخدام أذرعهم أو سيقانهم مثلاً بسبب الحوادث، فهم لا يرغبون في أي شيء يزرع داخل جمجمتهم، وسيكون من الأفضل أن يحصلوا على أجهزة لا تتحرق رؤوسهم، إلا إذا كانت قادرة فعلاً على تحسين الأنشطة الدماغية بشكل كبير جداً. وقد يمتلك الجهاز الرابط بين الدماغ والحاسوب من الخارج فوائده الخاصة، لأنه قادر على التقاط إشارات من الكثير من مواقع الدماغ بدلاً من منطقة محددة بالذات.

وهناك شركة خاصة تسمى «نيوترال سيفنالز» طورت جهازاً يربط الدماغ بالحاسوب، من خلال صنع جهاز على شكل برغي صغير يتم زرعه تحت الجمجمة عمليتين. وحصل هذا الجهاز، الذي يبلغ سعره ٥٠ ألف دولار، على موافقة وكالة الأغذية والعقاقير الأمريكية المسؤولة عن منح تراخيص الابتكارات الطبية والأطعمة الجديدة. وأفضل المرضى المرشحين لاستخدام هذا الجهاز هم أولئك العاجزون عن القيام بأية حركة جسدية مثل أولئك المصابين بمرض عجز العضلات. ويسمح هذا الجهاز للمرضى بتحريك مؤشر الحاسوب وفتح الأزرار الكهربائية وغلقها.

٥- ملابس «كهربائية» لمواجهة احتياجات العصر الإلكتروني!

لقد ظهرت أنواع من «الكهرونسيج» تحدد الموقع الجسدي وتقيس ضغط الدم مع تغير ألوانها وأشكالها! و«قماش - مجس» مطور لرجال مكافحة الحريق حيث يستشعر الجسد البشري ويقيس نبضات القلب وحرارة الجسد ويثبها لاسلكياً لحاسوب عبر جهاز يشبه جهاز المنادي مثبت بالقماش! ويختار المصممون عادة الأنسجة وفقاً لجمالها أو متانتها أو ثمنها، ولكن بإمكانهم اليوم أن يختاروا الأنسجة وفقاً لقدرة على توصيل الكهرباء! بل تنتج بعض الشركات بما فيها شركة «دوبونت»، أنسجة يمكنها بث الإشارات أو تمرير التيارات الكهربائية.

ويتم حياكة هذه الأنسجة المصنوعة من ألياف صناعية أو معدنية في القطن أو البولستر لتنتج نوعاً جديداً من القماش الكهربائي يعرف باسم «الكهرونسيج». وقد أمكن وصل ألياف «الكهرونسيج» برفائق وبطاريات لتكوين دوائر يمكنها يوماً ما أن تطبق عدداً كبيراً من الاستخدامات. وعلى سبيل المثال إذا استخدم «الكهرونسيج» في فرش مقاعد السيارات فإنه من الممكن أن يقيس وزن الراكب ويقوم بالتالي بتعديل قوة كيس الهواء وفقاً للوزن. ويمكن تصميم أقمشة تحتوي على جهاز لتحديد الموقع وبجسات لقياس ضغط الدم وأقمشة يمكنها أن تغير لونها وتغطها. وحتى الآن تقتصر تقنية الكهرونسيج على الاستخدامات العسكرية مثل الهوائيات المنسوجة في زي الجنود.

٦- صفائح من التيتانيوم لرتق الثقوب في جمجمة البشر تصنع من سبائك رقيقة متينة خفيفة الوزن وتتوافق بيولوجياً مع الجسم البشري. مهندسون وجراحون ألمان يصممون جهازاً لتفصيل قطع الدماغ المطلوبة حسب المواصفات بدقة متناهية يقل الفرق بينها عن أجزاء المليمتر:

يضاير الجراحون في العديد من الحالات المرضية إلى رفع جزء من جمجمة المريض بغية تخفيف الضغط المسلط على الدماغ، أو بهدف تخليص المريض من سرطان في الدماغ قد وصل إلى العظم. إلا أن الطب يواجه مصاعب جمة في إعادة لحم هذه الثقوب أو في إعادة لحم الجزء المرفوع إلى مكانه، بالنظر لتعذر نمو العظام من جديد. بما يكفي لستر الجزء المكشوف من الدماغ أو بسبب ظاهرة رفض الجسم للأجزاء المزروعة. ويرى مهندسو وجراحو جامعة «الرور» الألمانية أنهم نجحوا في التوصل إلى حل يكفل تسهيل مهمات الجراحين ويتيح للمصابين إمكانية مواصلة الحياة بنوعية أفضل. وتعتمد التقنية الألمانية الجديدة لسد الثغرات في الجمجمة على نوع جديد من سبائك معدن التيتانيوم المنسجم «Bio Compatible» مع جسم الإنسان حيث تتوافق بيولوجياً معه، وهي صفائح رقيقة متينة وخفيفة الوزن ومن الممكن تصميمها حسب مواصفات الجزء المفقود من الجمجمة كما يمكن الحجز عليها من كل أنحاء العالم بواسطة البريد الإلكتروني. ومن خلال هذه الصفائح يمكن تسريع عملية شفاء الجروح الناجمة عن عمليات الدماغ وتحسين حياة المرضى بشكل خاص، وعادة ما يلجأ الجراحون إلى إزالة جزء من عظام الجمجمة التي تغطي الدماغ في حالة تعرض المريض إلى

نزيف حاد في الدماغ، فهي الطريقة المثلى لتخفيف الضغط مؤقتاً عن الدماغ. كما يضطر الأطباء لإزالة جزء من الجمجمة في حالة تدخلهم الجراحي لإزالة السرطان الدماغي وهو ما يتطلب ترك الفتحة على حالها أو وضع غلاف خارجي لحماية الدماغ من الحوادث. هذه الصفائح متناهية الدقة يقل الفرق بينها عن أجزاء المليمتر. وتتطلب الحالة من الجراح إرسال معطيات المسح الحاسوبي الدماغي إلى جامعة «الرور» كي يستطيع الخبراء على أساسها تفصيل القطعة الناقصة حسب المواصفات. ومن الممكن في الحالات الاضطرارية إرسال هذه المعطيات بواسطة البريد الإلكتروني ليتولى حاسوب خاص رسم قالب قطعة الجمجمة المطلوبة.. كما يزود الخبراء القطعة بثقب صغير مغطى قد ينفع لاحقاً في عمليات نزع أو تصريف الدماء والسوائل التي قد تتجمع تحت القطعة. وبالرغم من تلك الفوائد إلا أن نتائجها السلبية لم تدرس بعد وقد تكون أسوأ مما كان يتوقع!

٧- بطاريات للأجهزة الطبية المزروعة في الأعضاء تعمل على

حرارة وطاقة الجسم نفسه!

تواجه الأجهزة الطبية المزروعة في الجسم، مثل بطاريات القلب ومنظمات الأنسولين وغيرها من الأجهزة مشكلة كبيرة، وهي نفاذ الطاقة الحرارية لها، وهذا ما يضطر الأطباء إلى تبديل تلك الأجهزة من خلال إجراء عملية أخرى.. وقد قامت شركة أميركية في نيويورك بإنتاج أجهزة طبية ذات بطاريات لها القدرة على استخدام طاقة وحرارة الجسم نفسه، خاصة أن حرارة جسم الإنسان ثابتة وهي بمعدل ٣٧ درجة مئوية. يكمن مبدأ

هذه الفكرة بتزويد البطارية بسلك حراري له القدرة على إعادة شحن البطارية من الجسم، أو يمكن إنتاج بطارية بيولوجية توصل مع الدورة الدموية وتستهلك المواد الحرارية الموجودة في الدم، أو تحول الأغذية الأساسية مثل السكر والشحوم إلى طاقة. والأجهزة الحالية تعمل لمدة لا تتجاوز العشر سنوات وهي تعمل على طاقة الليثيوم التي لا تخلو من الاختلاطات، لأنها مصنفة ضمن الطاقة النووية التي يمكن أن تتسرب إلى الخلايا والنسيج وتؤدي المنطقة المزروعة فيها. وسوف يقلل إنتاج أجهزة ذات بطارية دائمة الحاجة لإخضاع المرضى إلى عمليات أخرى من أجل تبديل تلك الأجهزة، إضافة إلى إمكانية التحكم بالطاقة بشكل أفضل من خلال الأجهزة الجديدة. البطاريات القلبية تلعب دوراً مهماً في إنقاذ حياة المرضى الذين يعانون من بطن قلبي أو اضطرابات نظم قلبية أو الذين لديهم القابلية لحدوث توقف القلب المفاجئ، كما أن البطاريات الحديثة مزودة بجهاز صدمة يمكنه أن يعمل عند توقف القلب.

٨- شريحة حاسوب مبصرة تقلد وظائف العين البشرية:

ربما تصبح إعادة البصر إلى المكفوفين واقعاً ملموساً خلال الأعوام القليلة المقبلة! هذا ما نشره معهد «إيلينوي» للتقنية في أمريكا، الذي يقود الآن أكثر الدراسات تقدماً في هذا المجال. وعند إجراء التجارب على الحيوانات نجحت عمليات النقل الإلكتروني للصور والمشاهد إلى الغلاف الخارجي للمخ، ومن المقرر أن تبدأ التجارب على الإنسان خلال شهر معدودة.

وفي الثالث من فبراير ٢٠٠٥م أعلن الجراحون الألمان، من جانبهم، أن بوسعهم إعادة النور إلى عيون المكفوفين بمساعدة رقاقة إلكترونية غاية في الصغر تزرع تحت الشبكية. ويخطط الجراحون في عيادة العيون في جامعة «توبنغن» بألمانيا، لإجراء سلسلة من عمليات الزرع المذكورة وبالتالي تحقيق «رؤية»، طالما حلم المكفوفون بها. ويأمل الفريق في إعادة الأمل إلى ٢٥% من ١٣٠ ألف مكفوف ألماني، ممن يعانون من العمى بسبب أمراض الشبكية التنكسية، مثل التهاب الشبكية الصباغي الوراثي «Retinitis Pigmentosa»، إذ من الممكن مساعدة المرضى المعانين من هذه الحالات في استعادة النظر شريطة ألا يكون عصب العين الرئيسي مصاباً بسبب حادث أو ورم أو ما شابه. مثل هذه الرقاقة قد تم زرعها في عيون الحيوانات المختبرية، وثبت أن أجسام هذه الحيوانات تقبلتها ولم تلفظها. كما أثبتت الفحوصات الإلكترونية أن الرقاقة أدت عملها من خلال تحويل الإيعاز الضوئي إلى إيعاز كهربائي ينتقل إلى الدماغ. وقد تم البدء بزرع الرقاقة في عيون المكفوفين، نتيجة التهاب الشبكية التنكسي، كما تم تصميم الرقاقة الإلكترونية بشكل يؤهلها لتعويض ما فقدته شبكية العين من «مخاريط» و«نبايت» (مثل الأنابيب)، وهي الوحدات البيولوجية التي تقرأ إيعازات الضوء وتنقلها إلى الدماغ، ويتم زرعها تحت الشبكية من خلال عملية دقيقة تدوم عدة ساعات. وتعمل الوحدات التقنية منذ الآن على إنتاج الأجيال المتطورة القادمة من الرقاقة. والجيل الحالي من الرقائق مصمم لمساعدة المرضى على الرؤية بدقة تبلغ ٠,٠٥، وهي درجة تكفيهم لتمييز الأشياء في محيطهم والتحرك بمفردهم في محيط غريب دون الحاجة لمساعدة أحد.

٩- نظارة ذكية تسترجع المعلومات وتصنفها ثم تعيدها إلى مستخدمها:
في عام ٢٠٠٣م تم تطوير نظارة في أمريكا تحمل شريحة إلكترونية في إطارها، تحفظ ذاكرة تعين لابسها على استذكار المعالم والأشياء. وتعمل الكاميرا بدورها بمساعدة حاسوب جوال، وتستخدم للأغراض الطبية وخصوصاً لمساعدة المصابين بوهن الذاكرة. لكن في العام ٢٠٠٤م تم اختراع نظارة ذكية بذاكرة تسترجع المعلومات وتصنفها ثم تعمل على إعادتها لاحقاً إلى مستخدمها؛ وقد نجح العلماء الألمان في تطوير ذاكرة افتراضية يحملها الإنسان على أذنيه بشكل نظارات وتعيّنه في مختلف الأعمال التي تعتمد الذاكرة. الذاكرة المحمولة قد صممت أساساً للاستفادة منها في فروع الإنتاج الصناعي، إلا أنها تعين المستخدم أيضاً في تذكر أيّن وضع مفتاح شقته، أو في أي ركن من المرآب الكبير ترك سيارته. ويمكن للنظارات الذكية مستقبلاً، بعد تطوير برامج خاصة ملحقة، أن تعين السائق في كشف المخاطر الطارئة على الطريق أو في البحث عن الشوارع بواسطة نظام تحديد المواقع من الأقمار الصناعية. وستجد النظارة الذكية تطبيقاتها أساساً في قطاعات نصب الأجهزة الإلكترونية، لأنها تحفظ خطوات العمل ثم تعيدها مجدداً، إن هذا يؤهل أحد مصلحي السيارات مثلاً، لتفكيك جزء من السيارة بشكل منهجي دون أن يصنفها أو يرقمها، ثم يعيد تركيبها بالتسلسل بمساعدة النظارة. وهذا يعني أن من الممكن تصوير شيء بواسطة الحاسوب ومنحه اسماً ثم حفظه، لتنتقل المعلومات لاحقاً من الحاسوب إلى ذاكرة الكاميرا الذكية كي تعينه في التعرف على الشيء. ومن الطبيعي أن

تعمل الكاميرا بصحبة حاسوب جوال صغير خفيف الوزن يتيح للمستخدم تصوير الأشياء أنياً وحفظها في النظارة للاستفادة منها لاحقاً.

كما يطرح للبيع حالياً، وفي أول مزاد للتقنية الحديثة في العالم، ما يصفه مسؤولو الترويج بأنه فتح تقني جديد يمكنه عمل كل شيء، من زيادة درجة الأمان في قيادة السيارات إلى انتقاء الثمار الناضجة وقت جمع المحاصيل! إنها شريحة حاسوب مبصرة تقلد وظائف العين البشرية، من إنتاج شركة للدراسات البصرية، وهي شركة بحوث فرنسية خاصة. والشريحة التي تشبه عين الإنسان في قدرتها على التمييز بين الألوان ورصد الحركة يمكنها تنفيذ نحو ٢٠ مليار أمر في الثانية، مقارنة مع بضعة ملايين فقط تنفذها معالجات الحاسوب، ويمكن إنتاج الشريحة بكميات كبيرة بكلفة ستة دولارات للقطعة.

١٠- محاولات لتحقيق اندماج الجسم البشري والحاسوب:

إدماج الجسم البشري مع الحاسوب يمهد الطريق إلى الاندماج بين المعالجات الذكية والذات الإنسانية وهواتف جواله تزرع في الأرجل وحواسيب في الركبة بنظم لتحديد الموقع العالمي:

يعد استخدام الهواتف الجواله الصغيرة والآلات الشخصية الدقيقة وأجهزة عرض الفيديو الرقمي الجواله شيئاً جميلاً، غير أنه بالإمكان جعل هذه الأجهزة أخف وزناً إذا زرعت جراحياً تحت جلد بشرة الإنسان في منطقة القدم. لقد مهدت لهذه الفكرة شركة «ابلايد ديجيتال سولوشن» ومقرها مدينة «بالم بيتش» في ولاية فلوريدا الأميركية، وقد بدأت برنامجاً يعتمد على زرع رقائق تحت جلد الإنسان واستخدام تقنية التعريف

بالمهوية الشخصية بالموجات اللاسلكية، التي استعملت من قبل في أجهزة «أي - زياس»، وقد كانت الرقائق القابلة للزرع قد استخدمت منذ سنوات لاقتفاء آثار الحيوانات الأليفة. ويبلغ حجم الرقيقة التي أطلق عليها اسم «فيري تشيب»، حجم حبة الأرز وتحمل عدداً يسند إلى حاملها. وتعتقد الشركة أن الرقيقة ستمكن الأشخاص المؤهلين فقط من الإطلاع على أي معلومات ضرورية. كما يتوقع أن تسهل الرقيقة المذكورة الدخول إلى قاعدة البيانات الشخصية مثل الملفات الطبية.

وهنا نقول: إن أجسادنا إذا أخضعناها إلى مادة السيليكون، عندها تكون الاحتمالات الضارة لا نهاية لها، بل قد ينتهي الوجود الإنساني بالمعنى الحقيقي. أما تقنيات «النانو، Nanotechnology» (التقنيات المتناهية في الصغر)، فلم تعد من باب الخيال العلمي، بل أصبحت حقيقة واقعة تحظى باهتمام العديد من دول العالم المتقدمة، إذ أنها تبشر بثورة علمية جديدة في المستقبل القريب في شتى مجالات الحياة. هذا الاكتشاف يعتبر من الاكتشافات الثورية التي أسست لفرع جديد في الكيمياء يسمى «كيمياء الذرات المنفردة»، والذي يمهّد بدوره لطفرة طبية سوف تسهم في علاج العديد من الأمراض التي وقف العلم عاجزاً أمامها سنوات طويلة.

تقنية «النانو» هي تقنية مستحدثة، وكلمة «النانو» مشتقة من كلمة «نانوس» الأغرقيّة وتعني القزم، ونستخدمها اليوم للدلالة على واحد من المليار من المتر، ويتعامل العلماء والمهندسون مع المادة في هذا المقياس على مستوى دقيق جداً، أي على مستوى الذرات والجزيئات النانوية، ليس لبناء

أجهزة نانوية فحسب، بل لخلق مواد جديدة ذات ترتيبات وتجمعات وخصائص مبتكرة، تفتح آفاقاً جديدة في العلوم والتقنية، منها: إمكانية تحريك الذرات والجزيئات بدقة لإحداث تفاعلات كيميائية، مما يؤدي إلى تصنيع أو تعديل بعض الجزيئات الأحيائية المهمة. وتتمثل قاعدة التقنيات النانوية العلمية في مسألتين: الأولى بناء المواد بدقة من لبنات صغيرة، والحرص على الصغر يؤدي إلى مادة خالية من الشوائب ومستوى أعلى جداً من الجودة والتشغيل.. والثانية أن خصائص المواد قد تتغير بصورة مذهشة عندما تنجز إلى قطع أصغر وأصغر، وخصوصاً عند الوصول إلى مقياس «النانو» أو أقل، عندها قد تبدأ الحبيبات النانوية في إظهار خصائص غير متوقعة، ولم تعرف من قبل، أي غير موجودة في خصائص المادة الأم.

إن تطبيقات تقنيات «النانو» في الطب والعلاج كثيرة ومتعددة، ويتركز أهمها في مجال تشخيص الأمراض وإيجاد الأدوية المناسبة الفعالة. وهناك تطبيقات مهمة مرتقبة لاستعمال الحبيبات النانوية المضيفة، في مجال تشخيص الأمراض، مثل حبيبات السليكون أو الكاديوم ككاشف ومعلم ضوئي للمواد الحيوية، وما يرجح من هذه الحبيبات هو إيجاد حل للمساوئ والمشاكل التي تعترض الطرق المستعملة حالياً للتشخيص باستخدام الأصبغة العضوية، ويتوقع إذا ما حلت الحبيبات محل الأصبغة أن تعطى حساسية وسلامة وقدرة أعلى في التفريق بين المواد الحيوية، وأيضاً سرعة أعلى في إعطاء النتيجة وأخذ القرار، وهو ما سيقبل من الوقت والجهد والتكلفة.

لكن ظهرت الكثير من المخاوف المشروعة من استخدام تقنيات «النانو»، وذلك بسبب إمكانات التدخل في المركبات الحيوية للإنسان. إن تقنيات «النانو» سلاح ذو حدين، فهناك إمكانية تحريك الذرات أو الجزيئات لإحداث تفاعلات كيميائية، مما يؤدي إلى تصنيع أو تعديل بعض الجزيئات الحيوية المهمة، وقد تؤدي هذه القدرة إلى بناء مركبات معقدة بنوية مثل المستقبلات والإنزيمات والأجسام المضادة والهياكل الخلوية، التي يكون تصنيعها مكلفاً وصعباً باستعمال تقنيات الكيمياء الصناعية الحالية. وهناك من يقول: إنه من الممكن تصميم وعمل كائنات حارسة أو ملتزمة في الدم متفوقة على الخلايا البيضاء والعوامل الأخرى في وراثتنا البشرية؛ وكذلك يمكن تصميم بكتيريا جديدة يمكن برمجتها وإدخال المعلومات الوراثية بواسطة جسيمات فيروسية مصنعة، إلى خلايا مشوهة وراثياً للمعالجة والتصليح؛ كما يمكن تصنيع آلات روبوتية صغيرة تدخل في الجسم وتوجه لإجراء جراحة معينة أو مراقبة الأعمال الوظيفية في الخلايا. ويبدو أن النقاد قد أهملوا جانباً مهماً في هذه التقنية، وسبباً آخر لإيقاف تنفيذ هذا البرنامج على الفور، ذلك أن إدماج الجسم الإنساني والحاسوب سيمهد الطريق إلى المزيد من برامج الاندماج بين الدوائر الكهربائية والذات الإنسانية! مما يشوه بنية الفرد الجسدية والنفسية. وربما يصل الوضع لحمل الخلايا سماعات وأجهزة راديو وتلفزيونات وأجهزة مناداة رقيقة! وإذا أصبح السليكون المادة الأكثر شعبية في عمليات تحميل المستقبل، فسوف تتمكن من التغلب على أكبر عائق يمنعنا من أن نصبح مزودين لاسلكياً، بالمعنى التام (!)

١١- استخدام الجين المعجل لنمو قرون الأيل لتسريع نمو والتحام عظام الإنسان:

وجد العلماء الألمان في قرون «الأيل» أداة مساعدة لنمو والتحام الكسور في عظام البشر! ونشر أستاذ البيولوجيا في جامعة «غوتنغن»، في مجلة «ناشيونال جيوغرافي - دويتشلاند» أنه على وشك عزل الجين المسؤول عن تعجيل نمو قرون «الأيل» بهدف استخدامه في الإنسان لتعجيل نمو العظام والتحامها. كما نشر في عدد فبراير (شباط) ٢٠٠٥ م من المجلة أن الجين المسؤول عن نمو قرون «الأيل» يمكن تقبله من قبل عظام البشر، وهذا يعني إمكانية زرعه في العظم المكسور، أو المراد تطويله، أو زرعه في العظام المستتبة مختبرياً بهدف تسريع نموها لاحقاً في الجسم. وحالياً يستخدم الجين في طبقة مستتبة مختبرياً من العظام ليكسو بها العظام المكسورة أو الأجزاء الصناعية المزروعة بهدف تحسين التحامها مع العظام الطبيعية. كما يعمل منذ الآن لاستنبات خلايا أساسية مستمدة من المريض، ومن ثم لاستخدام جين قرون «الأيل» في تنميتها بسرعة إلى عظام بديلة. وقد تناسى العلماء الدور الذي تقوم به هذه القرون في العدوانية والتي قد يحملها نفس الجين المنقول للإنسان! فهل من متأمل؟

وبعد طرح الأمثلة السابقة، تُرى: هل يمكننا التفاوض أم التفاوض بما تحمله المكتشفات الحاسوبية الجديدة من إمكانيات خارقة لمقاومة مخاطر الأمراض وغيرها من المشاكل التي سوف تتفاقم في الألفية الثالثة؟ لقد حقق التقدم التقني إنجازات هائلة ومروعة في الوقت ذاته، فهو قد مكّننا من تحسين

صور الحياة، وكفل لنا أدوات ازدهارنا والتجديد الدائم لرفاهيتنا، كما سهل لنا استمرارية التقدم ووفر لنا فرصاً لتحسين نوعية الحياة بصورة متصلة. لكنه من جهة أخرى كفيل بتعريضنا لحوادث كبرى، وكمثال على ذلك: عطل الحواسيب. هكذا لا بد أن ننظر إلى التخطيط للمستقبل بعين الحرص والحذر الشديد، حيث إن ما ينتجه المستقبل من اختراعات قد يفوق كل ما يمكن أن نتخيله سلفاً. ولكن هذا الخيال يجب أن يكون مزيجاً من السعادة والألم.. لقد أصبح الحاسوب رمزاً للعصر السريع، ورمزاً للحضارة الحديثة، بما تقدم من ازدهار ودمار في الوقت ذاته.

- الحد من سلبيات التقنية:

هل يمكن الحد من بعض سلبيات التقنية إن لم يمكن منعها على الإطلاق؟ يجب أن نعرف أولاً أن الدماغ البشري لم يصمم ليستوعب أو يتلاءم مع هذه السرعة الهائلة ومع هذا السيل الجارف من المعلومات المتدفقة؛ بل لقد خلقت جميع مظاهر الكون بتوازن مع عقل الإنسان. انظر كيف جعل الله التوازن بين المتضادات في الكون، الليل والنهار، الحركة والسكون، الشر والخير. إذن لا بد للفرد أن يفكر دائماً في كيفية التوازن بين قدرة استيعاب العقل ومعطيات الحياة الحديثة، ثم يجعل تحقيق ذلك التوازن هدفاً أساسياً له في الحياة. وعادة ما يهتدي الفرد في أثناء حياته إلى ما يعيد إليه التكيف والتوازن، ولكن لا بد له من وقفة تأمل وتذكير بين الحين والآخر. وأكبر مشكلة تواجه الفرد هي عصبونات الدماغ التي لاتنقل عن تخزين جميع التجارب الحسية والنظرية التي يمر بها، وهكذا لا ينسى الفرد بل يتناسى، وتظهر عليه دائماً الخدوش والجروح التي تخلفها معطيات الحضارة أثناء

مسيرتها. وقد واجه الفرد هذه المشكلة على مر العصور، لكنه اليوم يعاني من تشوه العقل والجسد معاً وبشكل مفرط؛ حيث تظهر عليه كافة أنواع الخدوش، وسواء أكانت تلك الخدوش ملموسة أو غير ملموسة، فإنها سوف تؤدي في النهاية إلى الألم النفسي وربما الجسدي أيضاً.

لقد أدى هذا التضاد بين تصرف العقل وتصرف الجسد إلى انفصام في شخصية الفرد الحديث، وقد ظهرت بعض آثار هذا الانفصام على شكل ارتفاع مستوى التوتر والانفعال لدى الأفراد، كذلك على شكل ضعف التركيز وكثرة النسيان، بل أصبح الفرد لا يملك حرية التصرف في حواسه، فهناك دوماً ما يتسلل إلى حواسه خلصة من معطيات الحضارة الحديثة، قد يكون مفيداً وقد يكون ضاراً^(١). وعلى سبيل المثال فإن الحواس الخمس للفرد تستقبل كل ما يدور حولها ثم تخزنه بانتظام في العقل اللاواعي بينما لا يستطيع العقل الواعي متابعة وتحليل ما تشعر به حواسه، هكذا ينشأ التصادم بين الوعي والذاكرة الخفية للفرد. لكن هل يتحتم على الفرد فهم وإدراك كل ما يراه أو ما يسمعه أو ما يمر به من أحداث عشوائية؟ كلا، حتى ولو حاول فلن يستطيع إلى ذلك سبيلاً. ولكن لو أراد الفرد أن يختار من البدائل المطروحة أمامه فلا بد أن يستوعب أولاً معطيات الحضارة، ثم يتحقق مما يطرحه من بدائل مع توقع نتائجها مسبقاً حتى يختار منها بإرادته. قد لا يكون من صالح الفرد أن يتعمق في فهم كل ما تستقبله الحواس، أو في

(١) ميخائيل أبشتين، مرجع سابق.

محاولة رؤية الأشياء بالمكررات لأنه قد يجدها بشعة جداً! أو في تحميل نفسه مالا تطيق، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عِنْدَ مَشْوَلٍ﴾ (الإسراء: ٣٦)، وفي الحديث الشريف: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» (أخرجه الترمذي).

إن النفس البشرية كآفاق الكون الفسيح، في التكوين والتوارخ وفواصل المنحنيات، وهي تتأثر بشكل أو بآخر بكل ما يصدر من حولها من ذبذبات مختلفة، سواء كانت مادية أو معنوية، وهكذا وجب علينا الحذر في التعامل مع جميع أشكال الذبذبات الصناعية وبالذات الذبذبات الخاصة بتقنية الاتصالات.

وفي هذا السياق نود مشاركتكم في قراءة هذا المقال الرائع في كشف أضرار استخدام الآلة، وهو بعنوان: «الرقص فوق أسلاك إلكترونية»، بقلم الأستاذ أيمن عبوشي، والذي تم نشره في جريدة (الرأية) القطرية بتاريخ ٢٠٠٠/٤/٢١م:

إن الاستواء الدائم أمام شاشة الحاسوب من شأنه أن يُصير البشر كائنات مروّضة لا تتقن عملاً ذاتياً إرادياً، بقدر ما تتداول أسلاكاً نحاسية في شبكة واسعة تصهر الأفراد في أتون حضارة المكننة. قبل الاجتياح التقني المادي، كان الإنسان يملك قليلاً من الحرية، وكثيراً من الإرادة. فالقيود التي كبلت الإنسانية لعصور خلت نمت فيها إدراكها لجوهر قوتها ومن ثم خلقت في نفسها رغبة عارمة نحو التغيير... وأوجدت هذه الطاقة الفكرية الهائلة عالم الأداة المعاصر، ونقلت المبادرة من يد الإنسان إلى تروس الآلة، ليستنفد

الفرد وظائف الأداة، لكنه لم يع أنه يفقد سيطرته على نفسه ويتركها في آن معاً العوبة في يد مجموعة من المحركات والآلات كان هو من أوجدها.

ليست هذه الفكرة الفلسفية اجتراراً لتأملات المفكرين حول انقلاب «الروبوت» على صانعه ليصبح الإنسان الخلاق عبداً لدميته المتحركة، وليس التأمل بتلك السذاجة للتقليل من قدر المخترعين أو تحقير إنجازاتهم والتهوين من قدسية العلم، مع أن التكنوفوبيا هاجس حقيقي يؤرق الكثيرين، والمسألة ليست في كونها ردة فعل متخلفة حيال موجة التقدم أو هي خوف من قبل البعض من عدم مجازة هذا التطور الآلي المطرد. إن القضية تكمن في فهم أعمق لقدرات الإنسان وحاجاته قبل إطلاق العنان لشهوته، وفسح المجال أمام مكامن الراحة والانبهار في داخله للحيلولة دون أن تكون أداتنا الطيعة بندولاً يرقدنا في سبات العصر الألفي الجديد.

هي ليست حرب نشنها على الوسائل الحديثة ولكنه تقييم - من طرف واحد - لنمط حياة يكسو تفكيرنا ومعتقداتنا بمالة من الأبعاد الأربعة، تلك المهالة التي كنا نأملها في أذهاننا وكانت تقودنا للابتكار، لكن حين صرنا نراها بأمهات أعيننا في شاشات الحواسيب خسرتنا هذه المهوبة وتركنا الدفة للشاشة كي تقودنا إلى عوالم الأرقام المجردة.

هذه الأسلاك النحاسية تركت في نفوس أجيال سابقة غصة من الأسى مع وداع أسلوب الحياة القديم واستقبال شكل جديد من التعامل مع الكلمة. فقبل فترة وجيزة نشر كتاب جديد على موقع خاص بالإنترنت باسم (ركوب الرصاصة) للكاتب الأميركي «ستيفين كينغ»، هذا الكتاب

لم ير النور في إطار ورقي بل حُسم أمره كموقع إلكتروني يمكن الإطلال عليه عبر رصد مبلغ من بطاقة الاعتماد لأي مطل، وقد يكون هذا الكتاب قد دق الناقد اختفاء عالم الورق وبزوغ الصفحات الإلكترونية. بيد أن هذا التحول الثقافي في الشبكة لا يلقى اهتماماً من قبل مستخدمي الإنترنت، أما الدارج فينحصر في مجالات الاتصالات والتخاطب والتسويق والخدمات المصرفية والتجارية والترفيهية وكل ما يتجاوز حدود القانون، أما الثقافة كمادة مطروحة فقد همت مع فتح الباب أمام المد الجارف من كل غث وسمين، فالكل صار بإمكانه أن يطرح ما يشاء من عصارة عقله السطحي. ويمكنك أن تجرف ما تريد من الآراء والمطروحات الهزيلة. لكن إذا أراد أحدنا أن يستدل ببرنامج البحث الذي توجده الشبكة ليصل إلى معتقد ما أو يبيّن رأياً في قضية ما فسوف يتعثر بمئات المواقع الاجتهادية من أفراد سنحت لهم فرصة التعبير هذه عن آرائهم المستقاة من قراءات متفرقة وميول شخصية لا تُضفي صفة الموضوعية على الجانب العلمي.

وفي نفس الوقت يقول الخبراء: إن تأثير الإنترنت على المطبوعات الورقية لن يكون كبيراً، على اعتبار أن الربع فقط من محتوى الشبكة، والذي يصل إلى قرابة المليار موقع، يعد حرياً بالإطلاع. لكن النسبة الغالبة من الأباطيل في هذه السوق المفتوحة لم تنفّر الناس من الشاشة الإلكترونية بل بالعكس، فهي تستقطب عيوناً أكثر؛ أما الكارثة فهي أن الجيل الذي بدأ ينتج من هذه الثقافة قد اختلفت طريقة تقييمه للأشياء، وذلك لتأثره بنمطية التعاطي مع البشر والمعلومة في قنوات الاتصال الحديثة، إذ اعتمد هذا الجيل

على وسائل الراحة والترفيه وغيرها من البدائل المتاحة.. على أن هذه التسهيلات الخدمائية إنما تجيء على حساب البصيرة الذاتية، كما تضاعف إمكانية التبعية من خلال هيمنة الدعاية وإغراءات وسائل الترفيه. المشكلة أن هذا الجيل يثق في إمكاناته ثقة عمياء، معتقداً أن سيطرته الكاملة على الآلة توجد لديه القوة العضوية القصوى، دون أن يعرف أنه يفقد سيطرته على نفسه أولاً. فأوهام القوة المتاحة للأفراد تنطلق من خيالات السيطرة التي تمهد لها الأجهزة المستخدمة من سيارات وهواتف وحواسيب وغيرها، وقد كثرت بالتالي الأمراض السيكولوجية في العصر الحديث، حتى لو انخفضت نسبة الوفيات الناجمة عن الأمراض الفسيولوجية المزمنة. ويعود هذا الاضطراب النفسي إلى اختلال العلاقة بين الفرد والمحيط. كما أن هذه النزوات قد ضاعفت القسوة في قلوب الناس، ولا أدل على ذلك من إقدام الأطفال في المدارس الأميركية على قتل أقرانهم بالأسلحة الأوتوماتيكية محاكين بذلك أبطال أفلام العنف في هوليوود. إن مرور عقود من الزمان من الآن كفيل بالوصول إلى شعوب مدججة، محدودة الوظائف، تفتقر إلى أدنى حدود الوعي بحاجاتها، وتقاد بأحلام إلكترونية، وغير قادرة على الإنتاج، بقدر ما تحسن الاستهلاك، وسيتمحور إبداعها في تحليل الرموز، كما تسترشد بلغة الأرقام، ولن يكون هناك وقت وسط هذه الحركة الهائلة لمعايير باهتة كالبذل والتضحية والعطاء. الأفراد الذين ستتجههم هذه الحقبة مجرد أرقام في عدد كبير للدواعي البيع والشراء، وسيعجز إنسان الإنترنت عن الحلم، وسيفقد بالتالي الإرادة والحرية التي طالما لُت للحاق بما».

الفصل الرابع

دور التقنيات الحديثة في تفشي الفساد الأسري

في العصر الحالي تعددت وتنوعت الدراسات المهمة بتحليل ظاهرة وأسباب الفساد الأسري، وقد أشارت تلك الدراسات إلى كثير من التسهيلات التي قدمتها التقنيات الحديثة وساهمت بها في نشر الفساد. ويمكن تلخيص الأسباب الكامنة وراء الفساد بصورة عامة في النقاط التالية:

- أزمة الطاقة المعروفة عالمياً، مما أدى إلى تشوش الاقتصاد العالمي وإلى التخطيط الاقتصادي للحدود القومية، مما سبب قلاقل الاقتصاديات الوطنية، وقد أدى ذلك إلى تفاقم مشاكل الديون والفقر والبطالة وانعكاس ذلك كله على الموازنة الاقتصادية للأسرة.

- تفسخ الثقافة الصناعية، ومشاكل المخلفات الصلبة وتناقص الموارد الطبيعية، مما أدى إلى انتشار التلوث البيئي ثم إلى تفاقم الأضرار النفسية والجسدية للأسرة.

- الأمراض الإعلامية، مثل إلغاء الخصوصية وصياغة الأحداث الكاذبة بصورة مقنعة وغير ذلك من الأساليب المتلوية التي جعلت الشك هو السائد في ما بين الأفراد. وقد ساهم غياب المؤسسات الخيرية الرسمية والأهلية

والاجتماعية عن الاتحاد في مواجهة هذا الفساد الفكري والاجتماعي، ساهم في ظهور الطبقة والظلم الاجتماعي وترسخ جذور التعصب والعنصرية، وتشهد على ذلك أحداث فرنسا وألمانيا في نوفمبر ٢٠٠٥م.

- تداخل الثقافات واختلاط القيم الأخلاقية، حيث تسرت سبل تطبيع الفساد الأخلاقي، الذي ساعدت عليه بعض النظم السياسية والاقتصادية ! هكذا ساءت السلوكيات العامة واختفت بعض القيم والمبادئ العليا حتى بين أفراد الأسرة الواحدة .

- أزمة الأمن المعروفة عالمياً، بالإضافة إلى انتشار الأسلحة النووية وتفشي الإرهاب وتسهيل وسائله من خلال الحواسيب والإنترنت؛ كل ذلك أدى إلى قصور التوقعات في مكافحة الجرائم الفردية والجماعية.

- تفشي تقنيات العولمة «الأخلاقية»، عن طريق الفضائيات والإنترنت وانتشار الجنس المثلي واستخدام المخدرات وظهور الأمراض المترتبة عليها كالايدز وخلافه؛ كذلك تفشي تقنيات التدخين والخمور والمسكرات، وقد ساهمت التقنيات في خفض سعرها وسرعة تداولها.

- فشل الأفراد في الحد من استخدام الأجهزة المنزلية الضارة، كالحاسوب والتلفاز والميكروويف والخلاط الكهربائي وخلافه؛ كذلك فشل العلماء في تقنين استخدام المنتجات المعدلة وراثياً بالرغم من معرفة آثارها السلبية على الصحة العقلية والجسدية.

- انشغال الأب والأم في العمل خارج المنزل، ربما لفترات طويلة، اعتماداً على بدائل من التقنيات الحديثة، مما أثر على التماسك الأسري وعلى أخلاقيات النشء، كما اشتدت سطوة التقنيات الإعلامية وسيطرتها على جميع أفراد الأسرة.

لاشك في أن النقاط المذكورة ذات مواضيع كثيفة ومتداخلة ونكتفي في هذا الفصل بالتركيز على النقاط الثلاث الأخيرة منها، نظراً لصلتها الوثيقة بموضوع الكتاب؛ وللمزيد من التفاصيل في تلك المواضيع يمكن الرجوع للكتب التالية: أزمة الحضارة للمفكر «جوزيف كاميليري»^(١) وكتاب: خرافة الحضارة الأوروبية للمفكر عطية عامر^(٢) وكتاب: النظرية الاجتماعية «لأيان كريب»^(٣) وكتاب: الصراعات للمفكر «إدوارد دي بونو»^(٤) ثم كتاب: نقد العقل المتخلف للمفكر يوسف عوض^(٥).

(١) جوزيف كاميليري، أزمة الحضارة، ترجمة فيصل السامر (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٨٤م).

(٢) عطية عامر، خرافة الحضارة الأوروبية (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٠م).

(٣) إيان كريب، النظرية الاجتماعية، ترجمة محمد حسين غلوم، عالم المعرفة (٢٤٤) ١٩٩٩م.

(٤) إدوارد دي بونو، الصراعات، ترجمة فاطمة السنوسي (أبوظبي: للمجمع الثقافي، ١٩٩٧م).

(٥) يوسف عوض، نقد العقل المتخلف، بحث في أزمة الوجود الحضاري عند فقراء العصر التقني (بيروت: دار للقلم، ١٩٨٥م).

- سطورة التقنيات الإعلامية على أفراد الأسرة:

لقد ساهمت التقنيات الإعلامية في عمليات غسل الأدمغة البشرية، على المستويين الفردي والجماعي، بل توجد محاولات لتغيير السلوك الفردي بشقئ الوسائل والطرق. وتلعب إعلانات البث الإذاعي والتلفازي دور المتحكم في سلوك الفرد إلكترونياً أو بالتحكم عن بعد أو عن طريق الرمجعة وغسل الأدمغة، ربما لتدمير كل ما نصت عليه المواثيق والأعراف والأديان. أما قولبة التفكير فتمت بكل سهولة ويسر عن طريق نشر الأفكار المسمومة في أجهزة الإعلام المختلفة والتي غالباً ما تحقق أهدافها في إقناع الشعوب سياسياً واقتصادياً وأخلاقياً. وقد أسست وسائل الإعلام والدعاية الجماهيرية العملاقة دعائم العولمة الشمولية، كما تغلغلت في الحياة الشخصية بحيث لم يعد هناك فرد مستقل على الإطلاق. وقد يكون هذا هو السر في عودة بعض الشعوب لمرحلة الصراعات العرقية والطائفية للاحتجاج بشكل غير واع على تقنيات العولمة التي سرقت منهم تفاصيلهم الحميمة ثم صهرتها في صورة صنم ضخم جعل من الجميع دون استثناء عبيداً له. ولقد طورت التقنية المعاصرة فرداً مستعبداً، سواء كان رجلاً أم امرأة، خاضعاً لمتطلبات السوق ولدعايات التقنية السائدة. وها هو الفرد يزحف ويتقهقر باتجاه الصفر الذي بدأ منه، فالتوازن بين الإنسان والطبيعة مهدد بالفقدان،

والدليل عودة أكثر من ثلاثة وعشرين مرضاً تقليدياً منقرضاً إلى أرقى عواصم العالم^(١).

- قهر المرأة والطفل بالتقنيات الإعلامية:

لقهر المرأة والطفل بالتقنيات الإعلامية أشكال وألوان، بعضها مغطى بألوان براءة مغرية، وذلك لتسهيل دس السم في العسل. ومن أكثرها شيوعاً إغراءات الدعاية والإعلان والتسهيلات المادية التي تسهل الشراء غير المحدود من المنتجات التي قد يثبت فيما بعد أن ضررها أكبر من نفعها؛ كذلك الترويج للتقنيات على شكل جوائز وهدايا قد تكون ذات ضرر كبير للفرد والبيئة. للأسف الشديد فقد تم إدخال المرأة في كافة وسائل الإعلام وبالذات في الإعلانات المرتبطة بالتقنيات المختلفة ولكن بشكل مشوه جداً، هكذا رضيت بعض النسوة وبكل غباء وغفلة أن يهنّ بنات جنسهن وأن يكن عنصراً رخيصاً في وسائل الإعلام المختلفة.

أما الغرب الأكثر ثرثرة عن حقوق الإنسان، ومنها حقوق المرأة والطفل، فقد ساهم عبر تسليع الانثى إعلانياً وتقنياً وفي استباحة الملايين منهم؛ ناهيك عن شبكات المافيا التي استغلت ذلك وبرعت فيه عالمياً. وقد أصبح سوء استغلال الطفل مما يندى له الجبين، ويكفي أن نشاهد القنوات الفضائية وما يسمى «بالفيديو كليب» لفترة وجيزة لنرى تلك الحشود

(١) شوقي أبو شعيرة، انتحار الحضارة: فوضى القرن العشرين (القاهرة: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٤م).

الهائلة من الأطفال وهي تتراقص في أوضاع وحركات مزرية، وربما تتردد كلمات متدنية تكون قدوة للأطفال الآخرين! كما وأن المرأة والطفل هما المفضلان في الدعاية والإعلان حتى عن أتفه المنتجات وأرخصها، بل ربما استغلا في الدعاية لمنتجات ضارة أو لا أخلاقية. بل إن الإعلان التجاري اليوم لآلاف المنتجات والتقنيات قد لا يكون إلا مع امرأة متبرجة أو طفل غير مهذب! ولا فرق لو كان ذلك إعلان لشفرة الخلاقة أو للسماد الزراعي. ولن ننسى الانعكاسات السلبية النفسية على المرأة نفسها من جراء وجودها كسلعة تباع وتشترى، بداية من معاجين الأسنان وحتى عطور الرجال؛ بل أصبحت بعض النساء وفي ظل التقنيات الحديثة جوارى حقيقية ولكن بمسميات عديدة مهذبة.

كما ساهم الإعلام التقني في الترويج لقضية عمل المرأة التي تستغل باسم الحرية والتقدم، وهي في الحقيقة من العوامل المساهمة في تفكك الأسر وضياع الأطفال، ناهيك عن الاتجار بالنساء في عروض الأزياء ومسابقات الجمال وبرامج التلفاز والسينما وأفلام الفيديو الإباحية، وغير ذلك مما حظ من قدر نساء اليوم، بل وأصبحن يتعرضن للاغتصاب والعنف جراء ذلك. والأسوأ من ذلك هو استغلال مقاتن بعض النساء، ليس فقط في الدعاية والإعلان بل حتى في مواقع العمل! وفي بعض الدول قد يكون المطلوب من المرأة العاملة أن تكون جارية مثيرة، وكلما زادت درجة التبرج وإبراز المقاتن كلما حصلت على عمل أفضل وبأجر أكبر! وقد تغض الطرف عما تتعرض له من تحرشات جنسية خوفاً من الفضيحة أو رضوخاً لمطالب رب العمل.

وليس أبلغ من التعبير عن مدى خطورة وانتشار التحرش الجنسي أن قام مهندس أوروبي صربي الأصل يدعى «سلافومير آدموقتش» باختراع جهاز إنذار صغير مضاد للتحرش الجنسي، يحاط في الثياب بحمي المرأة من أي محاولة للمامستها أو الالتصاق بها. يصل حجم الجهاز إلى حجم زر الثوب، ويوضع في أي موقع على ملابس المرأة الداخلية أو الخارجية، والجهاز موجه ضد الأشخاص الذين يتحرشون بالنساء في مواقع العمل. ويطلق الجهاز صافرته مما يخرج الأشخاص المسيئين ويمنع الآخرين من أي محاولات للإساءة إلى الموظفين داخل المكاتب. ونقل موقع «نانوفا.كوم» في الإنترنت عنه، أنه ورغم اهتمام جهات صناعية من اليابان وتايوان بالاختراع، إلا أن المخترع قد وقع العقد مع شركة إيطالية كبرى لصنع الملابس الداخلية!

هكذا تتداخل التقنية مع أدق خصوصيات المرأة، مما يسبب لها أضراراً صحية واضحة وشديدة الخطورة.

– التقنيات تسهل تجارة البغاء والتهریب:

في مؤتمر الأسرة، الذي انعقد في إطار الأمم المتحدة (يونيو ٢٠٠٥م) جاءت أرقام مريعة بشأن استغلال المرأة. وفي تقرير حديث للمخابرات الأميركية تم نشر حقائق مرعبة، منها أن أكثر من خمسين ألف امرأة وطفل تدفع بهم عصابات ألفافيا إلى السوق الأميركية سنوياً وهم الفقراء من قارات آسيا وأفريقيا وشرق أوروبا، والمصائر النهائية هي دور الدعارة أو الخدمة في المصانع بأجور زهيدة أو تهريب المخدرات أو الجرائم السلوكية

الأخرى^(١). وفي تقرير موثق للخارجية الأمريكية: يوجد ما يقرب من أربعة ملايين امرأة على نطاق العالم يدفعن سنوياً للعمل بالدعارة والخدمة في المصانع إلى درجة تصل إلى حد العبودية، وكذلك هو الحال مع تجارة الأطفال. أما على نطاق الدول فالتقرير يصل إلى تقدير مثير في دولة واحدة هي الهند، حيث يجري إجبار ثمانمائة ألف سيدة على امتهان الدعارة أو العمل في المصانع، وهو وضع متكرر في الفلبين وتايلاند وكامبوديا وبعض الدول الأفريقية. ويقول خبراء حضروا الاجتماعات: إنه نتيجة لذلك فقد لجأت نيبال لتعيين العاهرات السابقات كحارسات على الحدود لمنع تهريب الفتيات الصغيرات من بعض القرى واستغلالهن في الدعارة بالهند، بعد أن ثبت أن تجار الجنس يدفعون الرشاوى لإتمام عملية التهريب. الصلة هنا ليست قائمة بين فقر المرأة وانحرافها فقط بل فيها دلالة واضحة على مدى الدور الذي تلعبه التقنيات الحديثة في الحط من شأن المرأة من قبل مؤسسات شبه رسمية^(٢)؛ وبعد أن كانت بعض النسوة يجبرن على البغاء ربما أصبح بعضهن اليوم يمارسنه بمحض إرادتهن، تمشياً مع الكسب المادي لمفاهيم العصر وبمساعدة التسهيلات التي تقدمها التقنيات المتطورة. كذلك أصبح الفنن في تصوير المرأة العارية هي هدف لتطوير تقنيات التصوير التي أصبحت بالغة الدقة والحساسية؛ بل أصبحت الصور الجنسية هي المحور

(١) معهد بحوث الأمم المتحدة للتنمية الاجتماعية (UNRISD)، حالات فوضى، الآثار الاجتماعية للعولمة، ترجمة عمران أبو حجلة (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٧م).
(٢) علي أمين المزروعى، القيم الإسلامية والقيم الغربية، سلسلة دراسات عالمية، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية (٢١)، ١٩٩٩م.

الغالب للأفلام والأغاني والمسلسلات! هكذا تم استغلال النساء والتحرش
بهن بأبشع طرق التقنيات وأرخصها، فماذا ينتظرن بعد ذلك؟
كما أن قنوات التهريب تكاد تعتمد على النساء والأطفال، وهي
تتعامل بكل المنوعات من الأسلحة والذخيرة وحتى المخدرات.
- التقنيات الواقية من الحمل.. هميش لكرامة المرأة:

استناداً على ما ذكر آنفاً نستطيع القول: بأن هميش كرامة المرأة
باستخدام التقنيات أو بدونها هو هميش مقصود لقضية الإنسان بصورة عامة؛
وقد خرجت التوصيات في يونيو ٢٠٠٠م ومن خلال الدورة الخاصة للجمعية
العامة المختصة بمتابعة توصيات المؤتمر العالمي الرابع للمرأة الذي عقد في بكين
عام ١٩٩٥م، بأهمية إطلاق الحريات الجنسية لنساء العالم استناداً على
التقنيات الواقية من الحمل! بل دعت الورقة الأميركية المقدمة لتلك الدورة، في
هيئة اقتراح، إلى إباحة الإجهاض مع تعليم المرأة تقنيات التخلص من الجنين إذا
كانت لا تريده! إن السماح للنساء بالتحرر الجنسي وممارسة الجنس بالصورة
التي تراها ومع من تشاء تدل على مدى الاعتماد على تقنيات التقدم الحضاري
لوسائل منع الحمل، تلك التي باتت متنوعة ومتوفرة!

كذلك فإن (مؤتمر الإنسان والثقافة في استكهولم عام ١٩٩٨م) قد
ساهم في مسائل التشكيك في الأدوار الجنسية والأسرية لكل من الرجل
والمرأة، وفي المفهوم التقليدي للأسرة، وفي اعتبار الأسرة كوحدة أساسية
للمجتمع؛ إن هذا التحلل كفيف بتحطيم الحياة العامة والخاصة للفرد
وللمجتمع على حد سواء. وفي تناقض واضح أعلنت وزارة الخارجية

الأميركية بأن الولايات المتحدة قد لا تساهم في برنامج حول الجنس تنظمه المنظمة العالمية للصحة؛ لأن هذا البرنامج يتضمن بحثاً حول الأقراص المجهضة (ار.يو-٤٨٦).

وقد فطنت بعض النسوة الرائدات إلى «أكذوبة» تحرير المرأة، وأنها أطلقت ثورة ضد المرأة وليس لها، وأنها تدمر للأثوية لا لرعايتها، كما أدركت أنها قد شجعت المرأة على استخدام بعض التقنيات كي تتحول إلى سلعة رخيصة فيما ظنت أنها تبعث الحياة في وجودها. لقد ألغت ثورة تحرير المرأة وضع المرأة الأم والزوجة والابنة التقليدي، كما ألغت أيضاً وضع المرأة كامرأة ومخلوق جميل وكان بشري؛ كذلك فإن كثرة الحقوق التي تطالب بها المرأة قد أضاعت معنى الوجود وهدفه وطبيعته؛ بل إن سهولة استخدام التقنية قد حولت الحياة الأسرية إلى وحش متلهف لا ابتلاع كافة السلع. ومن جهة أخرى فإنه يمكن تقدير العمل المنزلي الذي تقدمه المرأة والذي يمكن تقييمه اقتصادياً بل ويمكن إدخاله في حسابات الناتج المحلي لأي دولة، وإذا ما جرى التسليم بذلك فإن ميزان المساواة بين الرجل والمرأة سوف يختلف وسوف يتضح أن مساهمة المرأة في الاقتصاد ليست أقل من مساهمة الرجل^(١).

وفي مثال واضح، أشار استطلاع، نشر حديثاً، إلى أن معظم النساء اليابانيات العازبات يفضلن عدم الزواج، ويعتقدن أن بوسعهن العيش سعيدات بمفردهن بقية حياتهن! وقالت نحو سبع من بين كل عشر نساء عازبات، استطلعت صحيفة «يوموري» اليومية المحافظة آراءهن: بأنهن

(١) علي أمين المزروعى، المرجع السابق.

يفضلن البقاء بلا زواج! كما أوضحت الصحيفة أن «هذه النتيجة تعكس اتجاهاً حديثاً بين العازبات اللاتي لم يعدن يربطن بين نظرة المجتمع واختيار العيش بمفردهن»، كما أن ٧٤% من الرجال والنساء، الذين شملهم الاستطلاع والذين هم في العشرينيات من أعمارهم، قالوا: إنهم يعتقدون أن المرأة ستكون أسعد بلا زواج! وتحاول الحكومة اليابانية وقف تراجع معدل المواليد، والحفاظ على عدد السكان من الانكماش، بسبب الصعوبات التي يتضمنها عمل السيدات في ضوء ساعات العمل الطويلة. وما لم يتم اتخاذ خطوات فإن نقص الأطفال سيسبب مشكلات لليابان من بينها الإضرار بالنمو الاقتصادي وزيادة تكاليف الرعاية الاجتماعية للأفراد وحتى مشكلات نفسية من جانب الشبان غير القادرين على التكيف مع المجتمع.

- التأثيرات السلبية للتقنيات على كينونة الأنوثة؟

إن من أسوأ الكوارث التي حلت بالمرأة في عصرنا الحديث هو إبعادها عن نصفها الآخر، وذلك بالتلاعب بالأنوثة، مما أدى إلى ظهور ما يسمى بـ: «الجنس الثالث» وهم الضحايا الأكثر وضوحاً للتقنيات المعاصرة. وربما الأخطر من ذلك كله ظهور التأثيرات السلبية للتقنيات التي سهلت عمل المرأة ودمرت كينونة الأنوثة مما شكل تداخلاً في الأدوار، التي كانت محددة سابقاً لكل من الرجل والمرأة حسب طبيعة كل منهما.

الكاتبة البريطانية «جيرمين جرير» تعتبر من أبرز كاتبات تحرير المرأة، خاصة فيما يتعلق بالأمور الجنسية، وقد ظهر ذلك في كتابها «المرأة

الكاملة» «The Whole Woman»، أما كتابها الأخير «Female Eunuch» «الإخصاء النسائي» فقد ناقض الكثير من مفاهيم كتابها الأول، بل وأصبحت الكاتبة تعتقد أن الخروج المكثف للمرأة إلى سوق العمل لم يكن في صالح المرأة أبداً. وسوف يتأزم الوضع في المستقبل؛ لأن ممارسة الجنس سوف تتم عبر تقنيات الجنس المرئية منها والمطبوعة وغيرها من الأشكال الإباحية التي تعزز من الاتجاه نحو الأنوثة المتخيلة لتحل محل المرأة كجسد. وهي تقنيات قد يفضلها بعض الرجال؛ لأنها لا تحملهم المسؤولية المنزلية والأبوية، وفي ذلك أكبر كارثة تواجهها النساء اليوم. كما أن المرأة اليوم تعتبر الخاسر الأكبر في قضايا الشذوذ الجنسي، سواء كان ذلك بين رجلين أو امرأتين، وذلك لأن هذا الوضع يجرمها من الإنجاب الذي هو مسألة فطرية في حياة أي امرأة.

كما ناقشت المؤلفة مسألة التفاوض الجنسي التقني، وتعني بها حلول الأشكال الإباحية، ومنها الأنوثة المتخيلة والدمية محل المرأة كجسد، وبالرغم من كون ذلك أصبح ميسوراً للمرأة كما هو للرجل، إلا أن في ذلك خسارة كبيرة للمرأة التي تحتاج بالفعل لإقامة علاقة سوية طبيعية مع الرجل. كذلك تنتشر في الغرب ظاهرة الأسر وحيدة العائل المكونة من أم وأطفال دون آباء أو بالعكس، وقد أعطت الكاتبة البريطانية «جيرمين جرير» أرقاماً خطيرة بهذا الشأن، حيث وصلت في عام ١٩٩٢م إلى أسرة من بين كل خمسة أسر في بريطانيا وشكلت الأمهات ٩١% من هذه

الأسر، هذا إلى جانب أن واحداً من كل ثلاثة مواليد هو ابن لعلاقة غير شرعية. وبالرغم من ارتفاع نسب المعيشة إلا أن واحداً من كل أربعة أطفال ينشأ في حالة فقر مدقع.

كما تعرضت الكاتبة البريطانية «جرمين جرير» إلى قُرب الآباء من المسؤولية الجينية، حيث لا يوجد قانون في بريطانيا يجبر الأب على توقيع شهادة ميلاد الطفل الذي ولد نتيجة استخدام سائله المنوي. ويشبه ذلك عدم تحمل المسؤولية عندما يتصل الرجل بالمرأة دون استخدام تقنيات منع الحمل ثم يدعي بأنه لم تكن لديه النية في أن يصبح أباً! هكذا يظهر بوضوح أن التقنيات الحديثة لا تساعد المرأة على تحقيق الأسرة الكاملة بل إن بعض النساء العاملات يقمن بالعمل وبتربية الأطفال (بتسهيلات من وسائل التقنيات الحديثة) دون مساعدة الآباء المالية أو المعنوية بالرغم من وجودهم الفعلي. وربما تلام المرأة في ذلك حين طالبت بالمساواة والعمل خارج المنزل وانتهزها الرجل كفرصة سانحة للتخلي عن مسؤولياته تجاهها وتجاه أبنائه منها. وبدلاً من أن تضع النساء المتعلمات مصلحة النشء والأسرة وضمن المطالبة بالحرية أولاً! تلك التي انقلبت وبالأعلى عليهن وعلى أطفالهن؛ وبدل أن يتم إصلاح الأحوال ومقاومة المظالم قامت الحرب بين الجنسين، وعندما تعمل المرأة ويعاني الرجل من البطالة يحتل ميزان الأسرة، فالرجل لا يملك مقومات العناية بالأطفال رغم وجود التقنيات، وهكذا تنقلب الأدوار وتعاني النساء والأطفال معاناة جديدة.

والجددير بالذكر أنه مع بداية القرن فإن المرأة ستمثل أكثر من نصف القوى العاملة في معظم الدول، وذلك بعد أن دُعمت حقوقها في أكثر من ١٣٠ دولة في العالم، وسوف تثبت الأيام بأن بعض الحقوق نكالاً ووبالاً على تلك الدول. وعلى سبيل المثال أظهرت آخر إحصائية في مملكة البحرين (تصنف من دول العالم الثالث) بأن ٧٠% من القوى العاملة في الوزارات ومؤسسات الدولة هي من النساء؛ بينما يتعرض الرجال للبطالة التي رفعت بالمقابل من معدل الجرائم واللجوء للخمر والمخدرات.

وفي المجتمع الأمريكي أطلقت الكاتبة «بيتي فريدان» على العلاقة بين رجل وامرأة اليوم مصطلح (سياسة الكراهية) وبعد أن كانت من الناشطات في طلب التحرر والمساواة، إلا أنها في كتابها الجديد «BEYOND GENDER» (الذي نشر عام ١٩٩٨م) قد ركزت على تحول الحركة النسوية إلى حركة مغايرة للمصلحة العامة، وأكدت بأن النسوية قد دمرت الجماعة الوطنية؛ وعليه فهي تنادي برؤية جديدة في دعم الأسرة واسترداد المجتمع المتراحم الذي تمثله ربة المنزل المتفرغة لتربية أطفالها والعناية بأقاربها دون الاعتماد الكلي على التقنيات الضارة أو على الخدم والمربيات؛ في المقابل تضل بعض النساء الطريق القويم ويسرن بألية دفع الأنانية ويرفضن المراجعة والتقويم وينظرن لربات المنازل وللتراحم وصلة ذوي القربى نظرة رجعية^(١).

(١) إيان كريب، النظرية الاجتماعية، مرجع سابق.

ماذا صنعت التقنيات من امرأة القرن الواحد والعشرين؟

امرأة القرن الواحد والعشرين لم تعد فقط مخترعة أو مفكرة أو كاتبة كبرى؛ بل لم يعد لها الوجه البارز في السباق نحو العبقريّة الذي كانت تخوض غمارها بضراوة في أوائل القرن المنصرم، ولكنها أصبحت أكثر شهرة كعارضة أزياء أو لاعبة تنس أو ممثلة أو راقصة لها ثمن مثل الساعة أو السوار! ولم تعد الكثيرات منهن يشغلن وقتهن كثيراً في بناء المجتمع أو تأسيس الجمعيات الخيرية بل أصبحت سلعة وتقنية متقدمة في مجتمع استهلاكي متكالب على التقنيات الحديثة. ومن الملاحظ أنه بعد دخول المرأة إلى جميع الحقول، لكي تنافس الرجل، اضطرت للخروج من حقلها الأساسي في تربية الأطفال وتركت ذلك للخدم ورياض الأطفال وللتقنيات الحديثة. وفجأة اكتشفت المرأة أن الحرية الاقتصادية والتقنيات الحديثة التي كانت تعتقد أنها حاميتها هي التي أخذت منها الطمأنينة والأمان ربما إلى غير عودة، والرجل الذي تظن أنه أعطاها الحرية إنما أخذ هذه الحرية ليحرر نفسه من الالتزامات الاجتماعية التي كانت تشكل السقف الطبيعي في التعايش بين كائنين يتشاركان في نعمة الحياة. مما هو جدير بالبحث ما أشار له مؤتمر بكين (١٩٩٥م)؛ ثم مؤتمر نيويورك (١٩٩٧م)، من اعتبار المرأة مخلوقاً من الدرجة الثانية، لأنها وبدرجات مختلفة في العالم كله تأتي خلف الرجل بمسافة كبيرة في الثروة والتملك واحتلال المناصب والاشتغال بالسياسة والإدارة^(١).

(١) علي أمين المزروعى، مرجع سابق.

ومن القضايا المهمة التي أوردتها تقرير مؤتمر الدوحة (نوفمبر ٢٠٠٤م) أنه برغم كثافة التقنيات وتنوعها لكن المرأة اليوم أصبحت أقل إنجاباً من المرأة في الماضي، فقد نقص عدد أفراد الأسرة إلى النصف، مما يشكل خطراً عليها وعلى تعداد السكان^(١).

كذلك أثرت تقنيات العصر الحديث على الكثير من شؤون العلاقة الحميمة بين الرجل والمرأة، حيث دخلت العولمة في صميم العلاقات الأسرية. وقد ظلت قضية الأسرة لعصور طويلة قضية خاصة، يديرها اثنان: رجل وامرأة، بينهما تراث اجتماعي وديني، الرجل هو الزوج والأب والابن والعم والخال أو غير ذلك من مستويات القرابة، وفي جميع الحالات يجب أن تتم صياغة العلاقة دون حديث عن العنف ضد المرأة. اليوم تطالب العولمة بمفهوم جديد للأسرة ألا وهو: الأسرة هي أي وحدة يظللها سقف واحد بصرف النظر عن تعاليم الأديان في الزواج أو الطلاق، إنها إرادة اثنين بينهما إيجاب وقبول، قد يتوافر لهما الشهود أو لا يتوافرون، وقد يوثقان الزواج أو لا يوثقانه، تستوي في ذلك أن تكون العلاقة بين رجل وامرأة أو بين رجلين أو امرأتين!! وهذا المفهوم الشاذ ينتشر في الغرب انتشار النار في الهشيم، ومنه يمتد إلى الشرق. وعلى سبيل المثال وفي آخر الإحصاءات الرسمية لعام ٢٠٠٠م في دولة كندا، اتضح أن الزواج غير الرسمي تفوق

(١) محمد عماد الدين إسماعيل، الأطفال مرآة المجتمع، عالم المعرفة (٩٩)، ١٩٨٦م.

نسبته الزواج الرسمي، وتطالب العولمة كذلك بمفهوم جديد ثالث للحرية، فالحرية عندهم تساوي الإباحية! ولاشك في أن التقنيات الحديثة تسهل الوصول إلى ذلك. القرن العشرين كان مسخراً لتمكين المرأة من المشاركة في تصميم التقنيات الحديثة، بل إن ظهور المرأة بكثافة في لعبة التقنية إنما هي واحدة من أبرز التطورات في هذا العصر، إذ لم يسبق لهذا العدد الكبير من النساء أن تولى هذا القدر العظيم من السلطات ومنها ما هو من أعلى مستويات المسؤولية^(١).

وفي نظرة سريعة للوضع الحالي نجد أن امرأة الأمس كانت ربة بيت تعتمد على نشاطها في رعاية بيتها وتربية أطفالها مما يوفر لها الصحة الطبيعية الفطرية، وكان الرجل هو من يحافظ على مفاهيم الرعاية المادية والنفسية. أما اليوم فقد اختارت المرأة طرق التقنيات السهلة، وشجعها الرجل على ذلك ظناً منه أنها الرفاهية، لكنها تحمل في طياتها الخراب والدمار. ولم يسبق إلا أن تراجع معظم النساء ضمائرهن ليعدن في ثياب العزة والكرامة إلى تربية أولادهن بأقل قدر من التقنيات الممكنة، ولن يكون ذلك إلا بقناعتهم وبتشجيع من الرجال أيضاً. ولاشك في أن الصدام الأكيد سوف يستمر حول مفاهيم وتقنيات غربية المنبت أثبتت ضررها في دوها ولن تصلح للتطبيق في بقية دول العالم^(٢).

(١) عبد اللطيف محمد خليفة، ارتقاء القيم (دراسة نفسية)، عالم المعرفة (١٦٠)، ١٩٩٢م.

(٢) هانس بيتر مارتين وهارالد شومان، فخ العولمة، مرجع سابق.

من أضرار التقنيات على صحة الأسرة:

في هذا السياق نورد بعض الأمثلة للأضرار التي سببتها تقنيات القرن الواحد والعشرين على صحة أفراد الأسرة:

١- تحذير من استخدام سم «البوتولينوم» في معالجة تجعدات الوجه: صار من المعتاد أن تصدر الولايات المتحدة إلى أوروبا عموماً، وإلى ألمانيا خاصة، كل ما هو عجيب وغريب من الصرعات والموضات التي تنتشر بين الشباب كالفيروسات. والظاهر أن الخشية من تعرض الشباب الألمان للتشوهات الناجمة عن سم «البوتولينوم» وكذلك التشوهات الناجمة عن موضة «التثقيب»، كانت وراء التحذير الذي أطلقه العلماء من استخدام هذا السم في الحفلات، علماً بأن نقابة الأطباء الألمان سبق أن حذرت أيضاً من انتشار موضة استخدام غاز الضحك في المراقص التي استوردها بعضهم من الولايات المتحدة بغية إشاعة أجواء البهجة بين الراقصين. إن استخدام سم «البوتولينوم» المخفف في تعديل تجعدات الوجه تحول إلى موضة انتقلت من أمريكا إلى ألمانيا وصارت تستخدم في الفنادق ومحلات التجميل والحفلات رغم أن «البوتولينوم» يعتبر من أخطر الأسلحة البيولوجية في العالم بسبب سميته العالية. إن الخطأ الكبير في الجرعة يمكن أن يتسبب بشلل عضلات التنفس ثم الموت. كما أن زرق حقنة «البوتولينوم» قرب العين بيد غير خبيرة قد تؤدي إلى توقف الجفن عن الحركة، أي الشلل المؤقت، أو إلى هبوط الحاجب.

الجددير بالذكر أن جامعة ميونيخ، سبق وأن حذرت في المؤتمر الثالث لأطباء «Life style and Anti aging» من استخدام «البوتولينوم» في الجراحة التجميلية في ألمانيا، وعليه ظهر عدم إجازته من السلطات الصحية في برلين، وبالرغم من ذلك مازال يستخدم في دول العالم الثالث !

٢- جراحات التجميل بين الشعوذة والضرر المباشر والآثار الجانبية: هناك ملايين الشكاوى والمخاطر التي يتعرض لها من تجرى لهم عمليات التجميل من النساء والرجال في البلاد الغربية، وكذلك في عدد من الدول العربية والإسلامية، وربما من أشهرها ما يطرح في صحف ومجلات جمهورية مصر العربية، بسبب ما يقال عن وجود عدد من الأطباء المزيفين، الذين يُتهمون بممارسة مهنة الطب دون ترخيص، وحيازة أدوية بطريقة غير قانونية، وبالذات في مجال عمليات تجميل النساء والرجال.

أما شركات التجميل الوهمية فحدث عنها ولا حرج، وقد انتشرت في جميع أنحاء العالم.

٣- شركات الأدوية تخلق مرضاً جنسياً نسوياً للكسب التجاري: شنت الحملة الطبية البريطانية (أموال) في افتتاحية لها، حملة شعواء على شركات إنتاج الأدوية التي تروج لمزاعم لم تثبت علمياً، حول إصابة أكثر من أربعين بالمائة من النساء بحالة «الاختلال الوظيفي الجنسي» وذلك بهدف الربح السريع من إنتاج عقار «فياغرا نسائي» مماثل للعقار المعروف للرجال. ونشرت الافتتاحية «الاختلال الوظيفي الجنسي لدى النساء» هو أكثر

الأمثلة وضوحاً حتى الآن على «اختلاق الأمراض بتوجيهات ودعم من الشركات الكبرى». ويؤكد نقاد الشركات بأن هذا المرض خيالي ولا يوجد إلا في مخيلة الشركات التي اختلقته للترويج لعقاقير جديدة تكسب منها الملايين كما حدث للفياغرا.

وتقول افتتاحية المجلة الطبية (أموال): إن الأسباب المتشابهة لم تؤخذ بعين الاعتبار، وهي التي تتداخل فيها العوامل الاجتماعية والشخصية والمظهرية للنساء وتقود إلى صعوبات في ممارسة الجنس. وكان ذلك مناسباً لهدف الركض وراء اختلاق المرض وإنتاج دواء له ثم جني الأرباح. وذكرت الافتتاحية سبعة ندوات حول هذا المرض بين أعوام ١٩٩٧م و٢٠٠٢م والشركات الراعية لها التي كانت أكثرها من شركات الأدوية. وأثبتت مجلة (أموال) بأن (١٨) باحثاً على الأقراص هم من الذين وضعوا تعريفاً للمرض وكانوا ممولين من قبل الشركات أو مرتبطين بها ! لكن الشركات نفت المزايم التي أوردتها المجلة الطبية من حيث إنها تسعى لعلاج ملايين النساء اللواتي يعانين من متاعب جنسية تشبه مشاكل الضعف الجنسي التي يعالجها عند الرجال عقار الفياغرا !

٤ - عقار الفياجرا السبب الرئيس في العمى وفقدان تمييز الألوان:

بعد مضي ثلاث سنوات من تداوله في أكثر من مائة دولة، ثبت أن عقار الفياجرا هو السبب الرئيس في تزايد ظهور حالات العمى أو فقدان تمييز الألوان لمن قد تعاطاه! وعلى إثر هذه الحقائق ظهر دواء «يوبيرما» المضاد للبرود الجنسي، وأعلن على الفور بأنه خال من الأعراض

الجانبية!! وأكد مكتشف مستحضر «يوبريما» للعجز الجنسي بأنه قد أدرك الحاجة لمثل هذا الدواء، فالعجز الجنسي مشكلة يعاني منها أكثر من ١٥٠ مليون رجل حول العالم! كما ذكر أن حبة «يوبريما» الصغيرة التي تصنعها شركة «آبوت العالمية» توضع تحت اللسان، فيسري مفعولها خلال ٢٠ دقيقة من دون أن تمر بالجهاز الهضمي! وقد ثبت أن هذه الجرعات سببت لنحو ٨ - ١٠% ممن خضعوا للدراسة إحساساً بالتقيؤ بعد تناولها مباشرة، كما سجلت انخفاضاً طفيفاً في ضغط الدم بعد تناول الجرعة مباشرة، إلا أن المستحضر طرح في أسواق الشرق الأوسط في فبراير ٢٠٠٢م، حيث احتل على الفور حصة مرتفعة في السوق! ويعلم الله وحده ما سوف يتكشف عن تناوله من أضرار نفسية وجسدية في المستقبل.

٥- تحذير من استخدام أجهزة الفحص المنزلي لتشخيص الأمراض:

أكدت مجلة علمية متخصصة بصحة المستهلكين «هيلث وتش» بأن أجهزة الفحص المنزلي لأمراض مثل السكري والزهايمر وهشاشة العظام واضطرابات الأمعاء قد تكون مضارها أكبر من فوائدها. وخلصت المجلة بعد تقييم أحد عشر جهازاً للفحص المنزلي متوفرة في الصيدليات وغير الإنترنت، إلى أن هذه المنتجات تعمل على إثارة مخاوف المستهلكين من الإصابة بمرض خطير وقد تكون مضللة!

وقد فحصت لجنة من خبراء الصحة ومدير معمل بأحد مستشفيات لندن أربعة أجهزة تعين المريض على فحص نفسه بنفسه في المنزل وذلك بناء على طلب من المجلة التي يصدرها اتحاد المستهلكين، وتوصلت اللجنة إلى

ضرورة سحب هذه الأجهزة - وأحدها لقياس هشاشة العظام والثاني للزهايمر، والجهازان الآخران لقياس نسبة الكوليسترول - من الأسواق حيث لا يعتقد بنتائجها؛ لأن الأسس العلمية لأجهزة هشاشة العظام والزهيمر ليست سليمة! كما أن اختبارات الكوليسترول اعتبرت غير كافية لتحديد مخاطر إصابة المريض بالقلب.

٦- تأكد العلاقة بين العلاج الهرموني وسرطان الثدي:

صدر عن المعهد القومي للصحة في الولايات المتحدة دراسة اتحادية أكدت أن النساء اللاتي يتعاطين علاجاً تعويضياً بالهرمونات تزيد احتمالات إصابتهن بسرطان الثدي والسكتة الدماغية! وقد أكدت تجربة على البشر بأن أكثر أنواع العلاج الهرموني التعويضي شيوعاً وهو «بريم برو» لشركة «ويث يزيد» يزيد من مخاطر الإصابة بالسرطان.. ونصحت الدراسة (يوليو ٢٠٠٢م) آلاف النساء اللاتي يتناولن ما يسمى بالعلاج الهرموني التعويضي بالتوقف عن ذلك. وقد وجدت الدراسة للعلاج التعويضي بالهرمونات، التي شملت نحو ٣٨٠٠ سيدة بلغن سن انقطاع الحيض، بأن احتمالات إصابة النساء اللاتي يتعاطين «بريم برو» أو علاجاً مماثلاً بسرطان الثدي تزيد بمقدار ١,٥٤ مرة عن النساء اللاتي لا يتعاطين هذا العلاج. كذلك قد يتعرض نصف هذا العدد لمخاطر السكتة الدماغية، لكن نتائج الدراسة أوضحت أن هذا الخطر قد يبدأ في التراجع إلى المستوى العادي بعد ستة أشهر فقط من وقف العلاج الهرموني؛ غير أن ذلك غير مضمون تماماً.

٧- تضاعف مبيعات الأدوية المهدئة للأعصاب في إيطاليا وبريطانيا:

أثبتت دراسة طبية صدرت في نوفمبر ٢٠٠٢م بأن مبيعات الأدوية المهدئة للأعصاب زادت في إيطاليا بنسبة أكثر من الضعف، وبلغت ٦٠% منذ عام ١٩٨٨م، وأن أغلب المستهلكين من الشباب هم الإناث. وقد تفتشت ظاهرة استخدام هذه الأدوية في الدول الغربية خلال السنوات الأخيرة، لكن إيطاليا فاقت كل التقديرات السابقة.

وفي دراسة بريطانية صدرت في مايو عام ٢٠٠٠م اتضح أن أكثر من ثلث نساء بريطانيا فكرن في الانتحار، وأن ٤٠% منهن ينمن بالمهدئات، أما الأسباب فهي مضايقات في العمل أو في المنافسة أو حالة علاقة فاشلة في العمل أو الحب أو غيرها. إن الأرقام غريبة ومدهشة، فكيف يكون ثلث النساء في بريطانيا على شفا حفرة من الانتحار، يفكرن فيه ويقاومنه بالمهدئات أو بالقرار المؤجل، بينما الأحوال الاقتصادية ومستوى المعيشة مرتفع في معظم الأحوال! هذه الدراسة تؤكد أن نتائج عمل المرأة خطيرة خاصة في وجود التقنيات الحديثة.

كما صدرت تحذيرات من وكالة الأدوية الأوروبية بأن هذه الأدوية قد تزيد من خطر الانتحار بين صغار السن. كما أشار العلماء إلى ضرورة أن يراقب الأطباء استخدام مضادات الاكتئاب أو منبطات إعادة الامتصاص الاختياري، ولاسيما الـ«سيتالوبرام» الذي تنتجه شركة «بيوفيل» والـ«فينلافاكسين» الذي تنتجه شركة «ويث» والذي يباع باسم «ايفيكسور».

٨- تأثيرات ضارة للحقن والأصباغ والعطور على الرضع

والأطفال:

تستلم التقنيات الحديثة الرضيع منذ لحظة خروجه إلى الحياة بالتحصينات والتطعيم والأدوية، وهي بذلك تقهر جهازه المناعي وتضعفه، ويستمر ذلك القهر للجهاز المناعي، حيث يعاني الطفل خلاله من ارتفاع درجة الحرارة ومن الصداع والإسهال، وقد يصاب بمرض عضال أو غيره! هكذا يجلب له المرض الذي تدعي التقنية أنها تحميه منه! أما الأخطاء الطبية التي قد تقع عليه ويظل يعاني منها طوال حياته فحدث عنها ولا حرج. وكثيراً ما نسمع عن انتهاء صلاحية الدواء أو الغذاء المباع في الصيدليات للأطفال، والذي يتسبب في مرض أو موت الكثير منهم. وقد حدثت ضجة كبيرة حول انتهاء صلاحية حليب الأطفال في بريطانيا في شهر أغسطس ٢٠٠١م، مما تسبب في أزمة حادة بين وزارتي الصحة والتجارة. كما نشرت الجرائد في إبريل ٢٠٠١م، وفي جمهورية الصين، عنواناً كالتالي: «مرض الإيدز يكتسح الأرياف ويقتل الأطفال نتيجة لنقل الدم الملوث»! ومثل تلك الكوارث تنتشر اليوم في إفريقيا بشكل موسع، كما تؤكد الأدلة أن نقل الدم والإبر الملوثة هي السبب الأساس في نشر مرض الإيدز. أما الأطفال الذين يباعون لتبتر أعضاؤهم وتستعمل في جراحات زراعة الأعضاء فهم موضوع يطول شرحه ولا تعرف ملابساته على وجه التحديد، إلا أنه تجارة جديدة رائجة في عصر ضاعت فيه حقوق الإنسان حتى لو كان

طفلاً رضيعاً!! هكذا فإن سوق العلم المزيف والتقدم الكاذب قد أضاف الكثير إلى ما تعاني منه الطفولة، من الجهل والتشرد والاستغلال الجنسي، في كثير من ذول العالم^(١).

واليوم، فإن الطفل المحظوظ هو من يحظى برعاية أمه التي باتت نادرة الوجود نتيجة عملها في الخارج واعتمادها على التقنيات البديلة التي ثبتت أضرارها في كل من الروضة والحضانة وحتى في المنزل! أما موضوع الألوان والأصباغ السامة المحيطة بالطفل من كل حذب وصبوب فهو موضوع يطول شرحه، وهو كمن يضع السم في الدواء. كذلك يمتص جسم الطفل أكبر قدر من التلوث البيئي الصادر من السيارات والمصانع وغيرها، كما يتأثر بالذبذبات الصادرة من التقنيات بشتى أنواعها .

٩- تحذيرات علمية: العطور النسائية قد تقود إلى عقم المواليد(!):

عثر علماء سويديون على مستويات عالية من مواد كيميائية تؤدي إلى حدوث العقم في تركيبة أنواع معروفة من العطور ومنتجات التجميل والزينة الأخرى، مثل عطر «شانيل ٥» وعطر «بويزون» من إنتاج «كريستيان ديور»، و«اترينيتي» من «كالفين كلاين» و«تريشور» من «لانكوم» ضمن أربع وثلاثين من منتجات العطور والزينة الأخرى، التي سجل فيها تركيز عال من مركب «افثاليت» وهو أحد أملاح حامض «الأفتاليك». وتشمل المنتجات رشاشات لتزيين الشعر ومعطرات الجسد والروائح المزيلة للعرق!

(١) هانس بيتر مارتين وهارالد شومان، المرجع السابق.

وقد قامت المفوضية الأوروبية بفرض حظر على استخدام نوعين قويين من هذه المادة الكيميائية التي توظف كمستحلب لإبقاء رائحة العطر لأقصى فترة ممكنة على أجساد مستخدميها في منتجات الزينة.

وقد ازدادت المخاوف من المادة بعد ظهور دلائل على أنها وراء حدوث حالات مرضية أثرت على أربعة في المائة من الأطفال الذكور، وتشمل الحالات عدم نزول الخصية واعتلال المجرى البولي. ويعتقد العلماء الذين أجروا أبحاثهم في مختبر «اناليسن» الحكومي السويدي، لصالح مجموعة «رعاية صحية بلا أضرار» الأميركية التي تضم ثلاثمائة منظمة لحماية المستهلكين حول العالم، أن مادة «افثاليت» ربما تتسرب إلى الدم عبر جلد المرأة المتعطرة أو عبر الاستنشاق. إلا أن جمعية منتجات الزينة والتجميل وصفت تقرير العلماء بأنه غير دقيق ومثير للالتباس! وهكذا تموت الضمائر جرياً وراء الكسب السريع حتى ولو أدى ذلك إلى تشوه أو انقراض الجنس البشري.

١٠ - الأطفال يفرطون في تناول مسكنات الصداع:

أكدت دراسة أميركية بأن الأطفال الذين يعانون من نوبات صداع متكررة يسرفون في تناول أدوية مسكنة بدون استشارة الطبيب بصورة أكثر مما يعتقد آباؤهم، مما يعرض صحتهم للخطر. وطبقاً لتقرير أعلن في الاجتماع السنوي لجمعية الصداع الأميركية فقد خلص العلماء، الذين فحصوا ٦٨٠ طفلاً بين السادسة والثامنة عشرة، إلى أن أكثر من عشرين في المائة منهم يفرطون في تناول الأدوية المسكنة، وهو ما عرفه العلماء على

أنه تناول أكثر من ثلاث جرعات من مسكنات الآلام أسبوعياً لأكثر من ستة أسابيع. ويتوجب على الأطباء سؤال الأطفال الذين يعانون من تواتر الصداع ماذا يتناولون من أدوية، فقد يؤدي الإفراط في تناول المسكنات إلى مشاكل صحية مثل الفشل الكلوي ونزيف المعدة، خاصة أن التواتر أو الصداع النصفي شائع اليوم نتيجة تعقيدات الحياة المعاصرة وسيطرة التقنيات المختلفة. كما أن الشخص الذي يتناول الأسبرين أو المسكنات الأخرى لمدة عام معرض بنسبة تتراوح بين واحد إلى ٤% لخطر الإصابة بمشاكل خطيرة في الأمعاء! وهذا ما أكده باحثون أمريكيون من كلية بايلور للطب بھيوسطن في يناير ٢٠٠٥م.

وقد كثرت في الآونة الأخيرة الانتقادات الأدبية الموجهة لعالم الطب، وربما من الأطباء أنفسهم؛ وعلى سبيل المثال ظهرت وانتشرت رواية «الأطباء الثلاثة» للطبيب مارك زفران أو (الاسم الأدبي المستعار «مارتان وينكلير») وهي عمل يهدف لإشراك القارئ العادي في فهم العالم المغلق للطب وللممارسة العلاجية حتى يتمكن من امتلاك رؤية وموقف صحيحين منه، كما يهدف إلى فضح الأطباء ذوي النيات والأخلاق السيئة. الجدير بالإشارة أن النشاط الأدبي لهذا الطبيب لا يقتصر على الكتابة التخيلية فحسب، بل يمتد كذلك نحو تقديم برامج أدبية في الإذاعة وعلى الإنترنت؛ وله موقع إلكتروني أدبي، ينشر فيه كتابات وأعمالاً تتركز بالأساس على التنديد بجميع أشكال الشطط في استعمال السلطة العلمية والتضليل الإعلامي والبلادة النمطية السائدة في عالم الممارسة الطبية والعلاجية وفي باقي ميادين الحياة.

نماذج لتأثير التقنيات على التماسك الأسري:

١- الجوال ودوره المباشر في التفكك الأسري:

في هذا العصر يختصر الجوال المسافات البعيدة والقرية أيضاً! فقد يظل الفرد من الأسرة قابلاً في غرفته الخاصة ويحدث الفرد الآخر بالجوال! هكذا ينقطع التواصل الحميم بين أفراد الأسرة وتختفي تلك النظرات المؤثرة ليحل مكانها الصراخ والشجار حول من سيدفع تلك الفواتير الطويلة الباهظة الثمن. وفي منظور آخر أكدت دراسة حديثة بأن الرسائل الموجهة عبر الهواتف النقالة قد أضفت سبباً جديداً لأسباب الطلاق في دولة الإمارات العربية المتحدة، التي تعاني أصلاً من ارتفاع نسبة الطلاق. ففي دائرة الإصلاح والتوجيه الأسري في محاكم دبي، لم يكن متوقعاً أن تصبح الرسائل الهاتفية سبباً رئيسياً للطلاق، لكن تعدد الحالات التي تنظرها الدائرة تشير إلى ظاهرة تستوجب النظر فيها وتوعية الناس بخطورتها، خاصة أن بعض الزوجات يقمن بعد قراءة الرسائل بالاتصال بالأرقام المرسله لهذه الرسائل ويكتشفن حقائق غير متوقعة. الجدير بالذكر أن دراسة أعدتها وزارة العمل والشؤون الاجتماعية في الإمارات في العام ٢٠٠٢م أكدت أن التقنية الحديثة وخاصة الإنترنت أصبحت من الأسباب الرئيسية للطلاق في الإمارات، سواء من جهة انشغال الزوج عن أسرته لساعات طويلة؛ أو لظن الزوجة بأن زوجها على علاقة بامرأة أخرى قد تكون في بلد آخر على بعد آلاف الأميال.. وربما «هي» أصلاً رجلاً انتحل صفة امرأة.

٢- التقنيات واكتساب العنف:

حذرت كثير من الدراسات من خطورة اكتساب العنف من خلال أو بوساطة التقنيات.. وفي هذا السياق لا بد أن نشير إلى تقرير منظمة الصحة العالمية الصادر في أكتوبر من عام ٢٠٠٢م والذي يؤكد أن ١,٦ مليون شخص يقضون سنوياً بطريقة عنيفة في العالم! ونصف هؤلاء يقضون عبر الانتحار الميسر بالتقنيات الحديثة! كما أشار التقرير إلى أن أكثر من ٦٠% من عمليات الانتحار يقدم عليها الرجال، وهي رابع أسباب الوفيات لدى أشخاص تتراوح أعمارهم ما بين ١٥ و ٤٤ سنة.

٣- ألعاب الحاسوب وتطبيع القتل لدى الأطفال:

الحاسوب قد يكون الهدية التي تختارها لتقلص من نشاط طفلك الزائد! ولن تضطر إلى أن تتعب نفسك بمساعدته في الاختيار، فخياره جاهز بسبب المعرفة والخبرة التي حصل عليها من زملائه ذوي الخبرة في المدرسة وما عليك إلا توصيل الحاسوب بتلفاز المنزل. وقد يصبح الطفل أكثر هدوءاً نوعاً ما، لكنك لن تتمكن من الاستمتاع ببرامج التلفاز إلا بعد وصلات من الصراع والصراخ لتكتشف أن عليك أن تشتري له تلفازاً ملوناً خاصاً، ولن تبدأ رحلتك مع الراحة لأنك ستشغل بفك الاشتباك بين أولادك إذا كانوا أكثر من واحد!

وربما تظن أنك الراح وبخاصة بعد أن تخلصت من إزعاج الأولاد في حبسهم مع الحاسوب بعيداً عنك؛ ولكن للأسف فإن ما قمت به لم يكن

سوى خطأ في حق أولادك. صحيح أن لألعاب الحاسوب فوائد، كالتدريب على سرعة رد الفعل، والقيام بالحركة الصحيحة في الوقت المناسب، ودقة الملاحظة والانتباه، هذا عدا عن أن العديد منها يقدم للاعبها معلومات إضافية، وبخاصة إذا كانت اللعبة مصممة أصلاً لتكون لعبة تعليمية. بل إن بعض المؤسسات الأميركية قد وجدت أنه يمكن بتصميم ألعاب الحاسوب بأسلوب معين المساعدة على تدريب الأطفال المصابين بصعوبة في القراءة. كما أن أبحاثاً لمؤسسة الفضاء والطيران الوطنية الأميركية «ناسا» قد أثبتت أنه من الممكن استخدام ألعاب حاسوب لمعالجة للأطفال الذين يتميزون بالحركة المستمرة لزيادة فترات الانتباه والتركيز لديهم. ولكن في المقابل فإن ألعاب الحواسيب مليئة بالمخاطر، فالكثير من هذه الألعاب تركز على القتال الدموي الوحشي الذي تقشعر له الأبدان، فاللعبة التي «تريحك» من إزعاج ابنك هي لعبة يستمتع فيها بضرب خصمه حتى يقطع أوصاله وتخرج الدماء من جسمه كالتوافير، ثم يقطع رأسه ويمسكه مزهواً بانتصاره عليه وهو يقطر دماً! وقد تكون اللعبة عبارة عن قيادة سيارات وطائرات تخلف الدمار وكرات اللهب المبهرة التي تصيب ضحايا عشوائيين! وربما كانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر مستفعاة الأفكار من إحدى ألعاب الحواسيب التي هزت العالم بأكمله. فهل عذرنا أنه لا بأس بذلك ما دام كل الأولاد يلعبون بهذه اللعبة؟ ولكن هؤلاء الأولاد يميلون للعنف الزائد، فهل تدع طفلك غارقاً بألعابه المدمرة لتعلم نبأه بعد حين؟

إن ما نسلي به الطفل هو أبعد ما يكون عن معاني البراءة. وبعض الأطفال لا يكادون يصلون إلى بيوتهم، حتى يتوجهوا إلى غرفهم لإكمال لعبة أمس العنيفة أو لتجربة لعبة جديدة حصلوا عليها من أصحابهم، وكلما كانت أكثر دموية كانت ممتعة أكثر. وفجأة ترى الأطفال وقد كبروا مع هذه الألعاب، وقد يصل بهم الحال إلى تفضيل العزلة والابتعاد عن الناس، مع ضعف في التحصيل العلمي ووهن الجسد، خاصة إذا صاحب ذلك اللعب العنيف تناول الطعام الجاهز السريع غير الصحي. كذلك من الملاحظ انتشار التلعثم عند الكلام بين الأطفال وظهور بعض الآثار النفسية الأخرى! ولن يتمكن الآباء من معالجة ذلك بسهولة، بل سوف يجارون بالشكوى من عدم معرفتهم بما حصل لأولادهم الذين لم يجرؤهم من أي شيء وبالذات «الألعاب الحاسوبية». وهم لا يدرون أن ما ينغرس في نفوس الأطفال الآن قد يظهر أثره فيما بعد، فيما يسمى التطبيع مع القتل! إن تلك «الألعاب الحاسوبية» ستبرر لهم كل فعل سيئ ومؤذ فيما بعد خاصة وأن الأبحاث تشير إلى أن العقل الباطن للأطفال، الذين تقل أعمارهم عن سبع سنين، يحتفظ بمؤثرات العنف فيه أكثر ممن هم في عمر أكبر. ولن يكون الحل بحرمان الأولاد من الألعاب، بل يمكن البحث عن لعبة حاسوب مفيدة؛ كما يمكن تحديد ومراقبة نوعية الألعاب وما هو مصدرها، ثم تحديد أوقات اللعب مع تشجيعهم على ممارسة الأنشطة الرياضية والاجتماعية المختلفة.

ولابد من حماية الأطفال؛ لأن الخطر المتعلق بالإنترنت يظل مسلطاً على رؤوس الأطفال بالذات إلا إذا أمكن حماية الأطفال عبر الفترة الدولية. وقد وافقت الحكومة الأمريكية على اقتراحين للحد من الوصول إلى المواقع الأمامية على شبكة الإنترنت للأطفال وصغار السن، حيث حرم الاقتراح الأول إنشاء أي مواقع تجارية إعلانية على شبكة الإنترنت لتوزيع ونشر المواد الإباحية. بينما نص الاقتراح الثاني على طرح برامج حاسوبية تعمل عمل الفلترة، ومن المرجح أن يتم توزيعها على المدارس والمكتبات التي تتصل بمواقع الإنترنت الإباحية.

ولانتكر وجود بعض الإيجابيات للأطفال الذين يستخدمون الإنترنت، لكونهم يتعلمون كيف يعبرون عن أنفسهم بصراحة وبساطة، كما تجعلهم أكثر عالمية وبميت لا تحدهم حدود. كذلك من الإيجابيات للأطفال الذين يستخدمون الإنترنت تحولهم إلى أطفال أكثر تسامحاً تجاه الاختلافات العرقية والثقافية. كذلك تساهم الشبكة في توفير مجال الرعاية الاجتماعية للمراهقين والمعاقين أو المصابين باضطرابات نفسية أو سلوكية. كما تهتم بعض المواقع بقطاع الخدمات حيث يمكن للطفل المريض من التمتع بخدمات الشبكة المتصلة بالبحث عن الوظائف والمصارف والتسوق عبر الإنترنت وغير ذلك من الخدمات التي تمتد اليوم على نطاق واسع.

٤- الإدمان على الإنترنت.. والسيطرة على النفس:

الإدمان على الإنترنت مرض يدخل القاموس الطبي، وأضرار الحواسيب والهواتف أدرجت في نقاشات معرض «سييت» الدولي(١)

لقد نجح قطاع الحواسيب والشبكات والمعلوماتية في أن يتحول في العقدين الماضيين إلى قطاع اقتصادي مهم له شركاته ومريدوه ومشجعوه؛ وتكمن المشكلة التي يحذر منها المختصون منذ فترة هي إمكانية تحول هذا التشجيع إلى هوس وإلى حالة مرضية دائمة؛ وهو ما ناقشه الخبراء الصحيون على هامش المعرض الدولي للحواسيب (سييت) والذي عقد في مارس ٢٠٠٣م في هانوفر/ ألمانيا. وقد قدر مركز شؤون الإدمان في هامبورغ وجود أكثر من مليون مدمن على شبكة الإنترنت في ألمانيا؛ وهو إدمان يفقد فيه الإنسان السيطرة على نفسه أمام شاشة الحاسوب، وهي حالة مرضية تؤثر على كفاءة الإنسان في العمل وترهق الدولة والشركات بالأعباء الاقتصادية الناجمة عنها. إن هناك قاسماً مشتركاً أعظماً لكل من حالات الإدمان على الكحول والمخدرات والقمار والإنترنت ألا وهو: فقدان السيطرة على النفس مع إهمال الوضع الشخصي والمحيط الاجتماعي، وهي حالة قد تصيب الموظفين المحبطين وبعض ربوات البيوت والعاطلين من مختلف فئات المجتمع. ويبدو خطر إدمان الإنترنت، أكبر من غيره لأن انكباب الإنسان على الإنترنت غير مذموم بل قد يشجع عليه في بداية الاستخدام؛ وبينما يترك إدمان الكحول والمخدرات آثاره على صحة الإنسان كذلك

يؤثر إدمان الميسر على دخل الفرد، إلا أن إدمان الإنترنت لا يترك آثاراً محسوسة مما يزيد من تعقيدات المشكلة.. ويزداد خطر إدمان الإنترنت بين مجاميع الناس الذين يتمتعون بحق مجاني لدخول الإنترنت، كما هي الحال مع طلبة الجامعات وبعض موظفي الشركات.

ونظراً لتفاقم ظاهرة الإدمان على الإنترنت فقد اضطر معرض هانوفر الدولي للحواسيب لأول مرة هذا العام لإدراج النقاش حول مضار الحواسيب والشبكات والهواتف الجواله على صحة المستهلك ضمن برامج المعرض، بين ١٢ - ١٩ مارس ٢٠٠٣م، واقترح المعرض (عوضاً عن رفع رسوم الإنترنت على الطلبة أو تحجيمها) بأنه لا بد من التوعية للتحذير من مرض الإدمان الجديد. كما اقترح إدخال إدمان الإنترنت ضمن قائمة أمراض الإدمان مع شرح طريقة انتقاله وإصابته للناس؛ وفي حالة الطلبة والموظفين، لا بد من إدخال لوحة تحذير تنهض أوتوماتيكياً أمام عيون مستخدم الشبكة حال تجاوزه دخوله فترة معينة، وتقول اللوحة: «احذر! منذ متى وأنت داخل الشبكة».. ولا بد أن تتضح الأضرار الأخرى لهذه التقنية في القريب العاجل ولكن بعد فوات الأوان.

ولتوضيح مدى خطورة التقنيات الحديثة على الأطفال نورد هذا المقال للكاتبة «سوسن الأبطح» الذي نشر في جريدة «الشرق الأوسط»، عددها بتاريخ (٢٦ / ١١ / ٢٠٠٢م):

الطفولة ليست في عز مجدها كما يروج بعض المتفائلين، الذين يغبطون أطفال اليوم على هدايا العصر الملمومة الآتية إليهم عبر الأطباق اللاقطة أو الأقنية الإلكترونية. ولم يعد من شك في أن «ديزني لاند» بمباهجها، وأفلام الكارتون بغوايتها، وأجنحة الألعاب المدللة في المراكز التجارية الضخمة، هي الواجهة اللماعة التي تخفي وراءها الفخاخ المنصوبة لتصيد الفضول الطفولي واستغلاله بأدهى السبل فنية وأناقة. وقد تنبأ علماء النفس منذ عام ١٩٠٠م بأن القرن العشرين سيشهد ثورة يتشكل خلالها مفهوم جديد وسعيد للطفولة، لكن زملاء لهم في المهنة، وبعد مائة سنة على تلك النبوءة، يرون، اليوم، أن الموجة وصلت إلى ما لم يكن في الحسبان، وأن كل ما زاد عن حده انقلب إلى ضده. وكل الدراسات حول التلفاز والألعاب والإنترنت والسينما، تفيد بأن الطفولة تُخطف بالفعل، وفي سن مبكرة، وأن الصغار يتعرضون لجلد نفسي وغسل دماغ يجرمهم من أحلامهم الخاصة لصالح أحلام هذه الشركة أو تلك. وإذا وضعنا العنف والجنس جانباً، فإن الإعلانات وحدها كافية لإحداث الزلزال، إذ يشاهد الطفل الفرنسي مثلاً ٣ آلاف إعلان في السنة، بينما يرتفع عدد الإعلانات التي يشاهدها الطفل الأمريكي إلى ثلاثين ألفاً، بحسب اتحاد المستهلكين هناك، ولا أحد يعرف بطبيعة الحال، عدد تلك التي يشاهدها الطفل العربي، إلا أن السويد حسمت أمرها ومنعت الإعلانات في فترات البث المخصصة للأطفال؛ لأن هؤلاء لا يميزون قبل سن الثانية عشرة بين الإعلان والبرنامج الوثائقي أو بين الحقيقة والخيال. إن الإجراء السويدي الجريء ناجح محدود، إذ أن

إحصاءات أخرى تشير إلى أن ثلاثة أرباع ما يشاهده الصغار، موجه في الأصل للكبار، وبأن أدمغة الأطفال منبهة بحيث تلتقط ما لها وما لغيرها، ولذلك فالعمل جارٍ في دول أوروبية عديدة لتخفيف الصدمة على العود الطري قبل أن تكسره مشاهد الغدر والقتل والتشويه والمطارادات بين الأحيار والأشرار. فقد تبين أن ٨٠% من الأفلام الأمريكية التي تعرضها الشاشات الفرنسية تحوي مشاهد مثيرة للاضطراب، وهذه الأفلام تحمل في غالبيتها رسالة مفادها: «يجب أن تحطم الآخر كي تربح»، وهو ما يتناقض تماماً مع التقليد التربوي المتعارف عليه الذي يحاول أن يقنع الأطفال بأن: «من يلجأ إلى العنف لحل مشاكله يحتاج إلى علاج لحل عقده». وهكذا فإن المفاهيم تتضارب حد التضاد. وإذا أضفنا إلى كل ما سبق أن الأطفال الفرنسيين يشاهدون التلفاز بمعدل ألف ساعة في السنة، أي ما يوازي الوقت الذي يقضونه على مقاعد الدراسة - والأرجح أن الأرقام العربية ليست بعيدة عن هذه الحدود - فإن السؤال الحرج المطروح هو: لمن ستكون الغلبة في المعركة الدائرة بين الأستاذ بإمكانياته المتضائلة والمنتج بمعداته سريعة التطور، خاصة أن الأهالي باتوا أشبه بالمخدرين، وقد مستهم الفتنة بأخطر مما فعلت بأولادهم، وغدوا أكثر تعلقاً منهم بالمسلسلات والأفلام وبرامج الألعاب والدعايات أيضاً! لذلك فحين يقرر الأهل معاقبة أحد أولادهم يقولون له بثقة وحزم: «إذا لم تدرس تحرم من التلفاز»، أي أن الشاشة وما ترشح به من مؤثرات مموهة هي في اللاوعي «مكافأة يستحقها المجتهد» وأية مكافأة! والأسوأ من ذلك أن مدمني التلفاز

هم أنفسهم عشاق الإنترنت، ومن يفلت من قبضة هذا يقع في شبك ذلك. وبما أن القضية على هذا القدر من الجدية، فإن الدول الراقية لا تعادي التلفاز على طريقتنا الاستنكارية، لأنها تعرف أنها بذلك إنما تحارب طواحين الهواء، لكنها تسعى جاهدة لاحتواء مضامين الشاشات وتطويرها وتحديثها، لأن الزواج بها ثبت أنه كاثوليكي ولا رجعة عنه. المعضلة مع التلفاز تتجاوز العيب والحرام والمس بالتقاليد التي نفترض أنها المقاييس الأمثل لتحديد مواقفنا واستراتيجياتنا، لأن الطفولة بالمعيتها الفطرية وتشكلاتها الذهنية واللغوية، بل وبنيتها العاطفية، شرقية كانت أم غربية، هي المتضرر الأول.

الدور المطلوب من الحركات النسائية:

ما الدور المطلوب من الحركات النسائية للمساهمة في تقنين التقنيات؟ ليس المقصود بالتقدم التقني تسهيل الحصول على التقنيات كيفما اتفق، بل إن لذلك سلبياته الكثيرة ومنها المساهمة في طمس الهوية الحضارية في نفوس الناشئة، مما يسبب ضياع القيم الاجتماعية والوطنية ويخلق عقليات تابعة ومضطربة ذات نفسيات مشتتة بين الأصالة والعولمة؛ ومما لاشك فيه أن للمرأة دوراً إيجابياً في ذلك.

إن عالمنا العربي والإسلامي هو المعني الأكبر من بين دول العالم الثالث بقضية التقنية والمرأة، فالتقارير الدولية تجمع على الزعم أنه عالم يححف بحقوقها، هذا بالرغم من أن المرأة قد اخترقت في أغلبية العالم الإسلامي فضاءات العلم والمعرفة، بل وأصبح لها في المجتمع حضور ثقافي متميز، وفي

بعض جامعات العالم الإسلامي يزيد عدد الطالبات على عدد الطلاب، كما يظهر أن الأنتى قد استفادت وساهمت أكثر من الذكر من نمضة التربية والتعليم الحديثة التي حققها عالمنا الإسلامي في العقود الأخيرة. وقبل أن تقوم الحركة النسائية في دول العالم الإسلامي بالنظر في مشاكل المرأة كقضايا العنوسة والطلاق، لابد لها من توليد اتجاهات جديدة حول المشاكل التي يسببها عمل المرأة، هذا الذي أصبح موضحة العصر، تسعى معظم النساء من أجله دون النظر لسلبياته المتعددة، ومن أخطرها الاعتماد الكبير على التقنيات التي قد تضر بالصحة النفسية والجسدية لأفراد العائلة.

لقد أن الأوان الذي تستيقظ فيه الحركات النسائية في دول العالم الثالث، وتوجه إلى العمل على إجراء دراسات جادة وبحوث جادة عن أثر عمل المرأة على تربية وصحة النشء وعلى استقرار الأسرة. كذلك لابد أن نسلط الضوء على ظاهرة استخدام الخدم والمربيات وملازمة التقنيات لأطفالنا وتأثير ذلك كله على نسبة الطلاق المتصاعدة وعلى ظهور الأمراض المستعصية. كذلك لابد من وقفة تأمل وتدبر في هذا المجال بحيث يكون من أهم أدوار الحركة النسائية في دول العالم الثالث الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى التي سبقتها في معالجة قضايا المرأة، خاصة وأن تلك الأمم تجني اليوم المر والعلمق.

وبعد أكثر من مائة عام، وبالرغم من النقل الجوهري للمرأة الأمريكية في سوق العمل، إلا أن الحركة النسائية الأمريكية تراجعت بشدة عن تشجيع المرأة العاملة، بل وانصبت الجهود اليوم على توضيح الآثار السلبية،

الاجتماعية والصحية والتربوية، الناجمة من عمل المرأة سواء على مستوى تربية الأجيال أو على مستوى المنافسة وانتشار بطالة الرجال بسبب توظيف النساء أو بسبب الاتكال على التقنيات. وقد نشرت بعض الرائدات في الحركة النسائية الأمريكية كتباً مضادة لعمل المرأة؛ وعلى سبيل المثال فقد استقالت «ديورا فالوس» مؤلفة كتاب عمل أم «A mother's Work» من عملها كمديرة لجامعة أمريكية وتفرغت لتربية أطفالها. أما الكاتبة «جين شرويدل» فقد أصدرت كتاباً بعنوان «وحددي في الزحام» تشرح تجربة عمل النساء وسط الرجال وما يتعرضن له من مضايقات غاية في الصعوبة والحرج بالإضافة لضغوط تدبير المنزل وتربية الأطفال. كما تم شرح ذلك بالتفصيل الدقيق في كتاب بعنوان (الجنس الثالث) للمؤلفة «باتريشيا ماكروم» التي تؤكد تشرب النساء العاملات بجرعات كبيرة من الذكورة والعدوانية، هكذا ظهر الجنس الثالث في حضارتنا الحديثة بشكل امرأة يخالط تكوينها وتصرفاتها ومزاجها الكينونة الذكورية. وربما تجدر الإشارة لكتاب «أسطورة تحرير النساء في أمريكا» للكاتبة الأمريكية «سيلفيا هوليت» التي تستعرض فيه دراسات عديدة حول عمل المرأة وتخرج بنتيجة حتمية ألا وهي استحالة توفر الشروط الملائمة للتوفيق بين تربية النشء بصورة سليمة وبين أداء عمل جاد خارج المنزل؛ إضافة إلى الضرر الكبير الناتج عن استخدام التقنيات السريعة في الطبخ والتنظيف وغير ذلك.

أما أستاذ العلوم السياسية «أندرو هاكر» في كلية «كوينز سيي» في نيويورك فقد نشر في مجلة المرأة في العدد (٧٧) مقالاً مدعماً بالأدلة القاطعة حول تراجع المجتمع الأمريكي عن تأييده لعمل المرأة، وذلك نظراً لطغيان سلبيات العمل على الإيجابيات وبالذات في ما يتعلق بالأمومة وصحة المرأة، بالإضافة لعدد من المشاكل الصحية والاقتصادية والسياسية والتربوية التي أثبتت خطورة خروج المرأة لسوق العمل. ومنها أيضاً حقوق المرأة التي تم اكتسابها على حساب الرجل الذي عادة ما يفقد فرص العمل (كسكرتير مثلاً) مما جعل الكراهية والتنافس البغيض يشتعل بين الجنسين. كذلك قد يشجع عمل المرأة على تفشي النمط الاستهلاكي لميزانية الأسرة، مما يؤدي إلى ميوعة واتكالية النشء، كما يؤدي بشكل غير مباشر لتلوث البيئة، نتيجة الإسراف في استخدام التقنيات والأواني الورقية والحفاظات وغيرها مما يرمى في المزابل بعد استخدامه مرة واحدة فقط.

وحيث إن داء تقنيات الانحلال لم يستفحل بعد في الدول الإسلامية، فإن دور الحركة النسائية في هذه الدول هو التصدي لعمل المرأة دون ضرورة، جرياً وراء ما يسمى بالحرية والمساواة وحقوق المرأة التي قد تشمل ممارسة الجنس وفي الإجهاض وغيرها من القيم الغربية، التي يظن بعضهم أنها قد تطفئ على المرجعية الإسلامية تحت بريق حجج خادعة ومغلقة بالأوهام والأحلام الوردية للنساء^(١).

(١) هانس بيتر مارتين وهارالد شومان، مرجع سابق.

الفصل الخامس

أهمية وعي المستهلك بخطورة التقنيات الحديثة

هناك منتج للحضارة المادية وهناك مستهلك لها، وقد أصبح الغرب وبعض دول شرق آسيا منتجاً ومصدراً للحضارة المادية بينما أصبحت الدول العربية مستهلكاً لها، وهذه حقيقة لا مراء فيها. وعادة ما يكون المنتج أكثر وعياً من المستهلك بأضرار السلع التي ينتجها. هكذا نرى في الغرب برامج للتوعية المستمرة لأضرار التقنيات والسلع الحديثة، أما اليوم فقد آن الأوان ليأخذ الفرد العربي حذره الشديد من سوء استخدام بعض التقنيات، كذلك من استهلاك الكثير من المنتجات المصنعة كالأغذية والملابس والفرش والأدوية وغيرها. ومن هنا لابد من تثقيف المستهلك في مسائل التغذية والملبس والفرش والعلاج وطرق استخدام التقنيات، كذلك لابد من تثقيفه في كيفية استخدام المرافق الحضارية بجميع أشكالها ومستوياتها دون أن يضر نفسه أو بالبيئة من حوله.

واليوم يتزايد الاعتقاد بأن معظم الأمراض ما هي إلا نتاج التأثيرات السلبية لاستخدام التقنيات كالأجهزة الإلكترونية والكهربائية وغيرها؛ أو تلك التي تحيط بالفرد كالفرش والأصباغ وصرعات الديكور والإضاءة وتوزيع المرايا والمعادن وأدوات التزين. كما ثبتت خطورة العقاقير التي

توقف تأثير الزمن مثل حقن الكولاجين والفيبريل والهرمونات والتقشير الكيميائي وجراحات الليزر وغيرها! فكيف يتصرف الفرد؟
يتطلب ذلك بالضرورة وعي الأفراد والحكومات، سواء كان ذلك في الدول المنتجة أو المستوردة، مع بذل المحاولات الجادة لحماية وتوعية المستهلك بكل ما ذكر آنفاً.

- ملوثات من الأجهزة والسلع:

إن الأمثلة على الملوثات الصادرة من الأجهزة والسلع كثيرة ومتنوعة، ولنلخص بعضها فيما يأتي :-

١- الأشعة والمجالات الإلكترونية ومغناطيسية المنبعثة من شاشات الحاسوب والتلفاز وغيرها: من هنا تنبع ضرورة وضع الفلتر أمام هذه الأجهزة لاستبعاد هذه الأشعة وتقليل خطر الذبذبات. كذلك ضرورة الحذر والبعد عن ذبذبات الهاتف الجوال وجهاز النداء بل وكافة الأجهزة التي تطلق ذبذبات من الإشعاع، ويظن بعضنا أنه لا ضرر من استخدام السماعات المعلقة للجوال؛ ولكن ثبت علمياً أن كمية الإشعاع التي تنتقل من الهاتف المحمول تزيد ثلاث مرات عند استخدام السماعات المعلقة! كذلك لا بد من خلو غرف النوم من الأجهزة الكهربائية بجميع أشكالها؛ بل يتوجب تفادي استخدام البطانيات ووسائد التدفئة الكهربائية لأنها تولد مجالات كهربائية كبيرة وقرية من جسم الإنسان. كذلك تعتبر إشعاعات المنبه الكهربائي أخطر كلما قربت من جسم الفرد^(١).

(١) مكتب العمل الدولي في جنيف، حماية العاملين من الحقول الكهربائية والمغناطيسية لتردد الطاقة، مرجع سابق.

٢- حياة الترف: لاشك في أن حياة الترف تزيد من المخاطر الصحية، وقد ثبت احتواء السجاد وأقمشة الستائر على مادة الفيلاستايرين المسرطنة، وعليه فمن الأفضل غسل جميع الأقمشة الجديدة قبل استخدامها أو استبدالها بتلك المصنوعة من الألياف الطبيعية. وقد ظهرت تحذيرات عديدة من مخاطر مادة كيميائية توضع في مستحضرات التجميل والألعاب والمفروشات؛ حيث حذر ناشطون في حماية المستهلكين من أضرار مادة كيميائية تسمى «فيتاليت phthalates» توجد في شتى المنتجات ابتداءً من الدمى ولعب الأطفال مروراً بالمفروشات الصناعية المصنوعة من الفينيل، التي توضع على أرضيات المطابخ أو الحمامات وانتهاءً بمواد التجميل ومغلفات الأغذية، وذلك بسبب خطرها على الجهاز التناسلي للإنسان ودورها في ظهور عيوب خلقية لدى المواليد الجدد، إضافة إلى مخاطرها المسببة للسرطان. هذه المادة تجعل البلاستيك مرناً لدى وضعها فيه أثناء عمليات تصنيعه، كما توضع في أصباغ الأظافر لتسهيل عملية نشرها، وكذلك في مختلف مستحضرات التجميل. وأظهرت دراسات أجريت على الحيوانات بأن مادة الفيتاليت التي ظلت تستخدم على مدى السنين خطيرة على الصحة. ويسعى ناشطو منظمات البيئة والصحة إلى حظر استخدام المادة في الولايات المتحدة ووضع إشارة على أغلفة المنتجات التي تحتوي عليها للتحذير منها. وقد وضع الاتحاد الأوروبي حظراً على استخدام المادة في مستحضرات التجميل التي تسوق داخل بلدانه. كما أعلنت مجموعة «كو - أوب»، إحدى

بمجموعات الأسواق التجارية في بريطانيا عن وضع حظر على بيع جميع المواد المنزلية التي تدخل فيها هذه المادة مثل مواد التلميع ومواد تنظيف الأنسجة. كما حظرت تسويق أنواع من المنظفات والروائح وقطع الأثاث تحتوي على مواد كيميائية ضارة بالصحة.^(١)

٣- السجاد الصناعي: يعتبر السجاد الصناعي، أو الموكيت، العشب الأمثل لكائنات دقيقة تسبب الربو وتثير الحساسية! لذلك من الأفضل الاكتفاء بالفرش الطبيعي أو السجاد المصنوع من الألياف الطبيعية. أما الأرضيات المغطاة بالقرميد أو السيراميك الخشن فهي تمتص وتحتفظ بذرات البنزين القادمة من التلوث الجوي مما يزيد من مخاطر الإصابة بالسرطانات المختلفة^(٢).

٤- الملابس الجديدة: وذلك لأنها قد تحتوي على صبغات سامة مثل الرصاص والكاديوم (قد يسببان الفشل الكلوي والسرطان) والكروم والنيكل، وألياف ضارة وشحنات كهربائية! وعندما تتحرر الأصباغ السامة نتيجة العرق أو البلل فسرعان ما يمتصها جلد الإنسان مسببة الحساسية أو أمراضاً أخرى، أما الألياف فقد تعطي كهرباء يشحن بها جسم الإنسان مما يسبب له الضيق والعصبية، وقد تؤثر على القلب والدورة الدموية، كما تعمل على الإخلال بالتوازن الكهروكيميائي على أغشية الخلايا. ومن الملاحظ تأثر الأجهزة الحساسة عندما تستخدم بواسطة شخص مشحون كهربائياً.

(١) زيدان هندي، هموم الإنسان والبيئة، مرجع سابق.

(٢) المرجع السابق.

أما الملابس المصنوعة من الألياف الصناعية مثل الأكرليك فقد تعمل بمحففات الملابس الكهربائية على تحرير تلك الألياف على هيئة جزيئات صغيرة تتطاير لتصل إلى الجهاز التنفسي مسببة الربو وغيره من أمراض الجهاز التنفسي^(١).

٥- الأواني غير اللاصقة: ضرورة تجنب استخدام الأواني غير اللاصقة (التيفال) أو تلك المصنوعة من الألمنيوم أو النحاس حيث إن ذراتها ترشح وتسبب سمية الطعام؛ ومن الأفضل استبدالها بأواني الزجاج والفخار أو الفولاذ المقاوم للصدأ. كما يتوجب الحذر من جميع الأجهزة والأدوات المطبخية المصنوعة من المعادن التي تنتج ذبذبات وتطلقها أثناء تجهيز الطعام أو تضيفها كشحنات ضارة عند طبخ الطعام. كما أنه من غير الصحي استخدام جهاز الميكروويف للطبخ وتجنب الأوعية البلاستيكية لطهي أو لتقلبم الطعام. أما السيراميك الملون المستخدم في أواني الغذاء (خاصة رخيصة الثمن) فقد يضر بالصحة لوجود الرصاص والكاديوم في تركيبه؛ وقد حذر المعهد الألماني الاتحادي لحماية المستهلك من احتمال تحول الأواني السيراميكية الملونة إلى عامل ضار بالصحة، ويعتمد ذلك على نوع السيراميك ونوع الأصباغ المستخدمة في تلوينه. وحسب الفحوص التي أجراها خبراء المعهد، فإن الرصاص والكاديوم يدنحلان في صناعة بعض أصباغ الزجاج السيراميكي، ومن المحتمل أن تتحلل ثم تتسلل مركبات المواد الضارة إلى جسم الإنسان عند الأكل وتحت ظروف معينة، مثل ارتفاع درجة حرارة الطعام، نوعيته، وما قد يحتوي من مواد، فترة بقاء الطعام في الآنية، ثم نوعية الزجاج وطريقة تلوينه،

(١) جان ماري بيلت، عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، مرجع سابق.

كذلك فإن سرعة تحلل المادتين تزداد مع الحرارة وخصوصاً في فصل الصيف؛ هكذا فإن التسمم البطيء بكميات صغيرة غير مستبعد. وقد حذر المعهد على وجه الخصوص من مركبات الرصاص؛ لأنها أسرع من الكاديوم في تحللها من السيراميك في الظروف «غير الطبيعية»، وعلى هذا الأساس يجب عدم تخزين المواد الغذائية لفترة طويلة في الأواني السيراميكية^(١).

ويظهر التسمم الحاد بالرصاص من خلال أعراض معينة مثل التقيؤ والمغص المعوي والإمساك مع احتمال حصول فشل كلوي في الحالات القصوى. ويكون التسمم بالرصاص خطراً عند الأطفال بسبب حالة النمو التي تجري في أجسادهم، الأمر الذي قد يسبب أضراراً لا رجعة فيها في الكلى. ويظهر التسمم المزمن بالرصاص من خلال حالة فقدان الشهية، الشعور بالإعياء والعصبية والمزاج. وتظهر أعراض التسمم بالكاديوم في شكل إسهال وقيء، ويمكن أن يضر بالكبد والقلب والكلى والدورة الدموية. ويبدو التسمم البطيء بجرعات صغيرة من الكاديوم في شكل إرهاق وصداع في الرأس وبعض الاضطرابات العصبية الحركية.

٦- المنظفات والمذيبات: تتزايد التحذيرات من إمكانية تسرب أنواع متعددة من الملوثات إلى الطعام؛ وذلك عن طريق الكثير من المنظفات والمذيبات ومواد التبييض وغيرها، تلك المحتوية على الديوكسينات والتي تستخدم في غسل الأواني والملابس وربما في غسل أعضاء الجسد؛ مع محاولة

(١) سعيد الحفار، الموسوعة البيئية: البيئة، مفاهيم، فلسفة، مشكلات (١)، التلوث واقتصادياته (٢)، صحة البيئة (٣)، الإدارة البيئية (٦)، القضايا البيئية العالمية (٧)، جامعة قطر، ١٩٩٨ م.

استبدالها بالمنظفات الطبيعية كبيكربونات الصودا والخل الطبيعي. كذلك قد تسرب المبيدات الحشرية والعشبية والأسمدة الكيماوية وغيرها إلى الخضار والفواكه التي يجب نقعها في محلول ملحي أو غسلها جيداً لعدة مرات. وتجدر محاولة الاقتصار على المنتجات العضوية من الفواكه والخضار^(١).

٧- مضادات التعرق ومزيلات الروائح ومستحضرات التجميل:

وخاصة تلك التي تحتوي على المعادن السامة كالألمنيوم والأصباغ؛ وذلك لأنه من السهل تسربها للدم من خلال الجلد! لذلك وجب استبدالها بالمستحضرات الطبيعية الخالية من المعادن والأصباغ؛ وفي حالة عدم توفرها يمكن الغسيل بمحلول الملح أو خل التفاح.

٨- الفورمالدهيد المستخدم في أغراض التنظيف ومركبات البناء

وعمل ألواح الأرضيات الخشبية والأثاث وغيرها؛ وذلك لأنه قد يسبب تهيج الجلد وقد يثير أمراض السرطان. كذلك يتوجب الحذر من الدهانات المنزلية والأصباغ الأخرى التي تحتوي مركبات متطايرة أكثر عشرين مرة من المعدل المسموح به والذي قدره مجلس البحوث الطبية والصحة الوطنية الأسترالي بحوالي ٥٠٠ مايكروغرام لكل متر مكعب. كذلك يتوجب الحذر من التعرض لعوادم السيارات ودخان المصانع أو أماكن حرق القمامة والنفايات المختلفة^(٢).

(١) شعاع اليوسف: مرجع سابق.

(٢) زيدان هندي، فساد الأرض وتدمير الإنسان، مرجع سابق.

٩- المحسنات الغذائية: لابد من نشر الوعي الغذائي المتعلق بأضرار المحسنات الغذائية ومنها الملونات والنكهات الصناعية؛ كما يجب أخذ الحيطه والحذر من الأغذية المعدلة جينياً مع إلزام الشركات بضرورة تصنيف مكونات الأغذية والمشروبات وكتابتها بوضوح وبلغة بسيطة يفهمها المستهلك. كما يجب البعد قدر الإمكان من الدهون المشبعة واللحوم المشوية على الفحم وخاصة تلك المحروقة لتورطها بإثارة السرطان. كما يجب توضيح الآثار الضارة لاستهلاك اللحوم والدواجن المهندسة وراثياً وهرمونياً، مع وجوب فصلها في الأسواق عن غيرها من المنتجات الطبيعية^(١).

١٠- الأدوية المصنعة: لابد من البحث عن بدائل طبيعية للأدوية المصنعة وبالذات المضادات الحيوية تلك المضادة للالتهاب أو المحتوية على الهرمونات أو المنتجات الستيرويدية المصنعة؛ حيث ثبت أن آثارها الجانبية تتراكم وتسبب أوراماً خبيثة أو مشاكل صحية معقدة^(٢).

١١- النفايات والفضلات: إن نظام الإنتاج الضخم لابد أن يصاحبه استهلاكاً ضخماً، كذلك لابد أن ينتهي بنفايات ضخمة أيضاً، هكذا تتراكم الفضلات والنفايات الناتجة عن تصاعد معدلات الاستهلاك؛ وحتماً سوف تمر البيئة بحالة من المعاناة الشديدة إن لم يتم تدوير هذه النفايات

(١) فتحي عبد العزيز، دورة السموم البيئية في مكونات النظام البيئي (القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠م).

(٢) زكية علي مال الله، مرجع سابق.

بتقنيات سريعة ونظيفة وسهلة التكليف مما يعود بالنفع على المستهلك. وحيث إن للأرض موارد طبيعية محدودة فلا بد أن تنفذ ذات يوم، ومن هنا تبرز أهمية التدوير والتصنيع، وقد بدأت الدول المتقدمة بالفعل في تدوير النفايات والفضلات واستغلالها مرة أخرى في صناعات جديدة. ومن هنا تبرز أهمية تعليم الفرد في كل مكان وزمان كيفية التقليل من النفايات بدلاً من تركها لتلوث البيئة والمجتمع، وهذا التعليم لا بد أن يكون مبرمجاً ومكثفاً ومناسباً لجميع فئات المجتمع. أما مصادر الطاقة المخزونة في بطن الأرض فهي موارد مصيرها إلى الزوال والانتهاء؛ ولا بد من استبدالها بطاقات نظيفة غير ملوثة للبيئة قبل فوات الأوان^(١).

لذلك كله، لا بد من:

أ- ضرورة كتابة البيانات بلغة علمية بسيطة ومفهومة على جميع ما يعرض في الأسواق من تقنيات وأجهزة حديثة؛ مع التنبيه على كيفية سلامة استخدامها والتحذير من سلباتها وإمكانية تلويثها للبيئة.

ب- أن يساهم الإعلام بكل قنواته في تثقيف المستهلك، وذلك بالبرامج التلفازية والنشرات الإذاعية وعلى صفحات الجرائد والإنترنت وغيرها. مع ضرورة أن يشرف على ذلك اختصاصيون متمرسون؛ بحيث توضح الحقائق للناس دون مواربة أو مجاملة. وهذا حق من حقوق المواطن على الدولة، عليه

(١) جهاد أحمد أبو العطا، الإدارة الحديثة للمخاطر المهنية والبيئية للصناعات الدولية (دمشق: منشورات المعهد العربي للصحة والسلامة المهنية، ٢٠٠٠م).

أن يطالب به، بل ويصر عليه، نظراً لأهميته القصوى في تحديد مسارات الصحة والمرض وكذلك مسارات العرض والطلب. وعلى سبيل المثال يعرف الناس بأن التدخين ضار ولكن لا يعرفون مضاره على وجه التحديد ولا على أنواع السموم التي يحتويها ولا على كيفية نفاذها للخلايا^(١).

ج- أن تتخذ الدول قوانين صارمة فيما يتعلق بالصناعات، وكذلك النظر في أي بضاعة قبل القذف بها إلى السوق، مع محاصرة الصناعات الرديئة الملوثة، وتشجيع الصناعات النظيفة النافعة. وفي خطوة إيجابية فإن على متجي السلع تقديم تقارير عن توقعاتهم بشأن الآثار السلبية لما ي طرحونه من سلع في المجتمع^(٢).

- حقوق المستهلك:

أما الحقوق «الثمانية» للمستهلك فقد أقرتها منظمة الأمم المتحدة، ولا بد من إتاحتها للأفراد، وهي كما يأتي:-

١ - حق المعرفة بالحقائق، التي تساعد المستهلك على القيام بالاختيار السليم وحمايته من الإعلانات وبطاقات السلع التي تشمل معلومات مضللة وغير صحيحة.

٢- حق الأمان للمستهلك من جميع المنتجات، مع الابتعاد عن عمليات الإنتاج والخدمات التي قد تسبب مخاطر على صحته أو بيئته.

(١) أحمد شوقي، هندسة المستقبل (القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ١٩٩٢م).

(٢) فتحي عبد العزيز، مرجع سابق.

٣- حق الاختيار بين العديد من المنتجات والخدمات التي تعرض بأسعار تنافسية مع ضمان الجودة والأمان.

٤- حق الاستماع إلى آراء المستهلك وتجاربه التي تمثل مشاركة في إعداد سياسات الحكومة وتنفيذها وفي تطوير المنتجات والخدمات.

٥- للمستهلك الحق في استمرارية العرض الشامل للسلع التي تكفي حاجاته الضرورية. كذلك حق إشباع حاجاته الأساسية من الخدمات اللازمة التي تخص المأوى والرعاية الصحية والتعليم وغيرها.

٦- حق التعويض عن التالف من السلع، والتسوية العادلة المشروعة شاملة التعويض عن التضليل أو السلع الرديئة.

٧- حق التثقيف، والحق في اكتساب المعارف والمهارات المطلوبة لممارسة الاختيارات الواعية بين السلع والخدمات. كما لا بد أن يكون المستهلك مدركاً لحقوقه الأساسية ومسؤولياته وكيفية استخدامها.

٨- حق الحياة في بيئة صحية وخالية من المخاطر تمتد للأجيال القادمة.

- تفشي ظاهرة الغش التجاري والطرق المتبعة لمعالجتها:

في تقرير لدائرة التحقيق في جرائم الغش التابعة لغرفة التجارة الدولية في

السعودية صدر ما يلي:

خلال الثلاثة عقود المنصرمة ما زالت عمليات الغش والتقليد ذات حركة دائبة ونشطة في جميع أنحاء العالم، ذلك أن طرق التقليد والغش قد نشرت مجساتها في جميع دول العالم النامية والمتقدمة على حد سواء.

كما امتدت أساليب استخدام تلك الطرق، سواء التقنية منها أو غيرها، مما أدى إلى نشوب حروب تجارية بين الدول تسببت في وقوع ضحايا من المدنيين، وتزايدت بسببها الجرائم المنظمة، وتحطم نتيجتها العديد من الشركات. ومن المعروف أن مرتكبي طرق الغش والتقليد هم بطبيعتهم انتهازيون ويتمتعون بمهارة عالية في استطلاع الأساليب التقنية واكتشاف طرق استخدامها لاستغلالها في إحداث ثغرات في الأسواق للدخول إليها وتوزيع المنتجات والبضائع المقلدة فيها.

ولعل أحد أعظم الاتجاهات المزعجة هو تزايد مستوى التعقيد في صناعة التقليد والغش، حيث طرأت تغييرات كبيرة في الإنتاج والتغليف والتوزيع، فمثلاً يصعب في هذه الأيام لأصحاب المصانع أن يميزوا بين البضائع الأصلية ونظيراتها من البضائع المقلدة بالعين المجردة. كما قام مرتكبو تلك الجرائم باستخدام أذكى طرق التغليف، ومضيفين المظهر الخارجي المطابق للسلعة الأصلية للكثير من البضائع المقلدة. كذلك أدت تغطية التجار بأساليب تقنية حديثة إلى تفشي ظاهرة التقليد للبضائع والسلع في جميع أنحاء العالم. وتعتبر شبكة الإنترنت من الأساليب التقنية الكبيرة الأخرى المتقدمة في مجال التقليد والغش وتفشي هذه الظاهرة البغيضة في جميع أجزاء العالم، ذلك أن هذه الشبكة توفر لمرتكبي تلك الجرائم الكثير من المزايا التجارية أقل ما يكون فيها التكلفة البسيطة لإعداد وتشغيل موقع فيها وكذلك سرعة وسهولة تشغيلها، حيث توفر لمشغل تلك الشبكة الدخول إلى الأسواق في جميع أنحاء العالم من أي مكان خلال أيام الأسبوع على مدار الأربع

والعشرين ساعة. كما توفر هذه الشبكة لأولئك المحرمين عدم تمييز أشخاصهم بطريقة يستحيل معها التعرف عليهم، وأيضاً تمكنهم من منافسة مواقع موزعي البضائع الأصلية.

إن زيادة الوعي بالصناعات المبنية على المعلومات البسيطة والمتداولة تعتبر أحد الأسباب الرئيسية للرخاء الاقتصادي الذي ينشده العالم في العصر الراهن. إن حقوق الملكية الفكرية وبراءات الاختراع والمهارات وكذلك العلامات التجارية تعتبر ذات قيمة كبيرة وجواهر نفيسة بالنسبة للشركات في عالمنا الحاضر.

- ضرورة الإطلاع وتسهيل الثقافة العامة للمستهلك:

تسعى دول العالم الثالث سعياً حثيثاً نحو تحسين الرعاية الصحية والحذر من الأمراض المعدية ومخاطر السرطان والإيدز، وكذلك الحد من حجم الأسر الكبيرة، وتطوير المتاجر الريفية، وزيادة فرص الاستثمار والتجارة النظيفة، وغير ذلك كثير. تماماً كما تسعى شعوب العالم الثالث نحو المزيد من الديمقراطية واختيار حكومات لها مسؤولية محددة وواضحة، كذلك يرغب الجميع في الحد من الفساد والعنف وغير ذلك كثير. ولكن الشعوب قد تنسى في غمار ذلك كله أهمية القراءة والإطلاع والاستفادة من تجارب الشعوب الأخرى. إن الأجيال الحالية لا تستهلك الثقافة العالمية الجديدة المتمثلة في كشف الكثير من مساوئ الحضارة الحديثة! هذا واقع مؤلم ويزداد سوءاً بمرور الأيام، إذ أنه قبل ثلاثين سنة كان هناك من يؤكد بأن نسبة

القراء العرب هي ٥%، أي أن هؤلاء كانوا حوالي ٥ ملايين قارئ، إذا اعتمدنا أن عدد العرب كان مائة مليون نسمة.

أما اليوم فقد أكدت كبرى دور النشر العربية أن متوسط النسخ المطبوعة من الكتاب العربي في ثلاث سنوات هو ثلاثة آلاف نسخة فقط، مما يعني أن نسبة قراء الكتب من بين ٢٦٠ مليون نسمة من العرب لا يزيد على صفر فاصل بعض الأرقام وهذا مؤشر خطير جداً ويستوجب وقفة جدية، حتى أن أحد الناشرين قد أعلن يائساً: إن نصف الكتب التي تطبع لاتباع، ونصف ما يُباع لا يُقرأ، ونصف ما يُقرأ لا يُفهم، ونصف ما يفهم قد يفهم بالعكس! الكتاب هو أصل ثقافة المستهلك، وهو حجر زاوية الحضارة وسقفيها، ومن السهل حمله واستخدامه في أي مكان وزمان، كذلك من الممكن إيجاد آلاف من العناوين التي لا تسبب الملل أو الاكتئاب، بل تعطي الفائدة والمتعة. الكتاب متعة سهلة متوفرة ومفيدة، وكل ما نحتاجه هو تشجيع الشباب عليها بأساليب وطرق حديثة ومبتكرة.

ولا أبلغ هنا من قول المتنبي:

وخير مكان في الدنيا سرج سابع وخير جليس في الزمان كتاب

- الانسياق وراء التقنيات الحديثة مهما كانت أضرارها:

يواجه الفرد في الحضارة الحديثة أزمات اقتصادية كثيرة من أهمها أزمة عالم الوفرة وأزمة التنوع غير المحدود للمنتجات مما يوقعه في جبال الإسراف والحيرة في آن واحد. واليوم يزداد التنافس التجاري، ويظهر في تنوع طرق

العرض ومنها خفض الأسعار، أو تقديم الجوائز والكوبونات والهدايا المرتبطة بالسلع المختلفة. هكذا باتت البيوت ومكاتب الشركات والمؤسسات مليئة بأغراض ليست ضرورية، بل إن أكواماً منها ومن الملابس ترمى يومياً في حاويات القمامة. ومن الملاحظ تفشي ظاهرة إدمان التسوق بين الناشئة والمراهقين، وهي ظاهرة خطيرة جداً نظراً لاستنفادها الوقت والجهد والمال. ترى هل المشاعر المتفشية مثل الشعور بالنقص والإحباط يرجع بعض أسبابها إلى عدم الشعور بالكفاءة الذاتي من معطيات الحضارة غير المتناهية؟

وبالرغم من أن الفرد يحصل على ما يريد في معظم الأحيان، إلا أن ظهور منتجات جديدة وبسرعة فائقة قد يثير رغبة الفرد في الحصول على أحدث ابتكار مرة أخرى. هكذا يعتاد الفرد الرفاهية، ويدخل في دوامة الاستهلاك اللاهثية، ويتوقع تلقي الجاهز والجديد من كل شيء، كيف بعد ذلك لا تقع الأجيال الحديثة في الميوعة والاتكالية؟ تبدو هذه المشكلة واضحة للعيان بعد ظهور الثروة النفطية في دول العالم الثالث، وعليه ظهرت وتكاثرت مجتمعات الرفاه، وهو اتجاه جسد العديد من المعاني الخاطئة والسلوكيات الغريبة التي أوجدت نموذجاً اقتصادياً يعتمد على القطاع العام^(١).

ومن الملاحظ أن المجتمع الحالي قد تخطى مرحلة التركيز على المنتجات الثقيلة وتوجه نحو المنتجات ذات الطبيعة التقنية الدقيقة الموجهة لنظم الخدمات والمعلومات، وكلما زادت دقة التخصص زاد نجاح المنتج في عالم الطلب

(١) أحمد شوقي، مرجع سابق.

والتسوق. ومعظم صناعات اليوم موجهة نحو إنتاج وسائل التغيير المستمر في أنفسنا وفي الطبيعة من حولنا، وربما كان ذلك على حساب بصيرة العقل التي لم تتطور حتى الآن بنفس تطور العلوم المادية الصرفة. لقد أصبح التنوع المكثف للماديات أسرع تنوعاً في تاريخ البشرية! وهو نتيجة للحصاد التقني الذي فاق كل ما أنتجته البشرية في القرون الماضية. وقد أدى ذلك إلى أزمة تسمى «التحول إلى الاستهلاك غير المحدود» ثم إلى أزمة تسمى «سرعة الزوال» وأزمة «التحدد السريع»، وجميع هذه الأزمات تجعل تكيف الفرد صعباً جداً. ولن يستطيع الفرد العادي مسايرة التطور حتى ولو ازدادت سرعته إلى حد معين، وحين يفقد المرء مرونته مع التطور الحالي فسوف تظهر عليه ضروب من ردود الفعل، منها القلق، وعدم الرغبة في التعاون، والعنف، والمرض الجسدي والنفسي، وعلى أقل تقدير الشعور بالكآبة والفتور.

لقد بدأ الاقتصاد بتقديم السلع الضرورية الجيدة ثم أصبح يقدم خدمات الرفاهية المتنوعة، وفي مرحلة أرقى اتجه الاقتصاد إلى محاربة الفساد الفني والقذارة والضجيج والتلوث بكل أشكاله. لكن في ظل الوفرة المتاحة لغالبية البشر، وفي ظل الصناعات الغذائية المتعددة سوف يتعطل الاقتصاد المبني فقط على تغذية الجسد، وعليه لابد أن يكون للاقتصاد العالمي دور فعال في توفير غذاء العقل والروح وترضية النفس البشرية من جوانب أخرى. وهاقد بدأ ذلك فعلاً بإرضاء الجوانب النفسية لعدد من المنتجات، وكمثال جيد على ذلك السيارة ذات الأزرار المتعددة التي ليس لبعضها فائدة تذكر لكنها

ترضي نفسية المشتري كثيراً. وهكذا سوف ينظر في المستقبل لكل سلعة من حيث أبعادها النفسية بالإضافة لجانب نفعها المادي، ولتلك الأسباب مجتمعة يتجه الفرد اليوم لشراء واقتناء كل ما هو غريب وغير مألوف. ومن عادة الفرد عدم الاعتراف بالتغيير رغبة منه في الهدوء والسلام، إلا أنه بازدياد التغيرات غير المألوفة فلن يتمكن من إنكارها، وهكذا سوف تخرج الأمور بالتدريج عن سيطرة البشر وسوف تتسارع الأمور الغريبة والطارئة في حياة البشرية مما يجبرها على إعادة النظر في كل شيء.

معاناة البشر من أضرار الأدوية، وعواقب العمليات

الجراحية وبعض التقنيات الطبية؟

بالرغم من معاناة البشرية من الأعراض الجانبية لكثير من الأدوية وبعض المنجزات الطبية إلا أن حملات التوعية في ذلك قليلة بل نادرة! والسبب هو سيطرة شركات الأدوية والمؤسسات الطبية على وسائل الإعلام، بل وقدرة رجال الأعمال على تهديد كل من يتعرض لمصالحهم إلى جانب تعزيزهم للدعاية المغرية للمنتجات الطبية وبصورة إيجابية^(١). هذا إلى جانب الثقة العمياء التي يوليها الناس للطب والأطباء. وليس أكبر دلالة على ذلك توسعة المنشآت الطبية في كل دول العالم دون الحد من أضرارها، بل وجعلها مناطق للسياحة والتسوق!

(١) زكية علي مال الله، مرجع سابق .

وكثيراً ما تصدم البشرية بفداحة الأضرار الناجمة عن العمليات الجراحية أو تناول المستحضرات الطبية المصنعة والتي لها آثار جانبية سلبية؛ نورد هنا بعض الأمثلة على سبيل الدلالة لا الحصر:

١- عقار مسكن يؤدي لأمراض جلدية نادرة:

صدرت تحذيرات صحية أميركية من أخطار عقار مُسكن يؤدي لأمراض جلدية نادرة.. فقد دعت وكالة الغذاء والدواء الأميركية «FDA» الأشخاص الذين يتعرضون لطفح جلدي لعدم استخدام عقار مُسكن للألم جديد اسمه «باكستر، Baxter»، أو التوقف عن تعاطيه، بعد أن أدى تناول العقار إلى ظهور أمراض جلدية نادرة قد تؤدي للوفاة. وقد تلقت الوكالة ثلاثين تقريراً حول الآثار الجانبية الخطيرة من جراء تناول العقار المسكن منها الحساسية والتقرحات بالإضافة إلى أنواع أخرى من الأمراض الجلدية النادرة، وذلك منذ بدء تداوله في مارس ٢٠٠١م. ويستخدم العقار لتسكين آلام المصابين بأوجاع العظام والروماتيزم وآلام المفاصل وآلام الطمث لدى النساء. ويقدر عدد الذين تناولوا العقار ما بين ألف إلى مليون شخص! كذلك تم سحب دواء «باكسيل» المستخدم في معالجة الاكتئاب من السوق في ١٥/٤/٢٠٠٥م؛ لأنه قد يزيد من الميل للانتحارية. وفي دراسة جديدة أجرتها مجموعة التأمين الطبي الرئيسية في الولايات المتحدة «ويل بوينت»، ثبت أن استخدام عقاقير «ايوكس» و«بكسترا» و«سيليريكس» المضادة للالتهابات، تزيد من احتمال الإصابة بمشاكل في القلب.

٢- مخاطر تشطيب القرنية بالليزر:

من المفاجآت غير السارة، التي يفجرها العلماء في كل يوم، ما تم اكتشافه حديثاً من وجود مخاطر عند تشطيب القرنية بالليزر لتعديل قوة البصر.. فقد جاء في تقرير للبروفيسور «جون مارشال» أستاذ طب العيون في كلية «سانت توماس» بلندن - وهو أكبر خبير بريطاني في مجال تشطيب القرنية بالليزر لتعديل قوة البصر- من أن تلك العملية لا تخلو من مخاطر لأنها قد تؤدي إلى تآكل القرنية «CORNEA EROSION» بل وقد تؤدي إلى نتوئها وخروجها عن موقعها، وإن بعض من خضعوا لتلك الجراحة احتاجوا لاحقاً لعمليات نقل وزرع القرنية. العملية الليزرية انتشرت بسرعة وعلى نطاق واسع لأن أسعارها مغرية ومقنعة ولأنها بلا ألم، وتكلفتها معقولة، ونتائجها فورية. ولكن محاذيرها تكمن في أنها تستوجب قطع الألياف التي تسهم في تماسك القرنية، ولا يمكن أن تعاود الألياف المقطوعة النمو، كما أنها تستوجب كحت وكشط نحو ثلث سمك القرنية، ويتساءل الطبيب «مارشال»: إذا قطعت ثلث الأسلاك نصف القطرية في إطار سيارتك ووضعت مكانها محلولاً مطاطياً فهل ستفقد سيارتك بعد ذلك ببال مستريح؟

٣- الإيدز يصيب المرضى على يد جراحيهم:

في سابقة خطيرة من نوعها تم تحذير ٩٠٠ شخص سبق لهم تلقي علاج بعيادة خاصة بالقرب من باريس، وفرض عليهم إجراء فحوص الإيدز (نقص المناعة المكتسب) بعد أن تبين بأن رجلاً مسناً حمل فيروس «اتش.آي.في» المسبب للإيدز، وذلك بعد أن عالجته عضو بفريق طبي

مصاب بنفس الفيروس. وأكدت عيادة «جاك كارتيه» بضواحي جنوب باريس بأن الفيروس قد ينتشر بصورة سريعة إذا لم تتم السيطرة عليه من خلال المراجعين لتلك العيادة.

٤- الأدوية المضادة للالتهابات تُفقد صلاحية العلاج ضد

الالتهابات البكتيرية!

لا يمر عام دون أن يحكم الطب على عدد من الأدوية المضادة للالتهابات بعدم الصلاحية للعلاج ضد الالتهابات البكتيرية، وذلك بسبب المقاومة التي تطورها البكتيريا للأدوية؛ وهي من أخطر المشاكل التي تواجه الطب في صراعه ضد الجراثيم. ويمكن لهذه المقاومة أن تضر بالعلاج، وأن تسبب بموت الآلاف في العالم الثالث. كما أن الأبحاث العلمية المنشورة تثبت أن (٨٠) من أنواع البكتيريا العنقودية في اليابان قد تطورت إلى بكتيريا تتمتع بمقاومة متعددة للمضادات الحيوية. وترتفع هذه النسبة بين «الستافيلو كوكوس» في ألمانيا إلى ١٥%، وإلى ٥٠% في الولايات المتحدة. هذا مع ملاحظة أن هذه النسبة ترتفع باطراد بين مختلف أنواع البكتيريا في معظم بلدان العالم الصناعية. ويبدو أن الجين الإضافي في البكتيريا ينقل المعلومات حول جدران أو أغشية البكتيريا إلى بروتين خاص يعمل على تغيير موقعه وبناء «بنية بروتينية» جديدة! مما يجرد الأدوية من سلاحها؛ ويعتمد خبراء الأدوية على اكتشاف هذه «البنية البروتينية» الجديدة، وذلك لتطوير أدوية تهاجم آلية تكوينها، وبالتالي تمنع تطور آلية مقاومة البكتيريا.

٥- ارتفاع خطر في معدل المقاومة للمضادات الحيوية:

بينت دراسة حكومية، في مركز المعالجة والوقاية من الأمراض (CDC)، أن بعض أنواع البكتيريا المميتة المسببة لنوات الرئة وتجثرم الدم وأمراض أخرى مقاومة بشكل خطير للمضادات الحيوية. ولقد حذر الخبراء منذ عقد من الزمن بأن الاستخدام العشوائي للمضادات يساعد الجراثيم على اكتساب مقاومة ضدها، حيث تكون هذه المقاومة في البدء للبنسلين لتشمل في ما بعد المضادات الأحدث، مما يزيد من مخاوف ارتفاع معدل الوفيات الناجمة عن الالتهابات. إن الاستخدام الزائد والعشوائي للمضادات ليس فقط من قبل الأطباء بل من قبل المزارعين والبيطريين أيضاً؛ قد خلق سلالات جديدة من الجراثيم التي لا يمكن لأي من المضادات، التي يفوق عددها المائة، أن تستأصلها ولا حتى بواسطة «الفانكوميسين Vancomycin» والذي يعتبر السلاح الأخير ضد التهابات المكورات العنقودية عندما تفشل كل الوسائل السابقة. ولكن كيف تحدث هذه المقاومة؟

إن جوهر هذه المقاومة هو الحقيقة القائلة: بأن البقاء للأفضل. فإذا تمكن مضاد حيوي من القضاء على ٩٩% من الجراثيم المسببة لمرض ما، فإن النسبة المتبقية من الجراثيم سوف تنتج سلالات جديدة من الجراثيم التي لا تتأثر بذلك المضاد المستخدم. والأسوأ من ذلك هو أن هذه الجراثيم قد تتمكن من نقل هذه المقاومة إلى أنواع جرثومية أخرى.. ويقول الدكتور «ويتني» الذي نشر هذا البحث في مجلة «نيو إنجلاند»: إن ظهور المقاومة

للمضادات يجب أن يثر اهتماماً كبيراً وبحثنا على العمل بشكل مسؤول، فعمر المضادات بالكاد يبلغ الستين عاماً، ومع ذلك فإن الاستخدام العشوائي لهذه العقاقير يهدد قدرتنا على قهر التهاب السحايا والانتانات الأذنية وذوات الرئة عند الأطفال.

وبالرغم من ذلك مايزال العمل قائماً على قدم وساق في إنتاج أصناف عجيبة من اللقاحات، بل وتبارى الدول في التفاخر بذلك، وعلى سبيل المثال وفي مايو من عام ٢٠٠٢م، أفادت شركة «كروسيل» الهولندية التي تعمل في مجال إنتاج الأجسام المضادة بأنها ستطور لقاحاً ضد فيروس «الايولا» القاتل بالتعاون مع وكالة أبحاث أميركية. وقد أشارت إلى أن لها خيار الاحتفاظ بحقوق التوزيع المطلقة للمصل بمجرد أن يصبح جاهزاً. ويسبب الفيروس حمى «الايولا» النزفية وهي من أخطر الأمراض التي عرفها الإنسان. وقد ظهر المرض في أفريقيا في السنوات الأخيرة متسبباً في وفاة المئات، ولا يوجد حالياً مصل للحيلولة دون الإصابة بالمرض أو لعلاج المصابين بالفيروس. وقد أبرمت الشركة اتفاقاً مع مركز البحوث التابع للمعهد الوطني للحساسية والأمراض المعدية لتطوير اللقاح. والمعهد الوطني للحساسية والأمراض المعدية تابع للمعهد الوطني للصحة، وهو أكبر مركز بحوث طبية في الولايات المتحدة. ويستهدف لقاح «الايولا» تطعيم المسافرين والمسؤولين الحكوميين والجنود والمقيمين في المناطق التي تعاني من وباء «الايولا» في إفريقيا، علاوة على ذلك قد يوفر اللقاح حماية من الفيروس القاتل في حالات الحرب البيولوجية .

٦- جراثيم خطيرة في عمليات التنظير الباطني:

صدرت عن معهد الطب البيئي وتقييم المستشفيات من جامعة «فرايبورغ» الطبية في ألمانيا نتائج دراسة جديدة حول تعقيم أجهزة التنظير الباطني «Endoscopy» في ألمانيا وأطلق عليها لقب «الفضيحة»! وذكر التقرير أن من حق كل مريض أن يخضع لعمليات تنظير دون مخاطر التهابة! وأن الخلل في تعقيم الأجهزة في ثلثي الحالات هي فضيحة لا يمكن السكوت عنها في بلد متقدم مثل ألمانيا. وكان «مشروع الصحة الوقائية في التنظير الباطني» قد كشف نتائج دراسة أجراها على أجهزة التنظير الباطني في ٥٧٥ مستشفى وعيادة، وتوصل إلى أن ثلثي العمليات في ألمانيا تجرى بأجهزة تفتقد الشروط الصحية. شملت الدراسة أخذ عينات من أجهزة التنظير (المسبار) من عيادات الطب الباطني والجراحة والمسالك البولية والطب الداخلي من مختلف بقاع ألمانيا، ووافق كل الأطباء ورؤساء المستشفيات على المساهمة فيها طوعاً. وقد تبين من خلال تحليل الأجهزة أن ٣٤% منها فقط كانت معقمة تماماً وتخلو من وجود البكتيريا في حين أن البقية تفتقد بشكل متباين الشروط الصحية.

وذكرت الدراسة أن المختصين عثروا في ٨% من الحالات على البكتيريا المعدية والجراثيم المختلفة، بل وحتى بعض بقايا الغائط كانت في الأنابيب والأجهزة التابعة لها! كما فشلت ٢١% من العيادات والمستشفيات في عملية تنظيف وتعقيم الأجهزة بعد استخدامها، وتسببت هذه الحال في نقل العدوى

بالبكتيريا المقاومة للمضادات الحيوية عند بعض المرضى. وتسببت الجراثيم الملازمة للرطوبة في تلويث الأجهزة من جديد في ٤٩% من الحالات بسبب فشل أو عدم اهتمام العيادات بتجفيف الأجهزة بشكل جيد. إن أخطر ما في الأمر هو أن هذه الدراسة ليست الأولى، لأنه سبق لمبادرة «الوقاية» أن أجرت دراسة مماثلة قبل ثلاث سنوات، وتوصلت إلى ذات النتائج «المربعة». وكانت تلك الدراسة قد شملت خمساً وعشرين عيادة وثلاثين مستشفى في ولاية «بافاريا» فقط، وكشفت بدورها أن ٦٥% من أجهزة التنظير الباطني لم تكن معقمة بشكل كاف. ويؤكد المعهد بأن نقل العدوى بواسطة مسبار التنظير الباطني قد تسبب بعدة حالات موت خلال نفس الفترة.

- مستحضرات لم تكتشف أضرارها بعد:

وهناك كثير جداً من المستحضرات الطبية المصنعة لم تكتشف آثارها السلبية وأضرارها كلها بعد... من ذلك مثلاً:

١- دواء جديد للأنفونزا :

في كل يوم يظهر دواء جديد قد يكون أشد خطورة من سابقه، وقد كان يوم ١/١/٢٠٠٣م هو الموعد الذي أعلنته شركة «لاروش» لإنزال عقارها الجديد «تاميفلو» Tamiflu» لمعالجة الأنفلونزا إلى السوق. وأفاد البروفيسور «بيتر فوتسلر»، رئيس معهد العلاج الكيماوي للفيروسات في جامعة «ينا» بأن الدواء الوقائي الذي يحتوي مادة «أوسيلتاميفير Oseltamivir» يقلل من

أعراض الأنفلونزا بنسبة ٤٠% كما يقلص مضاعفاتها بنسبة ٥٥%. واعتمد
«فوتسلر» في تقييمه لفعالية الدواء على عدة دراسات علمية أجريت في
المعهد كشفت عن قوة الدواء العلاجية والوقائية. وسوف يكون بوسع
المواطنين الحصول على الدواء من الصيدليات، في شكل حبوب
أو مسحوق، دون الحاجة إلى وصفة الطبيب. وتعتمد حبوب «تاميفلو»
على ميكائزيم جديد لمقارعة الفيروسات باستخدام مادة كابتة لنشاط إنزيم
«نيورامينيداز» Neuraminidase. وتعمل كوابح «نيورامينيداز» عادة على
وقف تكاثر الفيروسات في جسم الإنسان؛ لأنها تعرقل عمل هذا الإنزيم
المسؤول عن تولد الفيروسات الجيدة من خلايا الجسم المتضررة؛ علماً بأن
«نيورامينيداز» تعمل ضد فيروسات A و B المسببة للأنفلونزا.

٢- ملابس مشبعة بالعقاقير يمكنها علاج بعض الأمراض!

في المستقبل القريب من المتوقع أن يزداد الطلب على هندسة الأنسجة،
وقد نجح الباحثون سلفاً في طرح جلود بشرية اصطناعية كما نجحوا في
إنبات مثانات وأمعاء في تجاويف بطون الحيوانات، وهناك محاولات جادة
لبناء أنسجة الكبد والقلب والكلية والبنكرياس. وسيشهد عالم الغد ظهور
مهنة تجمع بين الصيدلة والزراعة ويسمى من يمتنها «pharmer» وتكون
مهمته هي محاولة إنتاج محاصيل وحيوانات تحتوي على بروتينات علاجية،
كما يقوم باستنساخ ماشية حليبيها ولحمها يحوي أمصالاً للوقاية من
الأمراض المختلفة، وقد ظهرت بعض البوادر في ذلك المجال.

وفي مركز «هوينشتاين» الألماني للأبحاث الطبية بدأت دراسة لإنتاج ملابس مشبعة بالعقاقير يمكنها علاج أمراض والمساعدة على الشفاء منها، حيث يعكف الباحثون على تطوير كبسولات متناهية الصغر لعلاج الأمراض الجلدية مثل «الأكزيما». بمواد يشبع بها نسيج الملابس. وتبدأ المادة عملها تلقائياً بمجرد ملامسة جلد المريض، إنها خطوة إلى الأمام مستوحاة من أفكار سابقة مثل القلنسوة المضادة لقرشرة (الشعر) التي توفر نوعاً من الارتياح لكنها لا تعالج المرض فعلياً. الملابس الذكية ربما تجعل الحياة أيسر لكنها قد تعقد المرض أكثر! وتشمل بعض منتجات المستقبل قمصاناً لمقاومة الصداع، وجوارب لمكافحة فطريات القدم، وأخرى مشبعة بالفيتامينات، وملابس داخلية للذين يعانون من التهابات جلدية!

٣- جهاز دوائي إلكتروني ينظم حياة الإنسان اليومية:

لقد ازداد اهتمام العلماء بالأجهزة المجهريّة في الفترة الأخيرة، وبالذات تلك المتعلقة بالأدوية. وقد طور العلماء البريطانيون في عام ٢٠٠١م كبسولة دوائية صغيرة تحتوي على مختبر مجهري، وعلى كاميرا مجهرية يمكن التحكم بها من الخارج لبث المعلومات بشكل بصري. وفي مايو من عام ٢٠٠٢م طور العلماء الأميركيون نوعاً جديداً من الأجهزة المجهريّة دعيت بالكبسولة الفضائية، وهي مصممة بالأساس من أجل تنظيم حياة رواد الفضاء. فهي تزرع تحت الجلد لترمّج بشكل خاص يسمح للكبسولة بإطلاق الأدوية بمواعيد محددة من اليوم، ولا يمكن الحكم على خطورتها إلا بعد إجراء

التجارب العملية، خاصة أنها تحتوي على بطارية طويلة الأمد، وعلى رقيقة إلكترونية تتحكم بإطلاق الأدوية، ثم خزان للأدوية يتصل بدوره مع سطح الكبسولة بثقوب مجهرية، وهذه الثقوب تحيط بما عضلات صناعية تستطيع الاسترخاء والانفتاح لإطلاق المادة الدوائية، ثم تعود للتقلص مرة أخرى. ويمكن استخدام الكبسولة الجديدة من أجل إطلاق الأنسولين بعدما تزرع تحت الجلد، وتوصل مع الدم لقياس السكر ثم إطلاق كمية من الأنسولين تناسب حاجة الجسم. وسوف تستخدم الكبسولة من أجل إدخال بعض الهرمونات إلى الجسم مثل الميلاتونين أو الهرمونات الأخرى المستخدمة من أجل تنظيم ميقاتية الجسم اليومية، خاصة لدى الذين لديهم أعمال ليلية، أو الذين ينتقلون من منطقة زمنية إلى أخرى.

ومن المتوقع أن تتعدى استخدامات الكبسولة الأمور المذكورة سابقاً، إذ يمكن استخدامها كجهاز مانع للحمل، حيث يعبأ خزان الأدوية بهرمون البروجستون أو الاستروجين من أجل منع الحمل لفترة طويلة لدى النساء! أو حتى يمكن استخدام الجهاز لإدخال هرمونات لمنع الحمل لدى الذكور أيضاً! هذا بالإضافة إلى الاستخدامات الدوائية الأخرى التي تحتاج إلى إعطاء الأدوية لفترة طويلة من الزمن مثل الأدوية الفصلية وغيرها.

بالطبع لم يقم الأطباء حتى الآن بأي تجربة سريرية لمعرفة فعالية هذا النوع الجديد من الكبسولات، لكن نتمنى أن تمر فترة طويلة من الزمن قبل أن تدخل هذه الأجهزة الإلكترونية الصغيرة حقل الاستخدام العملي؛ لأن أضرارها قد تكون وخيمة جداً.

- تقنيات الهندسة الجينية.. الأضرار وسبل الحماية:

ما هي الأضرار المستقبلية الناجمة عن زرع البويضات وتقنيات الهندسة الجينية والاستنساخ، وما كيفية حماية المستهلك من نتائجها السلبية؟

بنوك الحيامين والبويضات، التي تتعامل في بيع وشراء البويضات والأرحام والأجنة، تعمل عن طريق الإعلانات التي تعرض في الإنترنت، وقد تشكل في هذا الشأن عصابات ومروجون. وأغلب الظن أن ما يحدث في مناطق عديدة من العالم من جرائم قتل مروعة إنما هي واجهة لشبكة تمارس تجارة الأعضاء البشرية! ودخل هذه الشبكة من بيع الأعضاء الوظيفية المتزعة من الجثث قد يكون مرتفعاً جداً، وفقاً للأسعار السائدة في سوق الأعضاء البشرية العالمية، وهي سوق سوداء بالضرورة، وقد يصل سعر عضو مثل القلب إلى نصف مليون دولار!

ومن مساوئ التلقيح الصناعي ما يحدث من أخطاء في الأنساب! وذلك نتيجة أخطاء وضع البويضات الملقحة في الأرحام الخاصة بها! وعلى سبيل المثال فقد اضطرت امرأتان بريطانيتان إلى الإجهاض بعد أن تحقق المستشفى من أنه ارتكب خطأ في زرع البويضات الملقحة، وقد أكدت ذلك هيئة المراقبة المساعدة على التخصيب! وقد تعرضت امرأتان لسلسلة أخطاء، إذ زرعت بويضة واحدة في رحم الأخرى. وفي يوليو ٢٠٠٢م تحدثت الصحف البريطانية عن خطأ مماثل في عملية زرع لفتاة بيضاء أدت إلى ولادة توأم أسود مع العلم أن زوجها أبيض أيضاً.

ويتمادى بعض العلماء في تأييد ثورة المعلومات الجينية التي تسهل الاستنساخ والتوالد المخبري والتي تهدف إلى دمج الجينات الوراثية لخلق كائنات جديدة! إن أخطر ما قد يحدث في هذا الأمر هو عزل الجينات وتصنيفها ثم امتلاكها واحتكارها بواسطة الشركات والمؤسسات العلمية وغير العلمية! كما قد يتم شراء الأطفال بمواصفات مسبقة أو يتحكم الوالدان في شكل أبنائهم مما قد يخلق مشاكل قضائية بين الآباء والأبناء.

- بنوك للجينات في مختلف أنحاء العالم:

العلماء كادحون في نقل الجينات الوراثية والكشف عن أسرارها، وقد شكل ذلك قفزة نوعية خطيرة خاصة ما يتعلق بالكروموسوم رقم (٢١) المرتبط بأكثر الاختلالات الوراثية شيوعاً ألا وهو مرض المنغلة أو الطفل المنغولي (تناذر داون). إن الطريق لفهم أسرار أحرف شفرة الوراثة بات مفتوحاً تماماً، فقد أعلنت مجلة «نيتشر» في فبراير ٢٠٠١م أن قراءة التركيب الكامل للجينوم البشري قد استكمل وأن العدد الكلي للجينات البشرية لا يزيد عن بضع وثلاثين ألف جين وهو أكثر بقليل من ضعف عدد جينات ذبابة الفاكهة! هذا الإنجاز الخطير قد يقدم بعض التسهيلات في مجال كشف وعلاج الأمراض، وقد يستطيع الفنيون في برمجة الجينات إعداد وصفات علاجية لكل إنسان على حدة أو إدخال تغييرات على الجين الواحد باستخدام الحاسوب، كما يمكنهم عمل المسوحات لرصد الخلل في الحمض النووي بإجراءات وقائية ضد الأمراض الخطيرة، وقد تظهر لهذا الكشف مساوئ استغلالية جمة في المستقبل.

وحدثاً أفادت دراسة نشرتها مجلة «ساينس» الأمريكية عن عملية تعديل جيني تضاعف مدة الحياة بدون تأثيرات جانبية؛ وقد أوضح الباحثون في جامعة (سان فرانسيسكو) والذين أجروا تلك الدراسة بأن هذه العملية تقضي بتعديل بعض الجينات (المورثات) التي تنظم النشاط الهرموني في الجسم والموجودة لدى العديد من الكائنات الحية ومنها البشر. وقد أتاحت التقنية، التي تم اختبارها على دودة طولها ميليمتر واحد شائعة الاستخدام في المختبر، تعطيل مجموعة من الجينات عند مراحل مختلفة من حياة الدودة، وذلك لدراسة تأثيرها على طول الحياة، ومنها جينة مسؤولة عن ترميز مادة لاقطة للأنسولين وهرمون ينشط النمو، وقد أثبتت دراسات أخرى تأثير هذا العامل الهرموني على مدة حياة الذبابة والفأرة. ومن المرجح بالتالي أن يكون لها الدور ذاته لدى الإنسان؛ مع تأثير هذه الجينة على الوظيفة التناسلية.

وقد اكتشف بأنه عند تعطيل الجينة «داف-٢» فوز الولادة فإن الديدان تعيش مرتين أطول من غيرها! إلا أنها تتناسل بصعوبة. وفي المقابل إذا ما تركت الجينة تعمل بشكل طبيعي حتى سن البلوغ وتم تعطيلها عند ذلك عاشت الديدان لمدة أطول مع الاحتفاظ بقدرتها التناسلية الطبيعية.

لكن الخطر يظل محققاً بالبشر نظراً للبون الشاسع بينهم وبين الديدان !

- تشوهات الاستنساخ:

إذا بدأ الأطفال المستنسخون بالظهور في المستشفيات فإن العلماء يتنبأون أنهم سيوصلون بأجهزة التنفس؛ لأن قلوبهم ستكون مشوهة! وسيتم أيضاً وصلهم بأنابيب إعدام؛ لأن الأطفال المصابين بإعاقات دماغية لن يستطيعوا الرضاعة، وقد يصاب غيرهم بإعاقات جسدية شاملة. وحتى هؤلاء الذين يولدون بمظهر طبيعي قد يكونون مصابين بالصرع أو الانطواء الذاتي أو السلوك غير الطبيعي. وعادة ما يقوم الأطباء البيطريون بقتل الوليد بطريقة رحيمة، فهل سيقوم أولئك الذين يحاولون استنساخ إنسان بقتل الأطفال؟

ويعتقد بعض الخبراء أن الرضاة الفعلية في قلب عملية الاستنساخ البشري ستكون ناتجة عن أول قضية يرفعها أبوان على مختبر أو طبيب، بسبب طفل مصاب بأمراض وراثية، على شكل رفع قضية سوء مزاوله! عندها سيصبح جدال علماء اليوم عقيماً.

- الأمم المتحدة تحظر كافة أشكال الاستنساخ البشري:

تبت الجمعية العامة للأمم المتحدة، في التاسع من مارس ٢٠٠٥م، إعلاناً غير ملزم يدعو الحكومات إلى حظر كافة أشكال الاستنساخ البشري بما فيها الاستنساخ لأغراض العلاج! مما يشكل انتصاراً للولايات المتحدة بعد أربع سنوات من الجدل المحتدم، وعلى الفور أعلنت الصين وبلجيكا وبريطانيا عدم التزامها بهذا الإعلان! وقد تم إقرار النص بموافقة ٨٤ بلداً ومعارضة ٣٤ وامتناع ٣٧ عن التصويت.

الخاتمة

لمواجهة سلبيات التقنيات، علينا تعزيز الوعي في أنفسنا والإيماء لمن حولنا بما يلي:-

١- على الفرد أن يدرك بأنه واقع بالفعل تحت تأثير الكثير من التقنيات الضارة بصحته، وبأن الخير والشر قد تداخلا بشكل معقد في خضم معطيات الحضارة الحديثة؛ ولا بد أن يواجه الفرد ذلك بشجاعة وحكمة عن طريق الحوار الدائم مع النفس؛ ولا بد أن يتحكم الفرد في إرادته ليتمكن من الاختيار الحر من البدائل المطروحة أمامه؛ وعليه أن يتذكر بأن مسؤولية هذا الاختيار تقع على عاتقه وحده؛ كما عليه التمكن من إدارة ممتازة لأي حوار مع الآخرين؛ وقد لا يوجد أقوى من الكلمات المؤثرة لإضرام النشاط في القوى الفكرية، فالكلمات قد تعمل كما يعمل الدواء. هكذا أحسن علماء النفس استخدام الكلمات وجعلوا منها ترياقاً لتسكين ما يشعر به الفرد ولتخفيف حالة المخاض التي يمر بها.

٢- على الفرد أن يخوض «مواجهة» مع نفسه حتى يدرك أنه ليس مسؤولاً فقط عما يفعله، ولكن أيضاً عن كل ما يراه ويسمعه أو يستقبله أو يقرأه عن طريق وسائل الاتصال المختلفة: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٦). إن إحدى مشاكل الفرد في العصر الراهن هي الفرق دون وعي منه في صيغ

الإعلام مما يجعله عبداً للكلمات والماديات، وقد يعود على أمور يظن أنها ضرورية لحياته بينما هي في الواقع غير ذلك. كذلك على الفرد أن يدرك أنه لا يتحتم عليه أن يفهم كل ما يراه أو يسمعه أو ما يمر به من أحداث، بل عليه أن يحرص ذهنه فقط في ما يهمه ويترك ما لا يعنيه، وفي الحديث الشريف: «مَنْ حُسِّنَ إِسْلَامَ الْمَرْءِ تَرَكَّهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» (أخرجه الترمذي)، وقد ثبت علمياً أن ذلك يحفظ الذاكرة من التدهور ومن التعرض لمرض «الزهايمر».

٣- لا بد أن نجدد أدواتنا العلمية، وأن نسقط بعض المفاهيم المادية التي أثبتت عدم جدواها، وأن يتم الاعتراف بالقدرات الخارقة للعقل في الشفاء وبقوة الإيماء، وبمسارات الطاقة التي تربط كل الخلايا والأعضاء والكائنات جميعاً. إن ذلك يتطلب مواقف متفتحة من العلماء، وتعزيز الدراسات المتعلقة بطاقة العقل وتأثير الروح في المادة، هكذا تقوى القدرة الشفائية الطبيعية التي يتمتع بها الجسد دون أن تضعفه المضادات واللقاحات، وبذلك ينار المصباح السحري داخل نفوسنا لا خارجها، ذلك المصباح الذي يقوى الإرادة الفعالة والعزم المصمم الذي لا يثني لتحقيق الخير والعدل والجمال.

٤- يجب تعزيز الإيمان بالنظرية الكلية للحياة، وذلك بتعميق الروابط بين أنظمة الحياة المختلفة. نحن حقيقة لم نأت إلى هذا العالم بل انبثقنا منه؛ لأننا خلقنا في هذا الوجود، وعلينا المحافظة على رباطنا معه، حتى ننمو معه وليس بانفصال عنه. إن الوحدة مع جميع الكائنات هي سر استمرار ذاتية الحياة وتجدها في كل حين؛ أما مشاعر التوحد مع جميع الكائنات فهو

الشعور المؤدي للسعادة المطلقة حتماً وعلينا تعزيز هذا الشعور مع أنفسنا ومع الآخرين.

٥- خلاصة لما سبق، فإن كل ما هو حاسم بالنسبة لنا يتمثل في معرفتنا بأنفسنا وليس فقط بالعالم من حولنا، وعلينا تصور أنفسنا في سعيها الدائم نحو الكمال وفي تحقيقها للسلام، ويظل الانسجام الداخلي السر في كل قوة للفكر والجسد. هكذا فقد يكون ذو العلم المحدود المنسجم مع ذاته أسعد حالاً وأقوى من غيره، ذي العلم الغزير. كذلك قد يكون ذو العلم المحدود سعيداً وقوياً لو انشغل بإصلاح ذاته عما سواها. ولو انتشر هذا النوع من الإصلاح الفردي بين ذوي القرار والسلطة الحاكمة فلن يعود ثمة وجود لطبقة حاكمة تجرد أنه من واجبها اضطهاد الطبقة التي تحكمها، بل يتحول الوضع لصالح الإنسانية عامة، ولا شك في أن ذلك كفيل بنشر الرحمة والتعاطف بين الأفراد، هكذا لو تراحم الناس ما وجد بينهم جائع ولا عار.

لقد أثبت لنا التاريخ في دوراته المتكررة بأنه كلما ارتقت الحضارة بماديات الإنسان كلما انحدرت بمعنوياته وصحته العقلية والجسدية. وربما يعيش الفرد الفقير في راحة بال، لا يتنفس غير السلام والحرية؛ بينما يكون الغني قلقاً على ماله ومصالحه؛ نراه مجهداً يتصب منه العرق جرياً وراء الأحداث من التفتيات وطمعاً في المزيد من المال مما قد يتقلب وبالأعلى صحته!

وقد أشار المفكر «هلفيسوس» (١٧١٥-١٧٧١م) إلى أهمية التقدم الفكري ولكنه انتقد ما أسماه (سباق الفئران للوصول إلى ثراء أكثر) وكان

يؤمن بأن السعي لكسب العيش عن طريق العمل المثمر، مثل فلاحه الأرض وممارسة الصناعات اليدوية وتوفير حاجات الجماعة من البضائع عن طريق المتاجرة دون إسراف، قد يؤدي إلى سعادة أكبر مما تؤدي إليه الثروات الكبيرة المتجمعة في أيدي قليلة.

هكذا فإن توزيع الثروات على الناس يتيح الفرصة لقدر أكبر من السعادة لعدد أكبر من البشر. إن الحكمة القائلة بأن السعادة في العمل الجاد المثمر هي ما أشار به عدد كبير من الفلاسفة والحكماء، لكن طغيان الآلة قد حرم الكثيرين من نعمة السعادة هذه.

ويفرض التفاؤل علينا تسخير الفكر الدؤوب الصادق لفتح أبواب عصر جديد يتميز بكسر قيود الآلة وإطلاق الأيدي المكبلة التي ما خلقت إلا لكي تعمل؛ وعلى حد تعبير المفكر الفرنسي «فولتير»: «إن الجديدين حقاً هم الذين اخترعوا المحراث ومنسج النسيج وفأرة النجار ومنشاره».. كذلك أيده المفكر «روسو» في أهمية العمل الدؤوب كسبيل للوصول إلى السعادة.

ومن الطبيعي أن يلجأ هذا النوع من المفكرين والشعراء إلى نوع من المصالحة بين الطرفين، فالعقل والعلم والدين والحب يكمل بعضها بعضاً؛ بينما تصبح التقنية شيطاناً شريراً حين تنفصل عن معارف القلب وحده؛ ولعل أبرز مثال ما حدث للعالم النووي البروفيسور «عبد الكبير خان» فيما نسب إليه أنه صار يتاجر بالأسرار النووية، كما يتاجر البائعون المتحولون بالأحذية، والله وحده يعلم ماذا ستكون نتيجة تلك التجارة

الخطرة، فالعالم يقف على شفير الهاوية من جراء استخدام الأسلحة التقليدية، وقد ورد في إحدى قصائد المفكر محمد إقبال: الحب للعلم نتاج العقل، نحن نغمتان لأنشودة متكاملة، ولدنا معاً ويجب أن نعود للعمل معاً، ونمتنع عن المناكفة لنحول العالم إلى جنة، فأنت يا علم إذا انفصلت عن الحب تصبح شيطاناً رجيماً. ولئن شاء الاستزادة من ذلك العزف المتقن على قيثارتي القلب والعقل فعليه يبحث الكاتبة «آن ماري شيمل» عن العقل والتجربة العرفانية، فهناك ما لذ وطاب من شراب الأرواح الأليفة والعقول.

ونضيف بأن السعادة البشرية الكاملة لن تتحقق إلا بسيادة العقل والمنطق وروح الاعتدال والتسامح، وربما كان ذلك هو الهدف الأسمى في الحياة. أما الطبيعة المغلوبة على أمرها فهي ما تزال مصدر كل خير وفضيلة وما يزال الكثير منا يستغنى بظلالها وينسى شروط المحافظة عليها حتى تعطي المزيد. وأما العلم فلم يصل بعد إلى قوانين صارمة تتحكم في شرور البشر وكفها عن إيذاء الطبيعة أو محاولة كفها عن إيذاء نفسها. وما يزال السؤال قائماً: ماذا نفعل كي يكون مستقبل الحضارة الإنسانية خيراً من حاضرها وأمسها؟

ليس عندي من جواب، إلا إنني أدعو إلى مزيد من العمل للتحكم في النفس وفي الشهوات كي تتمكن بدورها من السيطرة على شرور التقنيات.. هذه الحضارة المندفعة في إعصار يحرق الأخضر واليابس ليس أمامها من حل غير التوجه إلى الله بالدعاء وتلمس الطريق نحو الروحانية والسكينة، عليهما يخففان من الانحدار السريع نحو الهاوية.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	* تقديم: الأستاذ عمر عبيد حسنه
٢٥	* تمهيد:
٣١	* الفصل الأول: التقنيات الحديثة والمسيرة الإنسانية
٤٥	- إلى أين يمضى بنا التطور التقني؟
٥٠	- ما الهدف الأمثل من استخدام التقنيات؟
٥٥	* الفصل الثاني: خطورة ثورة المعلومات والاتصالات والمواصلات
٥٩	- أهم الكتب المنشورة والمتعلقة بثورة الاتصالات
٦٢	- البريد الإلكتروني أو الحمام الزاجل
٦٥	- صور من عالم الاتصالات في عام ٢٠٣٢
٦٧	- الحواسيب وشبكات الإنترنت.. نعمة أم نقمة؟
٧٠	- هل ينساق الفرد وراء التقنيات الحديثة مهما كانت أضرارها
٧٠	- التأثيرات السلبية للهاتف النقال
٧٧	- التلوث بالحقول الكهرومغناطيسية
٨٠	- الكهرباء تقود إلى الانتحار
٨٣	- مضار التقنيات المرتبطة بالضجيج الصوتي والضوضاء
٨٦	- الأسبستوس يقود إلى الموت
٨٩	- ثورة المواصلات.. تخطي السلبيات وتحقيق الإيجابيات

الصفحة	الموضوع
٩٣	* الفصل الثالث: التقنيات وقدرات الجسم البشري
٩٧	- التقنيات الحديثة.. رموز وإشارات
٩٩	- تفكك أعضاء الجسم والتقنيات الحديثة
١١٩	- الحد من سلبيات التقنية
١٢٥	* الفصل الرابع: دور التقنيات الحديثة في تفشي الفساد الأسري
١٢٨	- سطوة التقنيات الإعلامية على أفراد الأسرة
١٢٩	- قهر المرأة والطفل بالتقنيات الإعلامية
١٣١	- التقنيات تسهل تجارة البغاء والتهرب
١٤٢	- من أضرار التقنيات على صحة الأسرة
١٥٢	- نماذج لتأثير التقنيات على التماسك الأسري
١٦١	- الدور المطلوب من الحركات النسائية
١٦٥	* الفصل الخامس: أهمية وعي المستهلك بخطورة التقنيات الحديثة
١٦٦	- ملوثات من الأجهزة والسلع
١٧٤	- حقوق المستهلك
١٧٨	- الانسياق وراء التقنيات الحديثة مهما كانت أضرارها
١٨١	- معاناة البشرية من أضرار الأدوية، وعواقب العمليات الجراحية
١٩٢	- تقنيات الهندسة الجينية.. الأضرار وسبل الحماية
١٩٥	- الأمم المتحدة تحظر كافة أشكال الاستنساخ البشري
١٩٦	* الخاتمة
٢٠١	* الفهرس

وكلاء التوزيع

عنوانه	رقم الهاتف	اسم الوكيل	البلد
ص.ب.: ٨١٥٠ - الدوحة فاكس: ٤٤٣٦٨٠٠ - نجومار سوق الجمر	٤٦٢٢١٨٢ ٤٤١٣٤٧١	دار الثقافة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	قطر
ص.ب.: ٢٨٧ - البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦	٢٣١٠٦٢ (٢١٠٧٦٨) (النامة) ٦٨١٢٤٢ (مبنى عيسى)	مكتبة الأدب	البحرين
ص.ب.: ٤٣٠٩٩ حولي شارع للنق رمز بريدي: ٢٣٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤	٢٦١٥٠٤٥	مكتبة دار المنار الإسلامية	الكويت
ص.ب.: ١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨	٧٨٣٥٦٧٧	مكتبة علوم القرآن	سلطنة عمان
ص.ب.: ٣٣٧١ - عمان ١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣	٥٣٥٨٨٥٥	شركة وكالة التوزيع الأردنية	الأردن
ص.ب.: ٥٤٤ - صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣	٧٨٠٤٠ - ٧١٣٦٣ ٢٧٠٣٨ - ٧٥٨١١	مجموعة الجيل الجديد	اليمن
الخرطوم - السودان فاكس: ٧٧٩٣٤١	٠١٢٣٥٠٦٩٥	دار الغد للنشر والتوزيع	السودان
ص.ب.: ١٦١ غورية ١٢٠ ش الأزهر - القاهرة فاكس: ٢٧٤١٧٥٠	٢٧٤١٥٧٨ ٢٧٠٤٢٨٠ ٥٩٣٢٨٢٠	دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة	مصر
فجح موناستير رقم ١٦ - الرباط	٧٣٣٣٢٩	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	المغرب
Muslim welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680	(01) 272-5170/ 263-3071	دار الرعاية الإسلامية	إنكلترا

ثمن النسخة

الأردن	(٥٠٠) فلس
الإمارات	(٥) دراهم
البحرين	(٥٠٠) فلس
تونس	دينار واحد
السعودية	(٥) ريات
السودان	(٤٠) ديناراً
عمان	(٥٠٠) بيعة
قطر	(٥) ريات
الكويت	(٥٠٠) فلس
مصر	(٣) جنيهات
المغرب	(١٠) دراهم
اليمن	(٤٠) ريالاً
* الأمريكان وأوروبا وأستراليا	
وباقى دول آسيا وأفريقيا:	دولار
أمريكي ونصف، أو ما يعادله.	

مركز البحوث والدراسات

هاتف: ٤٤٤٧٣٠٠

فاكس: ٤٤٤٧٠٢٢

برقياً: الأمة - الدوحة

ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة - قطر

موقعنا على الإنترنت:

www.islamweb.net

البريد الإلكتروني: E.Mail

M_Dirasat@Islam.gov.qa

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
مركز البحوث والدراسات
أمانة الجائزة

جائزة الشيخ

عَلِي بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّانِي

للعلوم الشرعية والفكر الإسلامي

إسهاماً في تشجيع البحث العلمي، والسعي إلى تكوين جيل من العلماء في ميادين العلوم الشرعية المتعددة، تنظم أمانة جائزة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني العالمية، مسابقة بحثية في مجال العلوم الشرعية والفكر الإسلامي، جائزتها (١٠٠) ألف ريال قطري.

شروط الجائزة:

- ١- أن يكون البحث قد أعد خصيصاً للجائزة، وألا يكون جزءاً من عمل منشور، أو إنتاج علمي حصل به صاحبه على درجة علمية جامعية.
- ٢- أن تتوفر في البحث المقدم خصائص البحث العلمي، من حيث الإطار النظري للبحث، والمنهج العلمي، والإحاطة والشمولية، والجددة والابتكار.
- ٣- أن يلتزم الباحث بالمحاور المعلنة جميعها.

٤- يقدم البحث باللغة العربية من ثلاث نسخ، مكتوباً على الحاسوب، على أن تكون عدد صفحاته في حدود (٢٠٠-٢٥٠) صفحة (حوالي ٤٠٠٠٠) كلمة.

٥- يقدم الباحث ملخصاً لبحثه في حدود خمس صفحات باللغة العربية، والإنجليزية إن أمكن.

٦- يرفق مع البحث ترجمة ذاتية لصاحبه، وثبتاً بإنتاجه العلمي المطبوع وغير المطبوع، بالإضافة إلى صورة جوار السفر وصورة شخصية حديثة، وصورة من القرص الذي طبع منه البحث.

٧- تُعرض البحوث على لجنة من المحكمين.

٨- يحق للجنة التحكيم التوصية بمنح الجائزة مشتركة بين اثنين أو أكثر من الباحثين، كما يجوز اشتراك باحثين أو أكثر في كتابة بحوث الجائزة .

٩- يحق لأمانة الجائزة سحب قيمة الجائزة، إذا اكتشف أن البحث الفائز قد نشر سابقاً، أو قدم إلى جهة أخرى، لغرض آخر، أو مستلاً من رسالة علمية، كما يحق لها سحب الجائزة في حالة عدم ارتقاء البحوث المقدمة للمستوى المطلوب.

١٠- لا تمنح الجائزة للفائز خلال ثلاث سنوات.

١١- التزام الباحث الفائز باستدراك ملحوظات المحكمين ولجنة الجائزة.

وقد أعلن عن موضوع:

«الحوار منهجاً وثقافة»

كعنوان لجائزة ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، وفق الأطر العامة الآتية:

- منهجية الحوار: مقدماته، شروطه، آدابه، عوائقه.
 - مشروعية الحوار في الكتاب والسنة.
 - الحوار الداخلي (بناء الذات) والحوار الخارجي (التعايش وبناء المشترك الإنساني مع الآخر) (لتعارفوا).
 - الإسلام بين الحوار والمواجهة (نظرية صراع الحضارات).
 - وسائل بناء ثقافة الحوار.
 - من ثمرات الحوار في الدعوة والتربية والثقافة والإعلام.
- آخر موعد لاستلام البحوث:

نهاية شهر آب (أغسطس) ٢٠٠٦م.

لمزيد من الاستفسار، يمكن الاتصال على:

هاتف: ٤٤٢٠٠٦٦ - فاكس: ٤٤٢٠٠٩٩ (+٩٧٤)

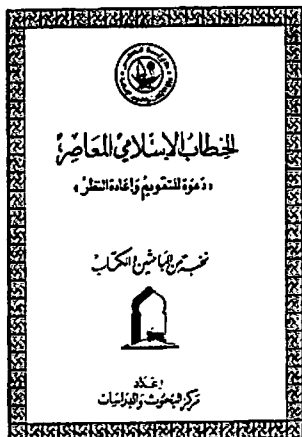
ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة - قطر

البريد الإلكتروني: E_Mail: Sheikhali_award@awqaf.gov.qa

في إطار سلسلة
المشروعات الثقافية الجماعية المشتركة

صدر حديثاً عن:

مركز البحوث والدراسات
في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية



إشكالية (الخطاب) تعتبر إحدى الإشكاليات المركبة، التي تتطلب الكثير من المراجعة والمناقشة وإعادة النظر، كما أنها تتطلب تخصصات معرفية متعددة تمكن من النظر للمشكلة من الزوايا جميعاً.

والكتاب (٧٣٢) صفحة يمثل ساحة للحوار وتبادل الأفكار والمناقشة الفكرية بين نخبة من الباحثين والكتاب، من مواقع ثقافية وجغرافية وفكرية متنوعة، ومحاولة لإنعاش الوعي واستدعاء مناخ التحريض الفكري، والتحرك الذهني.